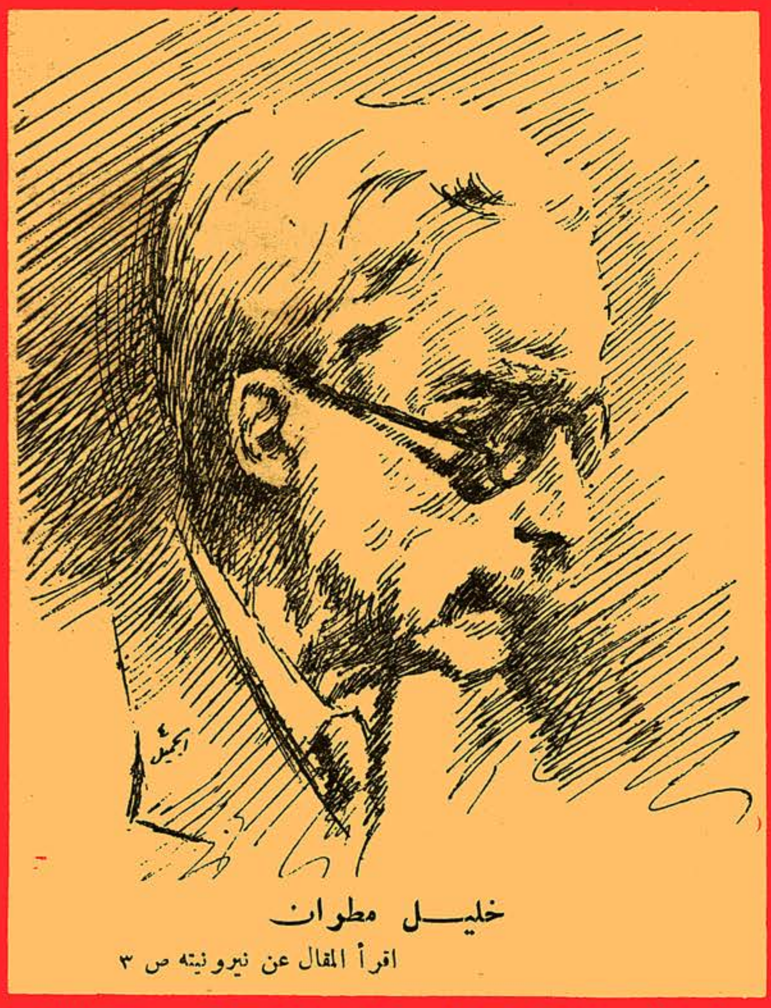




خليل مطران

اقرأ المقال عن نيرونيته ص ٣

مجلة شهرية
تعنى بشؤون الفكر

العدد العاشر
السنة الثالثة

تشرين الاول (اكتوبر)
١٩٥٥

اشتركوا في المجموعة الكاملة

لأعظم أثر انساني أخرجه الأدب الحديث



لشاعر فرنسة الكبير

فيكتور هيجو

وقد صدر منها حتى الآن ستة اجزاء تشكل الاربعة الاولى منها المجلد الاول من هذه الرائعة العالمية التي ستصدر اجزاء متتابعة يبلغ مجموع صفحاتها نحواً من الفين وخمسمئة صفحة من القطع الكبير مطبوعة طبعاً ممتازاً على ورق فاخر ومزدانة بالشروح التاريخية التي لا يستغنى عنها في فهم هذه «الخالدة» الانسانية الشامخة التي حاول كثير من الادباء، منذ عهد شاعر النيل حافظ ابراهيم، ان ينقلوها الى العربية فلم يوفقوا الى اكثر من تلخيصها تلخيصاً لم يبق منها غير الهيكل العظمي، حتى اعتزمت دار العلم للملايين ترجمتها بالحرف الواحد، لاول مرة في اللغة العربية، فكان عملها هذا اعظم جهد ادبي قامت به مؤسسة من المؤسسات في حقل الترجمة منذ سنوات.

ونظراً لقرب نفاد الاجزاء الاول والثاني والثالث اعتزمت الدار ان تفتح باب الاشتراك في هذا المشروع الادبي الضخم على ان تحتفظ بهذه الاجزاء للمشتركين لعدم تمكنها من اعادة طبعها في الظروف الحاضرة، جاعلة بدل الاشتراك خمساً وعشرين ليرة في لبنان وسورية وثلاثة جنيهات في الخارج خالص اجرة البريد. هذا وقد صار في الامكان الان الحصول على اجزاء المجلد الاول الاربعة مجلدة تجليداً فاخراً، وهي تطلب من جميع المكتبات.

اشترك منذ الان في الترجمة الوحيدة الكاملة لكتاب «البؤساء» التي ينقلها الى العربية ببيان مشرق وتدقيق بالغ الاستاذ

منير البعلبكي

فقد تستغني مكتبتك عن كتب كثيرة ولكنها لن تستغني عن هذا الاثر الذي عده تولستوي اعظم رواية انسانية في الادب الفرنسي كله.

ثمن الجزء الواحد: ليرتان

دار العلم للملايين

أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS
Directeur : BAHIJ OSMAN

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص. ب ١٠٨٥ - تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ADAB *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. 24502

العدد العاشر
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٥
السنة الثالثة

No. 10 - Octobre 1955
3ème Année

المغرب العربي

قل للسياسات العجاف .. وراءَ
حميَ الوطيس .. وأنت لست كفاءَ
بطلت رقى (المتفاوضين) ولم تعد
تلقي (الموائد) للشعوب غذاءَ
ما اليوم يوم البائعين مدادهم
اليوم يوم الباذلين دمــاء
والمعرضين عن الاحابيل التي
لا يدرك الهاوي بهنّ نجاءَ
والحاملين على الدخيل بعزمةٍ
لا تعرف التسويف والأبطاءَ
والمضرمين عليه نار تِراتهم
والمطريه الحقدَ والبغضاءَ
والغامسين طعامه بنجيعه
والمالثين شرابه أقذاءَ
المغرب العربيُّ يعرف دربه
ليست دروب السالكين سواءَ
نبذ الدروب الدائرات بخطوه
عبثاً ، وشقّ طريقه حمراءَ
إن الطريق الى الحياة عقيمة -
إن لم تكن فيها الصوى اشلاءَ

ثمن الحياة دمٌ يسيل ، وأنفسٌ
تشقى ، وأجسام تصيب عناءَ
المغرب العربيُّ يصهر قيده
بالنار تلتهم الحمى شعواءَ
ما عاد ينتظر الفكاك عطيّةً
من كفّ آسره ولا استجداءَ
آلى ينال العتق ، فاستبق الألى
أومى اليهم بالفداء فداءَ
والعتق ما أخذ الضحايا عنوةً
لا ما يُساقُ إلى العتيق عطاءَ
المغرب العربيُّ يُلقي درسه
قل للعروبة تحسن الأصغاءَ
من شاء أخذ الحق من متجبّرٍ
نبذ الخنوع وعاف الاستخذاءَ
والحق يسمع للأزيز ويجتوي
محض البلاغة فيه والأنشاءَ

- التتمة على الصفحة التالية -

والحق ، مثل الغيد ، يسلم نفسه
للاقوياء ويحقر الضعفاء

***

النسر يوسف في الحبال ، وطرفه
حيث النسور على الذرى تتراءى
صفق الجناح المغربي وهزّه
فمضى يزفّ عزيمة ومضاءَ
ودعا الجناح المشرقيّ .. فخانه ..
يا ويحه .. أيكابد الاعياءَ ؟ ..
كيف الرقيُّ الى الجواء بجانحٍ
فردٍ ؟.. وكيف يصارع الأنواءَ ؟
والأفق مجنون عنيف أهوج
يزجي الرياح عنيفة هوجاءَ
طعنته في الشرق البعيد (قوادم)
كانت (خوافيها) عليه بلاءَ
فانثال يقذف بالصواعق غيرها
أكذا يداوي الطعنةَ النجلاءَ ؟
هيهات .. تلك هزيمة .. وهزيمة
أخرى يطالعها غداً نكراء

***

إيهٍ (محررة الشعوب !) أأنت من
رفعتْ أمام الثائرين لواءَ ؟!
دعواكِ ، أمس ، خرافة مستورة
اليوم عنها تكشفين غطاءَ
من يطلق الأحرار يوماً لا يته
كبراً على الأحرار واستعلاء

قسماً (بتموز) الذي أغرقته
بدم ، كمثل السيل ، .. راح غثاءَ ..
إن الذينَ سفحت من مُهجاتهم
وعروقهم ما خضّبَ الغبراءَ
لم يَشوِ في (الباستيل) أروع منهمو
عند المنون ترفعاً وإباءَ
ثاروا ، وكانوا صادقين ، لحقهم
أتراكِ ثرتِ خديعةً ورياءً ؟ ..

***

عذراً إذا لم أبك أبطال الحمى
إن البطولة لا تسيغ بكاءَ
يبكي الرجال على الرجال اذا قضوا
ويهللون إذا مضوا شهداءَ
آليت أهزج ، لا أرقرق باسمهم
دمعاً يسيلُ ، ولا اقول رثاءً ،
لا تلحَ أعطاف القريض اذا انثنت
تيهاً ، وإن ماست بهم خُيلاءَ .
شرف الملاحم أن تغنيَ للفدى
وترنّ في ركب الجهاد حداءَ
سمة النضال مواجع موءودة
ومدامع لا تسفح .. استحياءَ ..
تطوي الشعوب على الكفاح جراحها
ولو انها نزفت دماً وذماءَ

بغداد **خالد الشواف**

نداء لانقاذ مراكش ...
بريشة محيي الدين محمد (القاهرة)

الشعر والموضوع

بقلم : رئيف خوري

كان اديبنا الخالد عمر فاخوري اذا ذكر « نيرونية » خليل مطران سماها « معلقة العصر » تعظيماً لقدرها بين الروائع التي ابدعها شعراؤنا المعاصرون .

اما لماذا ابدأ – كمن يفاجيء – بالحديث عن النيرونية هذه ، او معلقة العصر ، فلا تتعب النفس يا قارئي بالسؤال ، لسببين – اولاً ، لاني لن استطيع ان اجيبك قبل نهاية هذا الكلام ، وثانياً ، لانك في نهاية هذا الكلام ستكون قد عرفت الجواب على كل حال .

انشد مطران هذه المطولة الشعرية اول مرة عام ١٩٢٥ . وقدم لها بكلمة قال فيها – على تواضعه – «انها اجرأ ما حاولته قريحة شاعر في الشرق » فهي « اكبر قصيدة متحدة الروي ومتحدة الموضوع ، عرفتها العربية » وقد شاء بهذه التجربة « ان يتبين الى اي حد تتمادى قدرة الناظم في قصيدة مطولة ذات غرض واحد يلتزم لها روياً واحداً » حتى اذا بلغت ذلك الحد بتجربتي ، يقول مطران – « بينت عندئذ لاخوتي من الناطقين بالضاد ضرورة نهج مناهج اخر لمجاراة الامم الغربية في ما انتهى اليه رقيها شعراً وبياناً . »

وهكذا يريدنا مطران ان نفهم ان محور همه في اخراج النيرونية ، قد كان اظهار المدى الذي يتسع له القالب القديم في الشعر العربي ، ليثبت الحاجة الى تجديد هذا القالب . ولقد سمع مطران انتقاداً حين اخرج قصيدتيه « الجنين الشهيد » و « تذكار الطفولة » . قيل عنه انه عدد القوافي في هاتين القصيدتين لتقصيره عن ان يجري شوطاً طويلاً مع القافية الواحدة . فمنتظر ، ومعقول جداً ، ان يكون مطران قد نظم النيرونية واطال فيها تلك الاطالة كلها ، مع التزام القافية الواحدة ليرد على من اتهموه بالتقصير . ولا ريب انه قد نجح بنفي التهمة عنه ، فليس الا شاعر كبير كمطران يستطيع ان يقطع المسافة التي قطعها في النيرونية دون ان تضيّع عليه القافية انفاسه . بل لا ريب انه قد نجح في اثبات الحاجة الى تجديد قالب الشعر العربي القديم ، من جهة القافية على الاقل . فان ترامي الموضوع مع الاحتراز من تكرير القوافي قد اركبه مركباً وعراً حقاً ، فاذا به يتكلف ان يستعمل لنا « اقمطر » في موضع « اشتد » و « غثراً » في موضع «العامة من الناس» و « طثراً » في موضع « رغيد » و« مسجهرا » في موضع «مضطرب » و« مصمقرا » في موضع « موقد» و« اثبجر » في موضع « ارتدع واتعظ». والقافية الواحدة حين تحوج الى مثل هذا العويص المهجور من اللفظ في القرن العشرين فاجدى ترك التقيد بها ومخالفتها .

على ان الواقع ان كل ما نفيده من تجربة (النيرونية من جهة القالب ، ليس شيئاً اذا قيس الى جهة الموضوع فيها . بل ان مشكلة الحالة التي اثارها مطران في النيرونية وفي مطولاته الاخرى قرع لمشكلة الموضوع والشعر العربي . ولم يكن مطران ذاهلاً عن ذلك الامر ، ولذلك سمعناه يصف مطولته النيرونية بانها اكبر قصيدة متحدة الرويّ ومتحدة الموضوع عرفتها العربية . فجمع بين اتحاد الروي واتحاد الموضوع في القصيدة الواحدة ، يريد بذلك ضمناً أن من هذا الجمع بين الرويّ الواحد والموضوع الواحد تتألف المشكلة . وحين يتحرر الشاعر من وحدة الموضوع في قصيدته فيوشك ان لا تبقى مشكلة .

واذن فالنيرونية مطولة ذات موضوع ، وموضوعها على قول مطران نفسه « هو سيرة ذلك العاتي نيرون ووصف ما اتاه من المنكرات ، وفيها أقتم ما سُوّد به قرطاس من مساويء حكم الفرد ، وأشد ما جرى به قلم على الشعب المسكين » اما لماذا اختار مطران سيرة نيرون موضوعاً ينظمه ، فامر يتوضح لنا اذا ذكرنا ان شاعرنا قد اتخذ من وصف اعمال الطغاة في التاريخ سبيلا الى مقصد يتصل بعصره اوثق اتصال . فطوال السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر ثم طوال ما امتدت به الحيوية الشعرية في القرن العشرين ، ما انفك مطران يشهد ظلماً مجسماً في هذا الحكم الفردي المطلق الذي بسطه سلاطين بني عثمان على شعوب الامبراطورية

٣

العثمانية وظلماً مجسماً في هذا السطو الاستعماري الحديث الذي تناولت به الدول القوية الطامعة من استطاعت ان تستضعف من شعوب الارض . فكان مطران تلقاء ذلك شاعراً تجند للحرية على العبودية ، وللاستقلال على الاستعمار ، وللعدل على الظلم ، وغنّى يقظة الشعور القومي .

وصنع مطران ذلك مباشرة في احيان ، كما تشهد قصيدته « فتاة الجبل الاسود » ،وقد مجد فيها كفاح ابناء هذا الجبل الاشداء للاستعمار التركي ، وفي احيان اخرى سلك سبيل المداورة فعمد الى غابر التاريخ ، الشرقي منه والغربي ، فوقف عند نفر من طغاته او مظاهر الطغيان فيه وكان في كل وقفة يستشيط غضباً لما يقترفه الطغاة ويحرّض عليهـم الشعوب . وقصائده في هذا المجال اجود شعره تصويراً وتفكيراً وصدق عاطفة وحسن سرد وقص . وكانت نية مطران ان يجمع هذه القصائد في سفر خاص بعنونه « الطغاة » فجمعناها بعد وفاته في سفر نشرته « دار المكشوف » مشاركة في تخليد ذكـر الشاعر الكبير ونشر انواره . والحق ان مطران بلا اسراف ولا مغالاة ، يعد اكبر شاعر لبناني عربي شجب الطغاة ومسخ عمالقتهم اقزاماً ، ورذل حكم الفرد ، وغار على الشعب غيرة لم يسلك بها طريق شفقة على المظلومين ولا استعطاف للظالمين ، بل جعلها دعوة الى العصف بالجور والطغيان ، ومجد بطولات ابناء الشعب في مقارعة الغصب ، وزيّن الاخلاق النضالية في سبيل الاستقلال والحرية والنور والرقي .

فالنيرونية اذاً ،قصيدة ذات موضوع : سيرة الطاغية نيرون . وموضوعها قائم على فكرة عامة معينة محددة ، موضحة بقوة ، هي ان الطغيان شر ما تبلى به الشعوب . وتتصل بهذه الفكرة العامة فكرة خاصة اساسية ،او هي كالعلامة المميزة في موقف مطران من قضية الطغاة والشعوب . ففي رأيه ان الشعوب هي التي تخلق طغاتها . وهي التي تزيدهم تمرداً بمـــا تطيق من استبدادهم . تخاف الشعوب طغاتها ، او يوجد فيها من يتملقهم فيتضرّى اولئك الطغاة على الشعوب تضرّي الحيوان المفترس . ولكن الواقع ان الطغاة ضعفاء ، لا حول لهم ولا طـول في انفسهم ، وانما قوتهم في خوف الشعب منهم ، وفي تملق بعض فئات الشعب لهم . وما أسرع ما تظهر هذه الحقيقة حـين تجتمع كلمة الشعب على الطغاة فيتساقطون بسهولة كما تنهـار الابنية الكرتونية اذا اصابتها الصدمة ، ويتناثر الورق الاصفر في الريح .

ومن يقرأ النيرونية يجدها ، من اول بيت فيها الى آخر بيت ،محكمة البناء على الموضوع الذي اختاره لها شاعرها ، وعلى ما يتصل بهذا الموضوع من فكرة دان بها الشاعـر في موقفه من قضية الطغاة والشعوب .

يستهل مطران مطولته بقوله :

ذلك الشعب الذي آتاه نصرا

هو بالسبة من نيرون أحرى

فكأنما وضع حجر الاساس للفكرة التي من اجلها أنشأ القصيدة ، وهي ان الشعوب مسؤولة عن من يقوم فيها من طغاة يتولون امورها ويستبدون بها . ثم يمضي في بسط هذه الفكرة وتأييدها :

قزمة هم نصبوه عالياً — وجثوا بين يديه فاشمخرا
ضخموه واطالوا فيئه — فتراه يملأ الآفاق فجرا
منحوه من قواهم ما به — صار طاغوتاً عليهم او اضرا

انمـــا يبطش ذو الامر اذا

لم يخف بطش الالى ولوه امرا

ثم يمضي الشاعر في تفصيل سيرة نيرون ، فيذكر كيف استهل الطاغية عهده حذراً مدارياً الشعب ، ثم كيف تجاسر على الشعب لما آنس منه الخضوع والاذعـان ، وكيف دبر الهلاك لامه مع أنها هي التي قتلت عمه ومهدت له الملك . ثم يصف سياسة نيرون من دس وتفرقـــة ، ورشوة للجيش ، واغداق للنعم على اهل الحظوة حتى « افسد القوم على انفسهم » ثم يلتفت الشاعر الى سلف لنيرون هو قليقولا الذي عـــين حصانه عضواً في مجلس الاعيان الروماني ، ويبدع ما شاء له الابداع في وصف حركات الحصان حين وجدت تلك البهيمة نفسها في ذلك المحيط الغريب ، كما يبدع في تصوير استخذاء الاعيان وتزلفهم الطاغية الذي بلغ من احتقارهم غاية الغاية :

دارت الجلسة في حضرتـه [1]

فادار الذيل في جنبيه خطرا

وله سامعتـــا من لم يثق ،

وله باصرتا من قـــل مكرا

ان اطالوا جدّ رفساً ، واذا

اقصروا حمحم تأنيباً وزجرا

واذا حرك رأساً اكبروا

وحيه ، لله ذاك الوحي درا

عظموا طِرْفاً ، وقبلا عبدت

امم من جهلهـــا ثوراً وهرا

ثم يربط الشاعر هذا الاستطراد الى قليقولا بسيرة نيرون موضوعه الاصلي ، فيقول :

ذاك ابداع قليقولا فهـــل

دونه نيرون في الابداع حجرا

ويتمهل قليلاً ليشرح لنا كيف يسير الطغيان والجهل يداً بيد . ثم يستأنف قصه للسيرة النيرونية السوداء فيـــذكر كيف تهوس الطاغية بالفن وحسب نفسه فناناً عبقريـــاً فائقاً ، فسافر الى اثينا ممثلاً ، ثم كيف استقبلته رومـــا عند عودته اليها بالحفاوة البالغة ، وكيف نوى ان يقيم زينة باحراق المدينة العظيمة . ويتفنن الشاعر في وصف الحريق ، ليلة شبّ في العاصمة الرومانية ، تفنناً لم يترك فيـــه زيادة لمستزيد . وليس وصفه عاماً مجملاً مطلقاً ، بل هو خـــاص ببيئة روما ، يفصل تفصيلا دقيقاً جميع ما كانت تحويه المدينة العظيمة او يتصل بها . فصور التماثيل في رومـــا « تنقض جمرا » ، والوحوش في اقفاص الامفتياترات (الملاعب الرومانية) كيف « كثر اللحم شواء حولهـــا وتأبت بعد جهد الصوم فطراً » ، ويصور نهر التيبر وامواجه الحسان كيف صار ماؤها غسليناً حميمـــاً ، ثم يصور نيرون يتمتع بمنظر الحريق الهائل ويتخيل الاشكال ، التي يتشكل بها اللهب والدخـــان ، طوراً شعراً ، وطوراً كواسر طير ، يفترس بعضهـــا بعضاً ، وطوراً لوحات تفنن في اخراجها رسام ماهر ، وطوراً اصـــداء موسيقى . ثم يعاتب الطاغية عتاباً ساخراً على هـــذا الهـــدوء والمبالغة في صنيعه الفني . حتى اذا فرغ من هـــذا الاستغراق الرائع في الوصف والتصوير يعود الى

---

[1] – المراد : حضرة الحصان

التذكير بفكرته الاساسية ان روما هي التي صنعت نيرونها :

ان روما جعلت نيرونها ،
وهو شر القوم ، مما كان شرا

ثم يستأنف العرض لما تعاقب في حياة الطاغية من فظائع ، فيروي كيف اتهم النصارى باحراق المدينة وكيف القى بهم الى الوحوش الجائعة في الامفيتياتو ، إلهاء للشعب ، لكنه لا ينسى ان يذكر كيف ذهب نيرون ولم يبق من ذكره الا السبة والشتيمة ، وكيف انتصرت المسيحية لان الاضطهاد اعجز من ان يقتل الفكرة العظيمة .

هكذا الفكرة من يرهقها
كمنت ثم علت وثبا فطفرا

ويختم مطران مطولته بوصف نهاية نيرون كيف استفحل به الجنون وثقلت عليه حياته ، واستأجر لنفسه من يقتله حين جبن عن الانتحار .

لاعبا ، حتى اذا ضاق به
ملعب الدنيا تخطاه ومرا
فقضى حين اقتضى منتحرا
بيدي مستأجر أوسع برا

وبالطبع لا ينسى الشاعر الفكرة الاساسية ، او العبرة التي قصد اليها بموضوعه ، فيجعل آخر ابياته :

كل قوم خالقو نيرونهم
قيصرٌ قيل له ، ام قيل كسرى !

وربما كان مطران قد جار على الشعب في مذهبه ان الشعوب تحمل تبعة الطغاة الذين يظهرون فيها وتعد هي المسؤولة عن افاعيل طغيانهم . إلا ان هذه حكاية اخرى كما يقولون . فالذي نحن بصدده الآن ان تجربة النيرونية لخليل مطران قد اثبتت ان الشعر العربي يتسع للخوض في موضوع متشعب ، محكم التأليف مع توفية الموضوع حقه ، ومع رصانة التفكير وقوة التصوير وسعة العلم بحقائق التاريخ .

وقد كانوا يعيبون على مطران ان قصائده اشبه بمقالات وليست شعراً . وهذا في الواقع مذهب من لا يرون الشعر الا ابياتاً مفردة ، محض غنائية ، قد اجيد فيها نظم كل بيت بمفرده . هذا في لواقع مذهب من لا يرون الشاعر مطالباً في شعره بالتركز على موضوع واحد يوفيه حقه . وربما كان هذا التقليد غالباً على الشعر العربي ولا سيما القديم منه الا ما قل وندر .

على اننا في عصرنا اصبحنا نفتقر الى تغيير هذا المفهوم . ولا بد لنا من مطولات شعرية ، وسواء اكانت ملاحم ، ام مسرحيات ، ام مجرد قصص ، ام مطولات تأملية فلسفية . ولا بد للشاعر من موضوع ، وهو مطالب بان يتركز عليه في شعره ، وسواء اتقيد بالقالب القديم ، ام كسر هذا القالب ونوع في القافية ، او في القافية والوزن معاً . واذاً فالشاعر محتاج الى ان يجيد التأليف فلا يقتصر على الاجادة في نظم البيت المفرد . وواجبنا ان نشهد لمطران بانه قد كان في هذا كله رائداً عبقرياً بين شعرائنا المعاصرين !

رئيف خوري

شفيق معلوف والشعر المهموس

بقلم ادوار حنين

سواء اجاء اشياءه من مخارمها، ام ولج اليها من الباب الواسع؛ وسواء اتطرق الى أشيائه من جوانبها، ام نزل عليها من القمم؛ وسواء أعالج موضوعه بالنفس القصصي — الملحمي، ام عالجه معالجة الوصاف المصور — فان شفيق معلوف يبقى شاعر الهمس والبوح، شاعر البث والوشوشات.

فهو إن همّ بالدخول الى «عبقر»، عالم الجن والشياطين، عالم الكهان والسحرة، عالم البغايا والعرافين، عالم التخمة والنهم، التعتعة والانفلات، الزمجرة والالم، المرارة والهزء، عالم المراد الضائع والامل المفقود — إن همّ بالدخول الى «عبقر» حسبته ينقل بين يديه عدة الشعر التي لهوميروس ودانتي، فتتهيأ معه — اذ يعدك بالكثير — لنفس محموم جارف، وخيال جامح مبدع، وتصور منشىء طواف.

«... هذي عبقر ما ترى — وضجة الجن الذي تسمع
«عزت على الإنس فمن حولها — أبالس الأبراج تستطلع
جهاتها الاربع مرصودة — تحرسها الزعازع الاربع
ما أفلت الإنس من زعزع — الا تلقى صدره زعزع»

ثم لا تلبث ان تراه يميل الى «جنية تغني» وينعطف على «سرب من البغايا»، ويتمهل امام «اناهيد» ثم ينتهي الى «همس الجماجم».

وعندما يقف بك في حضرة «اميرة الجن» تعد نفسك باروع ما في عبقر، بأجلّه وأغناه، فاذا به يعيدك الى بوحه وهمسه، فينبئك ان اميرة الجن هذه:

«مستبروح ليس من عبقر — غادرها غرقى ببحرانها»

فخرج بها هكذا، من عالمها وداخلها الى عالمه.

وهو إن اشرف على خرائب بعلبك جبهته عظائم تلك الخرائب كما تجبه تائها إشراقة نور بهية فلا يتمالك ان يصرخ:

«الله اكبر كيف كانت حالها — آكام مجد هذه اطلالها»

وما ان يصحو من نشوة النور البهي حتى يجمد، بقليل من الكلام، كل موضوعه، على جلال ذلك الموضوع، فيقول:

«ربضت على صدر الزمان واوثقت — كلتا يديه فجار كيف ينالها»

ويقول:

«رضم لو انك سرت في جنباتها — لخشيت ان تهوي عليك ظلالها»

ويعفيك بعد هذا من كل ما كان في نفسه عن خرائب بعلبك، فينصرف الى «أفروديت» يتخيل، يتشمم، ويصور، ليغرق، من ثمة، بالبوح الدفيء.

على ان هذا لا يعني ان شاعرية شفيق المعلوف لا تتسع او لا تلين للنفس الملحمي الذي هو — في جملة ما هو — رحابة في التخيل والتصور، قدرة على الخلق واحياء الرميم، براعة في تصوير التصور، ونغم فخيم مديد، على كثير من الافاضة، وحسن الديباجة، والاداء.

غير اني ارى شفيق معلوف اوثق ارتباطاً بعالمه المعاش الناعم، عالم مرهفات الاحاسيس، والخواطر الملتمعة النابضة، والملاحظات الخاطفة الثاقبة منه بالعالم المفتعل المصنوع، عالم الاخيلة والتصورات والاشباح، عالم الناس الذين من أجلهم وجد ذلك العالم، لا من اجل صاحبه الشاعر.

هذا الشعر المهموس الذي يفترق عن شعر الخطابة والانشاد، فيجد مقوماته على غير ما يجد شعر الخطابة مقوماته فيه، والذي باشره، في العربية، بشار، وابو نواس، ومهيار الديلمي والبحتري، وابن الرومي والمعري، ثم تألق على يد الاندلسيين وشعرائنا المغتربين.

هذا الشعر الذي يعبر بأنصاف الكلمات، فيتوسل الرموز والايماء، ويسعى بالدعة والبساطة والايحاء الذي يقول فيه الشاعر وكأنه لا يقول، فينزل على النفس نزول الندى والرخ الرخيم الخافت.

هذا الشعر الذي ينساب من القلب الى القلب على جناح النبرة الصادقة، والكلمة الحلوة، والهمس الطويل الصابر، حتى كأن فيه كان قول المعري:

« اذا قلت المحال رفعت صوتي — وان قلت الصحيح أطلت همسي»

هذا الشعر المهموس له سيدان في لبنان: صلاح لبكي، وشفيق المعلوف.

***

وشفيق المعلوف هو، الى ذلك، شاعر الوثبة والمفاجأة الحلوة. فلا تراه هادئاً مطمئناً في تساوق السرد والوصف حتى يثب عليك، ربحاً من الجذاف، مارداً من القمقم، بكلمة، بصورة، باستعارة او تشبيه، تخلخل ما كان بينك وبينه من تشارك في الناعمات ومن انسجام، فيقذف بك الى ابعد

البعيد كأنك دمية بين يديه، على ما تراه واعلافي وصف الديك :

طأ الـــثرى بيرش تحسبه يطبع نجماً كلما مس الثرى

او في وصف الفلاح :

ضنت عليـــه بالدموع عيونـــه فبكى جبينه

او في وصف الراعي يعزف :

« كأنما الجرح جرح مهجته كان على نايه لـــه ثقب »

***

وشفيق معلوف شاعر الخاطرة الخاطفة الرهيفة ، على ما في قصائده « بسمة » و « خيبة » و « الحباحب » و « البستاني » و « زهرة في صخرة » و « التاج الاحمر » ، وهنـا وهناك في تضاعيف شعره « وعلى ما في قوله لابنه :

لا ترج شعري ان شعر ابيـك ليس بمسعـدك
ان لم تخـلد انت نفسك ما انا بمخـلدك
من مخـبري فلربمـا نلت الخلود على يدك »

وغني عن القول ما يجب لهذا الشعر المنقى من قدرة على الايجاز ، وحس بمرامي الكلم ، وبراعة في الاشارة ، ولطف في الاداء .

***

ان شفيق معلوف من أبرع من غرف من الغرب، واصدق من صب في الشرق مغترفه ، بأسلوب، كان في البدء ومازال، اسلوبه الانيق المميز . فلم يقطع اعترافه بين اهله وبينه ، ولا قطع استحداثه بين القديم وشعره . حتى اذا قـــام فتى من قريش . وقرأ لشفيق المعلوف ، عرف الفتى وجهه ولسان قومه فيه على التباعات واحاسيس قد تعجز الفتي القرشي لانها من عصر غير عصره ، وحياة غير الحياة التي تعود ان يعيش

انني لا اعرف شاعراً في الشعراء كان عليــــه ، كشفيق المعلوف ، ان يجتاز طريقه الى الجلجلة مرتين : مرة ليزيح عن اسمه شهرة رفعت المعالفة - وفوزي بوجه خاص - الى ذروة من ذرى الشعر عالية ، فكان عليه ان يمزق الاقماط التي غلفته ضمن نطاق معين ، وان يفتق الحدود ؛ ومرة ثانية ليحمـل اسمه من حدود ما وصل اليه السابقون ذووه الى حد ما هو عليه الآن .

ادوار حنين

الشاعر والموت

يا شاعر الكون المعـانق في الدجنة أدمعه
حوّم عـلى هذا الوجود .. على المجالي الممتعه
واشرب من الالوان في الروض الانيق موزعه
واحبس بجنبيك الحصاد .. من الفصول الاربعه
وانعم بمـا رسمت انامك الدقاق المبدعه
وافتح فؤادك للحياة ... وذق أفاويق الدعه
فغداً ستمضي ذرةً مسكينة في الزوبعه
لن تشهد الافق الوسيع .. ولا النجوم مشعشعه
لن تشهد الاطيار في صمت الأماسي مسرعـه
لن تشهد الجبل الأشم وروحه المترفعـه
لن تشهد الامواه في جريانهـا متدفعه
لن تشهد الزهر البهيج .. ولن تجمّع أروعـه
لن تشهد الحسن الذي أظمى الحنين وأشبعـه
والأهل .. والبيت الحبيب .. وجلسة في الصومعه
يا شاعر الشفق الحزين .. الليــل يحفر مضجعه
فانثر أحاسيس الغروب .. على الدروب .. وسر معه

***

يا شاعر الشفق الحزين .. خبا الضياء ولن يؤوب
ومضى الزمان وملء كفيه جراحات الشعوب
وغدوت جمجمة .. وحفنة تربة .. وفراغ كوب
الا رسومات الاحاسيس المخـلدة اللهيب
هو شعرك النامي على فجر الحياة .. على الغروب
هو خلد هذا القلب .. هذا الطفل .. يهزأ بالخطوب
هذا الحنان الشاعري يلوّن الأفق الكئيب
ويعيش في الارواح كالنبع الخفي على الجديب
يا شاعر الشفق الحزين .. وخالق النغم الطروب
كم من ضحىً برعمتـه في حسك النضر الخصيب
ورميت منه النور في روح يعيش بـه المغيب
كم من فؤاد مزقتـــه مخالب الزمن العصيب
سينام في هذي اللحون .. كدمعة فوق الصليب
الساهرون من الأسى .. والعائدون من الحروب
والمنهكون من الحياة .. الساقطونَ على الدروب
فيأتهم في ظـل قلبـك جنة الأمل الحبيب
قلب يعانقه التراب .. وفنّه بـين القلوب

القاهرة **كمال نشأت**

« من رابطة النهر الخالد »

فلسطين أبداً

[واحد ، بعد الآخر ، مثلو مأساتنا يموتون . أم الجميع في هذا العالم المظلم الذي نمتدح ؟ لا حاجة ان اذكر اسماءهم ... سأصرخ واصرخ : اين انت ايتها العيون التي اهواها؟ واحمرتاه ، متى سنردد صيحات الحب مرة اخرى ؟] اراكون

١

باسم احب الذكريات ابدأ النشيدْ
وارسم الانغام في لوح الهوى الوليد
وهل لأسماء سواك تلمع النجوم
وتختفي الابعاد ، والاسوار والتخوم
فأعبد الانسان في عينيك يا عزائي الوحيد ؟

٢

أعالم المصانع الخضراء ، والحقول
هذا الذي نحياه تحت سطوة الالم
ام عالم الخراب ، والاحزان ، والذبول
والخوف ، والسأم ؟
اختاه ، مذ ارض العناقيد العذارى خضبت بدم
بصقت في وجه إلـه العار ، والعدم
« مامون » هذا المستبد ، قاتل الذمم
ملوث الضمائر الصماء في الوحول .

٣

اهكذا نسير صامتين في الظلام
مخبئين ما نعني خوف أن نضام !
نجومنا المقرورة الخرساء ، والمسير
في وجمة السهوب ، شل خطوة الاسير .
وكم سقطنا نلثم الجراح واقفين
والريح تعوي ، والقرى الخضراء لا تبين

٤

وتحت الآف الجسور تحمل المياه
قلوب آلاف الرجال ، تحمل الشفاه
وهمسها المعذبَ المحتضر البريء
كقبلة الوداع .
أهكذا ، أهكذا ، نعيشْ
احط الوان الرزايا السود ، والضياع
في هذه البقاع ؟
حياتهم ، ام ياترى ضريبة الفناء
مشدودة الى خطى مشلولة الرجاء ؟
هنا الهدوء المطبق الملعون يا إلـه :
رقيق هذي الارض لما ابدعوا سواك
عصيت واستكبرت ، فابذر بذرة الهلاك
مهلاً ، سيهوى وجهك المشؤوم من علاه .

٥

احشرجات الثأر ، ما احس في الخيامْ
حيث الصغار الصامتون ، انبل الجميع
مبعثرون في صحارى الموت والصقيع
على انتظارٍ كانتظار الجدب للربيع
وفي غد سترحل الطيور في انكسار
مخلفات اثرهن وحشة القفار
وقد تزود سور عكا شمعة البحار
وسهلها الخصيب
وبالجنود الراقدين ربما تهيب
ليحرقوا صليب
شجيرة الصبار رمز العالم الجديد

٦

ام رجع موسيقى الجراح يوقظ النيام
في ظلمة الملاجيء الدكناء، والخيام :
اذ تلمس الصدى يشع ، والمشردين
اطفال يافا يسمعون البرقَ ذاهلين
فيسطع الظلام في حيفا ، وفي الخليل
وتقرع الطبول طول الليل الرحيل :

التتمة على الصفحة التالية

« دير ياسين

دير ياسين

هيا افتحي للقادمين بابك الحزين

بئرك ؟ ام ضريح ايتام معذبين

العائدون يذكرون همك الدفين :

اثداءك المقطعات ، دمعك المراق

اطفالك الممزقين ، قسوة الفراق

عويل ارحام الحبالى ، غابة الحشود

كتائباً ، كتائباً ، ستعبر الحدود

وتحت اصداف الغيوم تختفي النجوم

وتهبط الرجوم

فيقطر الليل دماً فوق المدى الرحيب

. قد جاءك اللهيب :

« يا كفرناحوم التي مجدتِ في السماء

ستهبطين عن قريب هوة الجحيم »[1]

٧

أأنت تسمعين

من اي ذكرى يشخب العويل في الدروب ؟

اواه ما اقسى الاغاني هذه السنين

مضرجات ، ويح هذا الحب ، بالأنين

ضمير هذي الارض ؟ ام روائح الذنوب

تفوح في قلوب

احفاد جلادي[2] ضحايا هذه الشعوب

ام ان تاريخ الحياة مجرم لغوب

مطارد لا تعرف الايام مبتغاه

في هذه الحياه ؟

٨

كلا ، فمن كل جدار ينبع الرجال

كلا ، ففي كل الزوايا يصرخ النضال

في كل قلب مسترق تلمع النصال

٩

أأنت تعلمين

اني انا الحر الطليق ساعة الكرى

اود لو حملت عبر عالم الثرى .

لا عالم الخيال والرؤى

عبء العلاقات الثقال ، ابهظ الهوى

بالليل ، والعتاب ، واللقاء ، والوداع .

١٠

امام مرآة الشعور سرحي العيون

ماذا ارى ؟ عوالماً قصية بيضاء من فتون

رؤى رفيقات هناك ، ربما تكون

اختاه احداهن عبر عتمة الظلال

وحيدة بين الرمال الجرد والتلال

تصارع السكون والظلام ، والمنون

١١

أأنت تعلمين

اي انكسار يفدح الاحساس ههنا ،

في هذه الايام ، اي قيصر حزين

هذا الذي حتى رفيق الحب يستبيه

بل بالدم المسح منه لوث اليدين

اختاه لو تدرين اي عالم كريه

طعامه الآهات ، والافلاذ ، والانين .

١٢

الم نونم — حيث تقسو الارض — الزمان

انشودة الواحات والرمال واللهيب .

قوافل الامس البعيد نالك العياء ؟

ام جفف الهجير في لهاتك الحداء

فكيف عدنا في الصحارى الجرد صامتين

مشردين ، اي شعب شاحب حزين

١٣

قد ترمز اللحون

الى حديث لن يتم ساعة اللقاء

وسوف لا يتم ... ما جدوى شذى الضياء

في عالم تباد فيه اجمل الورود ؟

فلنحترق ، ماذا وراء الحب والغناء ؟

بغداد — كاظم جواد

[1] الكتاب المقدس . [2] الصهاينة الفاشيست ورثة المبادىء الهتلرية .

من واقع الادب في مصر

زوايا ... ولقطات

بقلم انور المعداوي

كل حديث عن حياتنا الادبية اليوم ، يجب ان يتناول التركيبة العضوية المكونة لهذه الحياة : الاديب الذي ينتج ، والقاريء الذي يلتقي به عبر السطور ، والمنبع الثقافي الذي يرسب في ذهن الاديب والقاريء مختلف القيم والمفاهيم ، سواء أكان هذا المنبع معهداً من معاهد الدراسة او مجالاً من مجالات الجهد الذاتي ، تلك التي تقوم بدور قد يفوق دور المعاهد في حقل التثقيف والتوجيه . هذه التركيبة العضوية التي تصنع واقع الادب في مصر تفرض على الجولة الذهنية الدارسة ان تضعها تحت المراقبة ، لتقدم في النهاية تقريرها الفني عن جوهر ذلك الواقع .

ان المنابع الثقافية هي القوى المحركة للجهاز الادبي المكون من اداة الارسال وهي الاديب ، واداة الاستقبال وهي القاريء . فما هي حقيقة تلك القوى المحركة وما هي حقيقة ذلك الجهاز ؟ كلية اللغة العربية في الازهر ، وكلية دار العلوم ، وكلية الآداب في جامعاتنا الثلاث ... هذه هي المعاهد التي ينتظر منها ان تقدم الى الحياة الادبية منتج الادب وقاريء الادب . ذلك لأن المفروض فيها – تبعاً للقسط الاوفر من وظيفتها الدراسية – انها البيئة الفنية المتخصصة في تلقيح الذوق الناشيء بمادة الفن الادبي ، حتى لتعد مسئولة عن اول مرحلة تكوينية لأداتي الارسال والاستقبال ، في ذلك الجهاز الحي .

وعندما نربط هذه المسئولية الفنية بتلك المعاهد ، تبدو لنا كلية اللغة العربية وهي تشرف على الحياة من وراء سياج قديم . انها ما تزال حتى اليوم محصورة في حدود الثقافة العربية الخالصة بنماذجها الموضوعية المألوفة ، وكأن مفهوم الادب لديها تركة موروثة لا يجوز التصرف فيها بتعديل او تجديد . ولهذا نجد خريجي الازهر – سواء أكانوا من منتجي الادب او من قرائه – نمطاً معيناً من الفهم والتذوق ، يصعب عليه ان يتجاوب مع حركة التطور الجديدة التي نسخت كلاسيكية الشكل والمضمون ... والصعوبة هنا مرجعها الى طول الالفة لمثل هذا الانطواء الثقافي الذي يصل بالطاقة الذهنية الى حد الجمود ، ويعطل قابلية التفاعل الذوقي مع مختلف الهزات الادبية الوافدة !

أما كلية دار العلوم فهي نموذج للذبذبة بين القديم والحديث ، بين الطريقة السلبية المتبعة في الازهر والطريقة الايجابية المتبعة في كلية الآداب. وهي في الناحية الاخيرة تحاول ان تطرق ابواب التطور ولكنها في رأينا محاولة قاصرة ، لانها تعتمد غالباً على نوع من الاجتهاد الفردي الذي تنقصه الروافد الثقافية الاصيلة ، ومن اهمها الالمام بعدد من اللغات الاجنبية التي يتم عن طريقها التمثل الحقيقي لذلك التطور في صورته العامة. ولهذا نجد خريجي دار العلوم – سواء أكانوا من منتجي الادب ايضاً او من قرائه – نمطاً آخر من الفهم والتذوق يختلف عن النمط السابق في كونه يملك قدراً من قابلية التفاعل ، ولكن مما يحول بينه وبين التفاعل نفسه ، ان النافذة التي يحاول ان يطل منها على حركة الدفع الجديدة ... نافذة مغلقة او شبه مغلقة . واذا كان هناك بعض افراد قد خرجوا من دائرة النمط « الدرعمي » ، وتفاعلوا مع المفاهيم الادبية المتطورة ، فهم نتاج الجهد الذاتي الذي قلنا عنه انه يفوق دور المعاهد في حقل التثقيف والتوجيه .

ويبقى بعد ذلك النمط الثالث الذي ينتسب الى كلية الآداب ، وهو يختلف كثيراً من الناحية الفهمية والذوقية عن النمطين السابقين .. واذا كانت كلية الآداب لا تلتزم على الوجه الأكمل تقديم الطريقة النموذجية في دراسة الأدب ونقده ، فمما لا شك فيه أنها تحمل رسالة « التوجيه » الى تلك الطريقة وتؤديها بوعي ، وهو دور يقوم به بعض الأساتذة المتخرجين في الجامعات الأوربية . ورسالة التوجيه هذه تحقق غايتها المرجوة اذا ما نظرنا الى هذه الحقيقة ، وهي ان النافذة المغلقة التي تحجب الضوء عن الازهريين والدرعميين أعني نافذة الالمام باللغات الاجنبية – تعد مفتوحة بالنسبة الى النمط الجامعي بحيث يستطيع من خلالها ان يبصر الطريق . ولهذا يمكننا القول بأن الجامعيين كأدباء وقراء ، هم هذا النمط الذي لحق بالمد التطوري الجديد في حركة هاضمة ومستوعبة ، وبخاصة من أضاف منهم الى الأرصدة المعهدية رصيده الذاتي

من الثقافة الغربية الحديثة .

هذا العرض الموجز لطبيعة الاسلوب الدراسي داخل هذه المعاهد ، لا نقصد به النقد بقدر ما نقصد به الى ان يكون مقدمة تفضي الى نتيجة. والنتيجة التي نريد ان نصل اليها حول واقع الأدب في مصر ، هي ان هذا الادب ليس له مفهوم موحد .. بل هو مبعثر المنهج موزع الاتجاه بين عدد من المفاهيم المتناقضة عند عدد من الأنماط المنتجة والقارئة ، ومن هنا تنبع الازمة الحقيقية في حياتنا الادبية . ذلك لان الانتاج الادبي قد تعرّض بسبب هذه الحواجز الاتجاهية لمثل هذه الظاهرة الملموسة ، وهي ان هذا الانتاج اذا كان ازهرياً مثلاً فقد انحصر في دائرة القراء الازهريين ، واذا كان درعمياً فقد انحصر في دائرة القراء الدرعميين ، وقل مثل ذلك عن الانتاج الجامعي بالنسبة الى خريجي كلية الآداب . وعلى ضوء هذه الحقائق نعرف سر المجال الضيق الذي يتم فيه مثلاً فهم كتاب يحمل قيماً ادبية جديدة ، وكذلك توزيعه اذا ما أضفنا الى هذه الحقائق : قلة النسبة العددية لقراء الادب الجامعيين وغيرهم من أصحاب الثقافة الذاتية .. حين نذكر الى جانبهم تلك الكثرة الغالبة من قراء الازهر ودار العلوم .

ان الازمة كما قلنا هي أزمة المفاهيم الادبية غير الموحدة أو ازمة القيم الجديدة التي تعيش اليوم في شبه عزلة ، ولن تستطيع ان تبسط نفوذها غداً الا اذا تغيرت بعض النظم المعهدية على الوجه الذي يشمل المناهج المفروضة والعقول الموجهة . واذا استطعنا ان نحقق يوماً مثل هذه الغاية فقد حصلنا على نوع من الضمان الفني لمستقبل الادب ، خلاصته أن تتمركز الالوف المبعثرة من القراء في نقطة التقاء أساسها وحدة الفهم القائمة على وحدة المنابع الثقافية . ذلك لان موجة الركود الاولى التي يظن البعض أنها نتيجة مباشرة للانصراف عن القراءة ، ليست في الواقع الا نتيجة لتشتت القراء — على كثرتهم — بين طرق مختلفة ودروب متباعدة !

وظاهرة أخرى تسجلها الجولة للدراسة عن مشكلة المفاهيم غير الموحدة ، وهي تلك الخصومة الفنية بين شيوخ الأدب وشبابه .. وهم هذا الفريق الذي قلنا عنه انه قد لحق بالمدّ التطوري الجديد. انها خصومة بين نظرتين في الادب :ترتبط احداهما بالامس في خطوات متقهقرة ان لم تكن جامدة ، وتتعلق الاخرى باليوم والغد في خطوات متقدمة ان لم تكن زاحفة ، ولا مناص بعد ذلك من ثورة الجديد على القديم . ذلك لان الشيوخ في رأي الشبان - ورأي الحق - لا يريدون ان يأخذوا مكانهم في ركب التطور ، حتى تندفع القافلة المنتجة في اتجاه فني واحد وتندفع من ورائها القوافل القارئة . وما من شك في ان ظاهرة التنافر بين النظرتين في مشكلة الاتجاه قد انتجت ظاهرة تنافر اخرى في مشكلة التقييم ، لان المفاهيم الادبية المتطورة عند الشباب ما تزال تصيب الشيوخ بلون من عسر الهضم التمثلي ، سواء أكانت هذه المفاهيم منعكسة على انتاج من النقد او متبلورة في انتاج من الشعر والقصة . وتبعاً لهذا فقلما يظفر ذلك الانتاج بتقدير معنوي أو مادي من لجان التحكيم المكونة من الشيوخ ، في تلك المسابقات الادبية التي ترصد لها جوائز الدولة أو مجمع اللغة العربية !

ولا وجه للمقارنة بين خصومة اليوم حول الجديد والقديم وبين خصومة الامس حول الموضوع نفسه ، عندما نشبت الخصومة الاخيرة منذ ربع قرن بين الرافعي وطه حسين . ان هناك فارقاً كبيراً بين تعارض أفهام وأذواق حول اشكال الادب ومضامينه ، وبين تعارض افهام واذواق اخرى حول اشكال الادب « وحدها » من ناحية النسب التقييمية . لقد كانت كلاسيكية الرافعي في مقياس طه حسين كلاسيكية شكل او تعبير ، ولم تتعد المعركة بينهما هذا الحد ولم تخرج في الكثير الغالب عن هذا النطاق . لم يقم الخلاف بين الرجلين وأنصارهما حول المضمون الفكري في ذلك الحين ، وانما قام حول أسلوب الرافعي الذي كان يعتبره صاحبه نوعاً من الرصانة التقليدية ، ويعتبره الدكتور طه ضرباً من الحذلقة الموروثة المجافية لروح العصر ، لان مفهوم التطور العصري في الادب يومئذ كان محصوراً في معنيين : هما التحرر من أسر التقليد الاسلوبي والتزام البساطة والوضوح !

ان معركة الامس كان ينقصها التمثل الكامل لموضوعية الادب بشطريها الداخلي والخارجي ، أعني الصورة الفكرية والتعبيرية .. ومن هنا تبدو جوهرية التفاوت بينها وبين معركة اليوم حول المعايير الصحيحة التي تفرق وهي واعية ، بين حقيقة الجديد وحقيقة القديم !

مع قصة قصيرة في « الآداب »

الفن في كل صورة من صوره ، ما هو إلا عملية اختيار ..

والقصة القصيرة كصورة من صور الفن ، لا بد أن تخضع لهذا المقياس . لا بد ان يختار القصاص من اللحظة «المشعة» الموقف المضيء ، من الواقع الذي يزخر بتجاربنا الانسانية . ان هذا الواقع في جوهره مجموعة من اللحظات والمواقف ، تترابط وتتشابك وتتعقد ، ليتكون منها المضمون المادي للحياة . وأمام هذه الزحمة التي تختلط فيها الماديات بالمعنويات ، تنبثق اول تجربة فنية لتعترض كاتب القصة القصيرة : عليه ان يختار من خلال هذه الزحمة التي تواجه العدسة اللاقطة .. اللحظة المشعة والموقف المضيء . عليه ان « يقتطع » أجزاء خاصة من جسم الواقع ، ليقدم الينا هـذا الوافع من خلال أكثر أجزائه إشعاعاً وإضاءة . وحتى هذه اللحظات المختارة ، يفضل فيها من وجهة نظر الفن ان تكون لحظات ايجابية لا سلبية . ذلك لان الفارق بين لحظة من الطراز الاول ولحظة من الطراز الأخير ، هو الفارق بين عمل فني يقدم الينا بلورة التجربة في « قصة » ، وعمل آخر يقدم الينا فردية الملاحظة في « صورة » ومصدر امتياز القصة على الصورة هو أن الايجابية هناك ناتجة عن تجسيم «مشكلة» ، وان السلبية هنا ناتجة عن تصوير «حدث» او تحليل « شخصية » بلا مشكلات .

اما التجربة الثانية التي تعترض كاتب القصة فتتعلق بالتكنيك ، بالعملية التي تتمثل في وضع التصميم الفني وما يشتمل عليه هذا التصميم من تخطيطات : التخطيط المادي الذي يعبر عن الواقع الخارجي للنموذج البشري الرامز إلى المشكلة ، ثم التخطيط النفسي الذي يصور انعكاس هذا الواقع على الوجود الداخلي للنموذج ، حين يتحول هذا الانعكاس الى نوع من السلوك الاتجاهي الذي يبرز عنصر الايجابية في المضمون القصصي .. ثم هذا التخطيط الاخير الخاص بمركزة البعد الموضوعي للاتجاه في قطاعات تحليلية معينة تتحول فيها اللمسات الى مجموعة من المفاتيح لغرف نفسية .

مقاييس نقدية نقدمها قبل ان نتحدث عن قصة مصرية قصيرة نشرت في العدد الاسبق من « الآداب » وهي قصة تستحق ان نخصص لها هذه الجولة الثانية من النقد في باب « الزوايا واللقطات » .. بطل القصة — وهو مراسل حربي لاحدى الصحف المصرية في معركة القنال — نموذج بشري يمثل مجموعة من الاحياء في المجتمع المصري وكل مجتمع آخر .. مجموعة يحدد اتجاهها السلوكي دافع واحد : هو حب الذات .. الحب الذي تنكمش فيه «الانا» بحرص بالغ داخل قوقعة الفردية وتتضخم جدران القوقعة ذلك التضخم الذي يحول دون رؤية العالم الخارجي .. هناك حيث يقف الآخرون .

وبطل القصة — من خلال زاوية اخرى من زوايا صورته العامة — شخص يتحدث الى الناس بلغة غير اللغة التي يتحدث بها الى نفسه . انه مع نفسه — حيث ينفرد بها — شجاع لا يخشى الصراحة ، ولكنه مع الناس جبان تعيش مشاعره الحقيقية في الظلام . ومن هنا كان الدافع الرئيسي الذي حبب اليه دوره الصحفي في معركة القنال ، هو ان يلقى هؤلاء الفدائيين عن طريق التسلل الى حقيقتهم النفسية ليعرف اي سر يكمن وراء المقامرة بحياتهم في سبيل هدف — هو بالنسبة اليه — غير منطقي وغير واضح !

« انه يفهم ان يكافح الانسان من اجل سعادته .. ان يناضل ، ان يتألم ، ان يشقى من اجل حياة سعيدة . أما ان يفقد الانسان حياته نفسها ، فهذا ما لا يمكن تصوره بحال ! هل هناك شيء اغلى من الحياة ذاتها ، حتى يمكن ان نبذلها من اجله ? يقولون : الحرية ! ولكن ، ما هي الحرية ? انها احدى حاجات الحياة . وحين نفقد الحياة ، نفقد معها حاجتنا الى الحرية ! يقولون : الحرية من اجل الآخرين ! ولكن ، من هم الآخرون هؤلاء ? انه لا يكاد يحس بهم . وهم ايضاً ، هل تراهم يحسون به ? هل يحسون به إلا حين يحتاجون اليه ? وهل يحس بهم الا حين يحتاج اليهم ? وحين يموت الانسان ? ماذا سيبقى منه ليحتاجه الآخرون ? وكان يحلو له احياناً ان يتصور الآخرين . ان يقف ليتأملهم وهم يمضون في طريق الحياة ، وراء احلامهم وامانيهم ، لا يكاد كل واحد منهم يشعر بمن حوله من الناس ... الفتاة الجميلة التي تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها ... الاب العائد الى بيته وفي يده حقيبة من الورق ملأها احلاماً لأولاده الصغار .. عم محمد الذي يبيع الفول في الصباح ، ويأخذ ثمنه بالصلاة على النبي ... العوضي الذي يبيع الجرائد في ميدان « العتبة » دون ان يعرف شيئاً مما فيها ... الخواجه ديمتري الذي يبيع العمال أردأ انواع الخمور في بار السعادة ، ويأخذ منهم الهموم والقروش ... الـ... الـ... ان هؤلاء جميعاً لا يحسون به وهو حي ، فهل يحسون به بعد ان يموت ? اي شيء يدفعه لأن يفقد حياته من اجلهم » ?!

هذا التحليل العميق الذي يرسم بعداً نفسياً خاصاً لمجموعة بشرية يمثلها بطل القصة ، هو نقطة الارتكاز الفنية التي اعدها الكاتب ليمهد بها للحدث القصصي ، حتى يتخذ من هذا الحدث معبره الرئيسي الى عملية التطوير الموقفية في النهاية . ونقطة الارتكاز

في مجموعها تقدم الينا بداية اللحظة المختارة التي تقتطع كما قلنا اجزاء خاصة من جسم الواقع ، وتسلط عليها اشعتها ليتسنى لنا ان نرى المشكلة من ابرز جوانبها المضاءة .. ان الواقع العام لمشكلة الاحياء الذين يرمز اليهم بطل القصة ، هو « السلبية المطلقة » التي تحول دون التعاطف الشعوري بينهم وبين الغير وتحصرهم داخل وجود انعزالي تفصله عن وجود الآخرين ، زحمة الدوافع الفردية . والكاتب أمام هذه الزحمة قد وقف واعياً ليختار ؛ ليقتطع أهم منطقة نفسية يمكن ان « يجسم » من خلالها المضمون « الكلي » للمشكلة .. مشكلة السلبية المطلقة . وذلك حين وضع بطل القصة — وهو رمز المجموعة البشرية المنعزلة — تجاه حركة دفع إيجابية هدفها أفدح تضحية في سبيل المجموع !

والكاتب بعد ذلك قد عبر المرحلة التمهيدية ليبدأ مرحلة أخرى في خط السير القصصي ، وهي مرحلة تخطيط الحدث .. ذلك التخطيط المادي الذي قلنا عنه إنه يعبر من ناحية التكنيك عن الواقع الخارجي للنموذج البشري الرامز الى المشكلة : المراسل الصحفي في حديث طويل مع احد الفدائيين يحاول من خلاله ان يتسلل الى حقيقته النفسية .. عربة « جيب » انجليزية تقبل عليهما من بعيد ثم تقترب ، ويطلق جنودها النار في هجمة مفاجئة .. وبحركة مفاجئة يرد الفدائي بالمثل فيصيب العجلات ، وتتعطل العربة عن المسير في منطقة مكشوفة .. وتبدأ معركة ظالمة غير متكافئة .. بندقية واحدة تناضل ضد مجموعة من البنادق قد تحصن اصحابها وراء عربة الجيب .. واخيراً تتوقف البندقية الواحدة بعد ان عجزت عن الصمود في وجه سيل جارف من الرصاص ، ويصمت الفم الذي تحدث حتى الثرثرة ، عن عذوبة التضحية في سبيل الوطن . في سبيل الغير . في سبيل انتظار الجزاء من الله .. ويتحول الحدث الى موقف لتتم مثل هذه العملية التطويرية على يد قصاص مدرك :

« وفي هذه اللحظة كانت مشاعر محمود — المراسل الحربي — تعاني انقلاباً هائلاً .. لقد بدأ يحس كأن حسن — الفدائي المصري — ليس شخصاً آخر منفصلاً عنه ، وإنما يحس كأنه قد صار قطعة منه .. ووجد نفسه يزحف الى جواره ، ويأخذ منه البندقية ، ويغير مكانه قليلاً ، ويعاود إطلاق الرصاص . ولا يدري كيف حدث ذلك ايضاً ، لقد أحس كأن حمى هائلة تجتاح كيانه ، وتكتسح أمامها كل خوف أو تردد .. وفجأة توقفت البندقية وأدرك أنه قد اصيب . واحس محمود برغبة في ان يبكي ، إنه هو الآخر سيموت . ولكنه لم يمت بعد ، إنه لا يزال حياً ، إنه لا يزال يعيش . إن حسن هو الذي منحه هذا القدر من الحياة ، هذه اللحظات التي يعيشها الآن . إن حسن هو الذي تقدم وأعطاها له .. وبدأ يدرك انه هو الآخر يمنح الحياة أناساً آخرين ، يحس بهم كأنهم أيضاً قطعة منه . ولأول مرة بدأ يدرك الصلة التي تربطه بهم . إنه يمنحهم الحياة التي يفقدها هو .. إنه يتيح لحياتهم ان تستمر ، ان تبقى ، ان تمتد . إنه الآن يحس ان شعورهم بالحياة ينداح في قلبه : فرحهم ، املهم ، ترقبهم . أجل .. فحياتهم لم تعد غريبة عنه . وفي لحظة متألقة أدرك ان حياة الناس جميعاً تلتقي في صعيد واحد .. ولكنه لم يقف قبل هذه اللحظة في هذا الصعيد » .

.. ان عملية التطوير هنا هي كما قلنا ايضاً من ناحية التكنيك ذلك التخطيط النفسي الذي يصور انعكاس الواقع الخارجي لبطل القصة ممثلاً في الحدث ، على الوجود الداخلي للبطل نفسه حين يتحول هذا الانعكاس الى مجموعة من السلوك الاتجاهي المتميز بالايجابية .

أما التخطيط الخاص بمركزة البعد الموضوعي للاتجاه العام في قطاعات تحليلية معينة ، فيعرضه الكاتب من خلال هذه النماذج التي تشير إلى أمثالها في مجرى السرد القصصي ، قبل التطوير وبعد التطوير :

« كانت هذه الخواطر تتلاقى خلسة في رأس محمود ، كأنما تخشى ان يراها احد. أحد من داخل نفسه لا من خارجها ، فقد كانت هذه الخواطر تخاف من محمود ، أو بعبارة أدق أنه هو الذي كان يخاف منها » .. « كان محمود يتمادى في تساؤله : اليس من الجائز ان تكون الحرية بالنسبة لهم هي لب الحياة وقيمتها ، وان تكون الحياة بدون حرية أمراً لا قيمة له ؟ ويمط محمود شفته السفلى حين يرد على تساؤله : أليسوا ايضاً يفقدون حريتهم حين يفقدون حياتهم؟ اليس الموت عبودية مطلقة ؟! » .. « وذاب في اعماقه شعور مرير بالاسف . انه يفقد الحياة بعد ان عرفها ، لاول مرة . وادرك في قسوة انه لم يعش قبل هذه اللحظات . لا بل كان يعيش كان يعيش داخل قوقعة مظلمة ، داخل ذاته ، وحين انطلقت بعض الرصاصات وحطمت تلك القوقعة ، بدأ يحس بالآخرين ! » .. « وأدرك في غيبوبة مرتعشة ، ان هناك احذية ثقيلة تقترب ، واصواتاً تلغط . ثم اخذت هذه الاشياء تنبهم في وعيه . وكان برغم ذلك يتبين خلالها بصورة غائمة ... نجوى حلوة ... ومناغاة اطفال ... وصوتا يبيع الفول ... والجرائد ... وعربدة سكارى ... ولا ... شيء !! » .

إن محمد أبو المعاطي أبو النجا قد سجل بقصته « الآخرون » نقطة البدء المشرقة في حياته كقصاص ، بل وفي حياة القصة العربية القصيرة على وجه العموم !

« القاهرة » **أنور المعداوي**

مذكرات أندلسيّة

بقلم نزار قباني

•

في اسبانيا .. لم أحتجْ الى دواة ..
ولا الى حبر .. أسقي به عطش الورق ..
عيون مورينا روساليا ..
ترشّني بالشوق الاسود
عيون مورينا روساليا ..
دواةٌ سوداء ..
أغطّ فيها .. ولا أسألْ ..
وتشرب حياتي .. ولا تسألْ ..
كصَدَفةٍ بحرية .. هائلة ..
كهودجٍ عربي .. يحفر مصيره في الأبعاد ..
يحفر مصيره .. في مصيري ..

مدريد ٥/٨/٥٥

***

شَعر ميراندا آلافيدرا الكثيف ..
المتنفّس كغابة أفريقية..
أطول حكاية شوق .. سمعتها في حياتي ..
ما اكثر حكايا الشوق التي سمعتها في حياتي ..
واكلت حياتي !..

اشبيلية ٨/٨/٥٥

***

الراقصة الاسبانية .
تقول باصابعها كل شيء ...
والرقص الاسباني هو الرقص الوحيد الذى يستحيل فيه الاصبع الى فم ..
النداء الساخن ..
والمواعيد العطشى ..
والرضى .. والغضب .. والتمني .. والحنين ..
كل هذا يقال .. بشهقة اصبع .. بنقرة إصبع ..
أنا في محلي ..
وسمفونية الاصابع .. هناك .. تحصدني ..
تشيلني ..
تحطّني ..
على تنّورة اندلسية .. سرقت زهر الاندلس كله .. ولم تسأل ..
وسرقت نهار عيوني ولم تسأل ..
انا في محلي ..
والكأس العشرون في محلها ..
وسمفونية الاصابع .. في أوج مدها وجزرها ..
والمطر الاسود .. المتساقط من فتحات العيون الواسعة ..
شيء : لا يعرفه تاريخ المطر ..
لا تذكره ذاكرة المطر ..
انا في محلي ..
فيا مطر الاعين السود .. سألتك لا تنقطع .

غرناطة (مغائر مونت ساكرو الغجرية) ١٠/٨/٥٥

***

ما تمنيت ان اكون عروة في رداء ..
خيطاً في رداء ..
الا في المتحف الحربي في مدريد ..
الرداء .. لأبي عبدالله الصغير .. والسيف سيفه ..
السائحون الاجانب لا يستوقفهم الرداء ولا السيف .
اما انا ..
فيربطني بالرداء .. وبصاحب الرداء الف سبب ..
هل تعرفون كيف يقف الطفل اليتيم .. امام ثياب ابيه الراحل ؟.
هكذا وقفت امام الجام الزجاجي المغلق .
استجدي الزركشات ..
آكل بخيالي النسيج .. خيطاً .. خيطا ..
ومع هذا ..

— التتمة على الصفحة التالية —

لم يتركني ابو عبدالله الصغير وحدي في المدينة ..
كان كل ليلة ..
يلبس رداءه .. ويترك جامه الزجاجي في المتحف الحربي ..
ليمشي معي .. في بولفار الكاستيانا في مدريد ..
ليدلني ..
على وريثاته الاندلسيات .. واحدة .. واحدة ..
« هل تعرف هذه ؟ .. »
« .. لا .. »
« .. هذه كان اسمها نوار بنت عمار . وكان ابوها عمار بن الاحنف رجلاً ذا فضل ويسار . وكانت نوار هذه تـــدرج كالقطاة بيننا وتنهض كالنخلة المستقيمة بين لداتها في الحي .. »
« لماذا .. لا تناديها يا ابا عبد الله ؟ »
« لا تتعب نفسك .. انها لا تعرف اسمها ..
« ماذا ؟»
« انها لا تعرف اسمها .. »
« وهل ينسى احد اسمه ؟»
« نعم .. هذا يحدث في التاريخ .. ان اسمها الآن اصبح NORA AL - AMARO بدلاً من نوار بنت عمار ..
« يا NORA ..
« ماذا تريدان ؟..
« لا شيء .. كل ما في الامر ان هذا الرجل كان صديقاً لابيك في دمشق وهو يرغب في تحيتك ..
« صديقاً .. لأبي في دمشق ؟ ..
« نعم أنت لا تذكرين ذلك .. لأنك كنت يومئـــذ طفلة ..
« ربما ! ..
« عمي مساء ..
BUENAS NOCHES »

قرطبة ١٢/٨/٥٥

***

القرط الطويل في أذن آنا ليزا دوناليا . دمعة تركـــت الأذن منذ قرون .. ولم تصل الى مرفأ الكتف .. بعد ..
هذا القرط الطويل .. وكل قرط طويـل .. في أذن كل سيدة اسبانية .. محاولة مستميتة .. للوصول الى مقلع الضـوء على الكتفين ..
يا قرط آنا ليزا دوناليا .. لا وصلتَ ابداً الى مشتهاك ..
ولا انتهت رحلتك .. أن تعيش بوهم الكتف .. خير الـف مرة من ان تدفن طموحك في رخامه ..
يا قرط آنا ليزا دوناليا ..
يا جوع الضوء الى الضوء ..
قلبي معك ..

اشبيلية ١٥/٨/٥٥

***

في ازقة قرطبة الضيقة ..
مددت يدي الى جيبي اكثر من مرة .
لاخرج مفتاح بيتنا في دمشق ...
مقابض الأبواب النحاسية ..
احواض الشمشير .. والليلك .. والقرطاسيا ..
الحرة الوسطى .. عين الدار الزرقاء ..
الياسمين الزاحف على اكتاف المخادع ..
وعلى اكتافنا ..
الفوارة .. طفلة البيت المدللة التي لا تنشف لها حنجرة ..
والقاعات .. اواني الرطوبة ومخبؤها ..
كل هذه الدنيا المطيبة .. التي حضنت طفولتي في دمشق ..
وجدتها هنا ..
فيا سيدتي المتكئة على خصاص نافذتها الخشبية ..
لا تُراعي ..
اذا غسلت يدي في بحرتك الصغيرة ..
وقطعت واحدة من ياسميناتك ..
ثم .. صعدت الدرج .. الى حجرة صغيرة ..
حجرة شمالية ...
تتسلق شبابيكها الشمس . ولا تسأل ..
ويتسلق أستارها الليلك .. ولا يسأل ..
حجرة شمالية ..
كانت أمي تنصب فيها سريري ..

قرطبة — **نزار قباني**

جديد تحت الشمس

قصة بقلم ذو النون أيوب

انتصب بجسمه الطويل النحيف ، وسكن حتى حاكى ما يحيط به من انصاب . وتنفس نفساً طويلاً . كان يستنشق الراحة والهدوء والحرية ، تلك الأمور الحبيبة التي قضى كل شبابه في البحث عنها . هوذا الجمال حواليه ، جمال في السماء وجمال في الارض وجمال فيما يحيط به من بشر . جمال في الاجسام ، وأدب جم ورقة مفرطة في الكلام . ما الذ هذا وما احلاه . وانطلق من جموده يسير الهوينا ، يشبع نظره في كل ما يحيط به ، ومر « بكوتيه » متربعاً فوق كرسيه ، فتوقف احتراماً واجلالاً ، ومضى ينعم النظر في وجهه الصارم ورأسه الجبار. وكدر عليه صفو صلاته هرير آلات البناء وهي تعيد الى الوجود ما افنته قنابل الحرب. كل هذا الجمال، ومع ذلك فقد اراد هؤلاء الناس الحرب يوماً . واعاد النظر الى وجه كوتيه فخيل اليه ان الوجه الصخري يبتسم استخفافاً واحتقاراً . وود لو يجد من يتبادل معه الحديث ليفسر له هذا التناقض المؤلم . وتذكر انه لا يعرف من الالمانية الا بضع كلمات منها « ايش اوس » . اهو غريب كما تعني هذه العبارة ؟ انه ليستنكر ذلك . واطلت عليه من وراء كرسي « كوتيه » عينان ذهبيتان واسعتان ، فيهما تطلع وحيرة . هذا شيء جديد . عينان ذهبيتان بين مئات الاعين النجل الزرق ، واكثر من ذلك ، ان في الوجه ملامح عزيزة لا يسهل عليه نسيانها . ولعل ذلك ما دفعه الى التقدم للحديث غير هياب ولا وجل ، خلافاً للمألوف من عاداته . وابتسمت العينان لما اقترب منها ، وتكلم كأنه يتحدث معها فقط . وبدأ التحية بالانكليزية ، واتى الجواب ، يا للسماء ! ظن انه يسمع نغمة من انغام شتراوس ، صوت عذب ناعس ، وكانت تلفظ التاء ثاء تزيد في حلاوة ذلك الصوت .

قال : « خبريني بحق السماء كيف يستطيع المرء ان يفكر في الحرب وهو وسط هذا الجمال ؟ وقد بلغ من التقدم والرقي مثل هذا المبلغ ؟ »

فأجابت : « ومن يريد الحرب ؟ ولكنها تأتي حتماً ، امن الممكن القضاء على الحرب ؟ »

فقال : « ان الانسان قد بلغ من التقدم ما حقق له كل اسباب الراحة فلماذا لا يستطيع ان يبحث عن مسببات الحرب بطرقه العلمية الجديدة فيقضي عليها ؟ »

فابتسمت وقالت : « اي مذهب هو مذهبك ؟ »

فقال : « انا انتسب الى فئة تنشد الحرية والجمال ولا تعترف بالفروق بين الالوان والاجناس . »

وتساءلت : « أتجد ما تنشده هنا ؟ »

فأجاب : « انه مبثوث حوالي ، ليس هنا شيء قبيح سوى مخلفات الحرب ، ولكن نصف هذا الجمال في عينيك الذهبيتين » .

وبدا المرح في وجهها المشرق ، والتمعت اسنانها البيضاء من وراء شفتيها الملومتين ، ولاحت في صفحتي خديها غمازتان زادتاهما اشراقاً ، واهتز جسمها اللدن وهي تضحك مسرورة راضية .

وعاد يقول « ايش اوس . واريد ان ارى آثار «فينا» وجمالها الخالد ، فهل تتكرم الآنسة التي لا اعرف اسمها ، على السيد عباس، اسمي ، ويضاف اليه (ابو رأس الحار) في موطني، ان تريه من الجمال ما يبرد هذا الرأس ؟ »

وعادت تضحك وتقول « اريد ذلك من كل قلبي ، ولكن اوقات فراغي القليلة ، اذ انا اعمل لأعيش ، لا تكفي ، ولكن اليوم هو يوم عطلتي وسأكرس لك ما تبقى من هذا اليوم ، فمن اين تريد ان نبدأ . الآثار التاريخية ام الفنية ام الطبيعية ؟ »

-« بل الآثار الطبيعية الحية . اريد ان ارى المتنزهات والحدائق. انه يوم عطلتك، فمن الجرم حرمانك من التمتع به . اينها الآنسة التي لم اعرف اسمها بعد ... ؟ »

فقاطعته مستدركة معتذرة: « ليلي ومعناه السوسن . »

ومدت له يدها فتأبطها راضياً مرتاحاً ، ولاحت السماء والطبيعة في نظره اكثر صفاء واشراقاً وابلغ فتنة .

وتداركت عليه الحوادث ، حافلة باكثر مما كان يتصور وجوده . لقد كان يظن بانه قد تذوق كل جديد .

اخذ وجود الفتاة يستحوذ على حواسه وكيانه شيئاً فشيئاً ، حتى اصبح لا يعي من الألفاظ التي كانت الفتاة تشرح بها ما يمران به من اماكن ومرابع الا موسيقى صوتها . وطالت السفرة ، وكان لا يشعر بمرور الزمن . لقد كانت الفتاة مخلصة في ان تريه الاماكن الجميلة ، وما كانت تدري انه قد استغنى بوجودها عن كل ما في الطبيعة من جمال .

وادرك ان المساء قد حل عندما انتقلا الى حافلة جديدة مضت تصعد متمهلة جبلاً شامخاً تغطي سفوحه الغابات .

وسمعها تهمس في اذنه «غابات فينا التي استوحي شتراوس فالسه الشهير منها .»

وها هي ذي قمة « كالمبرك » . وبدت المدينة تحت اقدام الجبل بحراً من نور ترصه المصابيح المتألقة ، وبان (الدونار) بين صفين من المصابيح كأنه قد خط بيد رسام ماهر . ولمس كل ذلك الجمال قلبه فازداد رقة . ورأى الفتاة تنظر ساهمة فاحاط كتفيها بذراعه ، واحس بها ترتجف .

فلاحظ بقوله « الطقس بارد . »

-« لا ولكنها ذكريات مؤلمة .ولا تسألني الآن شرحاً . إني اتوسل اليك . »

واراد ان يغير الحديث « ان فينا جميلة رائعة . »

« ولكني اكره فينا . »

« اتكرهين اهلك وذويك ؟ »

« لست من فينا . انني من رومانيا . إني لأحب مرابع طفولتي . لقد اجبرتنا الحرب على الهرب . لقد تركتها باكية ، ويحزنني الا استطيع العودة اليها الآن . انها ذكريات مؤلمة . انها تشوه جمال المنظر ، وتنغص علينا لذة الموقف . »

وشاع في عينيها شيء من المرح بعد الأكل. وفعلت سلافة فينا (نوسبركر) فعلها فتألقت وجنتاها ، وصفت عيناها ، ومضتا تطيلان التأمل في عينيه بتحد وجرأة ، وذاب تكلفها (الفينوي) المبالغ في المجاملات وزيادة اللطف ،

وباغتته « من انت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ »

–« انسان من بلاد الله ، انشد الراحة والجمال والحرية ،اتنقل حيث اريد ، واكتب عندما يروق لي ، لست غنياً،ولكني املك ما استطيع ان احقق بهذه الاحلام في غير اسراف . »

–« وهل ستبقى هنا طويلاً ؟ »

–« ازمع التنقل في العالم . اني ابحث عن تجارب جديـــدة تنعش نفسي وفكري . قد يروق لي ان اسافر غداً ، او لا أسافر قط » .

–« اتبقى في «فينا »ان طلبت منك ذلك ؟ »

وشعر بالدماء تغلي في عروقه،وبرجفة تجتاحه. ان هاتين العينين كفيلتان بان تستعبداه من جديد ، واجاب على الفور :

–« اجل لو اردت ذلك . »

– « اذن فابق من اجلي . »

– « سابقى ما دمت تريدين ذلك . »

لماذا تريد ان يبقى ، ولماذا قبل ، وما هو الهدف من كل ذلك . انه لا يعلم ، وقد تعلم هي او لا تعلم . انه لا يريـــد ان يفكر . ولاحظت اسرافه في الشراب،فقالت « لقد اسرفت ، فلنمض » وسارا بين صفين من ادواح القمة . شارعقليل الأضاءة يؤدي الى شرفة طبيعية . والتفتت اليـــه احتواها بين ذراعيه . وارتجف جسمه لما احس بجسدها الصغير يهتز بين ذراعيه ، وتفوه بما لم يتفوه به سابقاً قط ، في كل حياته العابثـــة الساخرة المدبة المنى . لا يعرف بالضبط مـــا قال ، اما مذاق لسانها وشفتيها ، وملمس ثنيات جسمها اللدن فلـــن يستطيع نسيانه ، بالرغم من ان هذه التجربة ليست الاولى من نوعها في ما مضى من عمره الطويل .

وخرجت به الى النور ، وتطلعت في وجهه جادة . وقالت « ما زلت ترتجف . » فاحتضنهاو كأنه كان يخاف ان تفلت منه ، وحتى في الحافلة وهما عائدان ، وما كان يظن انه يستطيع ان يتخلص من وقاره الذي يثقـــل عليه بمثل تلكالسهولة وقد وجد في الحافلة من هم اكثر اغراقاً منه فيبحران تلك الحمى اللذيذة .

وهمست في اذنيه:« لقد اسرفت في الوعود ، وقد يكون ذلك من فعل الشراب، كم احب ان اراك وانت صاح .»

فاجاب « اني جاد كل الجد . لقد فعلت عيناك فعلها قبل الشراب بمـــدة طويلة فلماذا تبخسين قدر جمالك ؟ »

–« ولكن فينا مملوءة بالحسان . عيون زرق نجل وشعورذهبيةحريرية الملمس وقامات رشيقة فارهة . ما دمت تبحث عن الجمال فهاك الكثير منه.»

وهجس في نفسه « ان الخبيثة تلهو به . »

وآوى الى فراشه بعد موهن من الليل ، ولم يزر الكرى جفنيه الا لمامـــاً . كانت ظلمة ليله مضاءة بمصباحين ذهبيين . واستيقظ في غده كمن يستيقظ من حلم لذيذ . وعاد اليه الكثير من عقله . تذكر خططه المزمعة، وفلسفته في الحب ، يا للشيطان ، ايمكن ان يحدث له كل ذلك ، وفي مثل تلك السن ؟ لقد وعدته الصغيرة ان تعود . وتمنى الا تعود ، سيشقى قليلاً، والشقاء غير غريب ولا بعيد عنه . سيقول حينذاك « انها فتاة لاهية لعوب، مرت في ظلمات ليل حياته كالحلم المشرق اللذيذ . وعندئذ يعود الى افكاره الحمقاء وحياته المقفرة المجدبة ، وفلسفته اليائسة . وتذكر موسيقى صوتها العذب الناعس ، ذي المقاطع الممطوطة كأنات كان حالم ، فأن فؤاده . »

ونظر في ساعته . هو ذا موعد قدومها ، وطرق الباب فارتجف واطلت عليه من وراء الباب شمسان صغيرتان ، وسمع الخرير يوقع لحناً جديداً « كيف حالك الآن ، او كنت جاداً امس ؟ »

فسألها بلهجةالحذر الخائف وهو يتقدم نحوها مفتوح الذراعين «وانت؟»

–« اني اكره الكذب . وما كنت نشوى بالخمر ،ولكني لا احب ان آخذ عليك وعداً صدر عنك وانت في نشوة الحب والخمرة » وعندهاتأكد ان زمامه قد افلت من يديه ، وان خططه قد اصبحت انقاضاً . وعندمـــا ضمها الى فؤاده شعر بنشوة القيد من جديد. ولكنه كان اكثر ثقلاً واعظم لذة في هذه المرة .

فينا ذو النون ايوب



مهداة الى اصدقائي الثائرين

دفاعاً عن العرب والاسلام

بقلم عبدالله القصيمي

نرفض الاستماع الى اي قائل يتهم العرب او الدين بعداء الفكر والحرية كيف كانت اشواطهما ، ونصر — مفاخرين — على التوكيد بان الطبيعة العربية والطبيعة الدينية تتسعان لكل حرية ولكل تفكير دون ان تعاقبا او تصادرا .. ولو وجدنا من يتهمهما بمقاومة المفكرين والاحرار في اي عهد من العهود لحسبناه عدواً للعروبة وللدين يريد ان ينال منهما بهذه التهمة الكاذبة الفظيعة. ونحن دائماً كلما اردنا ان نعدد محاسن الاسلام والعرب نذكر في اول ما نذكر صداقتهما للحريات والافكار والترحيب بها مهما كانت جنسياتها واوطانها ..

وهذا لان الناس جميعاً مقتنعون بان الحرية والتفكير زادان انسانيان لا يمكن الاستغناء عنهما لانهما هما المادة الاولى التي صنعت منها جميع حضارات الانسان حتى اديانه ومقدساته .. وان اتهامهما والتخوف منهما هو اتهام لكل الحقائق وتخوف منها .. فاتهام الحرية — خوفاً منها على عقيدة او على شيء مقدس — هو اتهام غير مباشر لتلك العقيدة ولذلك الشيء المقدس لانها كانت هي الطريق اليه والمعرفة به ..

وهم يدركون كذلك ان الحقائق الصحيحة لا يخشى عليها من التفكير الحر لان الحقيقة لا تخشى التجربة ، والتفكير الحر نوع من التجربة ..

ولان الحقيقة قوية بنفسها ، والقوي لا يخشى التحدي ..

ولان الحقيقة تصقل بالاحتكاك وتوهب الثبات والقوة ..

ولانك لن تخشى على جواهرك الصحيحة بين الجواهر الزائفة ، ولا على الشمعة — مهما كانت خافتة — من ان تطفئها الظلمة ..

الناس كلهم يعلمون انه لا يمكن ان يهجى شيء — سواء أكان انسانا ام ديناً ام مذهباً — بأعظم من ان يتهم بعداوة الفكر والحرية ، لانهم يدركون ان ما هو حق لا يحتمل ان يعاديهما ، وانهما دائماً هما طريق الحق وسنده ونسبه .. ولانهم ايضاً يدركون أنهما — اي الحرية والتفكير — هما اجمل وجوه الانسانية وافضل اكتشافاتها واصدق احتياجاتها واروع متعها في هذه الحياة .. بهما بدأ الانسان وبهما خطا خطواته الصاعدة كلها نحو أفلاكه؛ حتى الدين نفسه لقد كان في اوله نوعاً من الحرية والتفكير ولكننا بعد هذا نرجع ونتهم الطبيعة العربية والدين بما نحاول تبرئتهما منه ..

اذا كتب كاتب مبدياً آراء في الدين او في الثقافة العربية — وكانت هذه الآراء تخالف ما اطمأنناه في الصغر — نهب غاضبين ونصر على اتهام ذلك الكاتب بالكفر وبالتآمر وبعداء العروبة ، وننهض حاملين للمعاول كي نحطم ذلك الرأس الذي أضله الشيطان ، ثم نمضي في حملتنا الصاخبة العنيدة حتى نخمد ذلك الصوت الغريب او نجهز على صاحبه بعد ان نغمس اشلاءه في دماء الجريمة ونلوث ثيابه بالاوحال ونكتب على قبره وثيقة الاتهام !!

وسلوكنا هذا يعطي اقوى اساليب التدليل على اتهام العرب والاسلام بما نحاول جاهدين ابراءهما منه ..

نحن الآن في النصف الثاني من القرن العشرين — حيث يضع الانسان الخطط لغزو الكواكب ولخلق الاقمار الصناعية بعد ان تخطى مرحلة الصراع حول جواز الحرية والتفكير بما يساوي الوقت اللازم للانطلاق من الايمان بمبدأ الحرية الى القدرة على خلق الاقمار ..

فاذا كنا في هذا العصر — عصر السفر بين النجوم — ننتفض فرقاً وغضباً كلما سمعنا نقداً لا يخضع لما ألفناه من صور العقائد والآراء والمسلمات ، وتنفجر فينا الحمية العربية والحمية الاسلامية عاجّتين بالسخط والتنادي والاتهام ، ونطلق على اولئك الناقمين المتوقحين غيوماً باهظة من الدخان المملوء بقتر الاعراض المحترقة في سعير التهم والثورات .. — اذا كان ذلك كذلك، فأي وقت اذن قبل هذا كانت الحرية والتفكير فيه عملين نبيلين او عملين مباحين ؟

حينما سولت لي الجرأة ان انشر كتابي «هذي هي الاغلال» نهض اقوام من المؤمنين الاتقياء ، يدفعون الخطر الداهم بالمؤلفات والمقالات والتهم المثيرة ، ونهضوا في حماس وغضب باسل يحركون قوى السماء كلها ضد الكاتب المسكين !!

وكانوا فيما يظنون يذودون عن الدين المهدد بالمؤامرة الكبرى !

ومنذ اسابيع حين نشرت في مجلة «الآداب» مقالاً، انزعج فريق من الكتاب المؤمنين المخلصين ، واحسوا في روعة عميقة وايمان صادق جليل ان من وراء هذا المقال المتواضع اخطاراً وخططاً دولية موضوعة — وتوشك ان تنفذ — للقضاء على العروبة والاسلام ، وراحوا بوحي من هذا الاحساس العميق الصادق يرجمون الكاتب الضعيف ويسقطون فوقه الاثقال ، وأخذوا يتهيأون لاتخاذ مواقفهم من الصفوف المقاتلة دفاعاً عن شرف التاريخ العربي وعن الدين المعرضين للغزو الفاجر الشرير .. وهكذا دائماً كلما وجد تفكير وحرية وجد هجوم واتهام وتحطيم ..

نقاوم الاحرار والمفكرين باسم الغيرة على الدين وعلى العروبة ثم نذهب ندعي — واثقين — ان الدين والطبيعة العربية لا تضيقان باي لون من ألوان الحرية والفكر ، وان تاريخهما كان طريقاً طويلا عبرت من فوقه كل قوافل الحريات والافكار الى نهاياتها البعيدة في امان وروعة !

لقد وجد كثير من كتاب العرب والمسلمين في امثال ابن المقفع وبشار وابي العلاء وابن رشد وغيرهم سبباً للمفاخرة والايمان بان تاريخنا كان يفتح ابوابه ومشاعره الفكرية لهؤلاء الذين تحركت رؤوسهم في عهد مظلم بأجنحة الحرية والفكر .

وذهب فريق من هؤلاء الباحثين عن الامجاد العربية في عملية اكتشاف واسعة للتنقيب عن المفكرين الاحرار الذين استطاعوا ان يعيشوا ويفكروا من غير مطاردة او قتل ، حتى لقد ود كثيرون من هؤلاء ان يجدوا اعداداً لا تحصى من الزنادقة الكبار عاشوا في حقول التاريخ العربي الاسلامي ليدللوا بذلك على ان الطبيعة العربية والاسلامية صديقة اصيلة للحرية والتفكير .. وكان هذا الادراك والشعور هو المسوغ لان نتحدث باعتزاز ومباهاة عن ابن رشد وابن خلدون وابن سينا والفارابي والرازي وابي العلاء واخوان الصفا اكثر مما نتحدث عن اعلام رجال الفقه والحديث والدين ، بل وعن الائمة الذين صنعوا المذاهب واتبعهم الناس ..

وحينما نريد ان نباهي بتاريخنا الفكري ونعدد مزاياه ونؤكد كيف كنا نحن العرب والمسلمين الانطلاقة الاولى التي تتابعت على اثرها الانطلاقات الحضارية الكبرى كلها ، كأنما هي طاقة اندفاعية لها — نعم حينما نريد ذلك فلن نجد غير هؤلاء المتهمين بايمانهم وبتمردهم على «ما كان» ليكونوا سند تباهينا الرزين !!

ولكننا مع تباهينا « بما كان » في اصرار وايمان وكبرياء وإشارتنا الدائمة الى ما كان في تاريخنا من حرية وتمرد واحرار ومتمردين ، ومع اقتناعنا بان هذا وحده هو وثيقة أي شعب من الشعوب على فضيلته وتفوقه نأبى — وهذا عجيب — بان يكون بيننا من امثال اولئك الذين « كانوا » احد ، بل ونصر على شدخ رؤوسهم لو وجدوا ، ونتبارى في مقاومتهم والقضاء عليهم !!

وهل معنى هذا أننا لا نقبل الاحرار والمفكرين ولهذا لا نقبل معاصريهم وانما يجيئون اذا جاءوا على كره منا ؟ او هل معنى هذا ايضاً ان اولئك الذين كانوا احراراً ومتمردين — ونفاخر بهم اليوم — انما كانوا كذلك على كره من معاصريهم؟ او هل معناه ان فينا ميلاً أكيداً الى تقديس الماضي وتبريره حتى ولو كان ذلك الماضي ثورة وتمرداً على الماضي نفسه ؟

أرى مخلصاً — وارجو ان اكون مصيباً — ان هؤلاء الكتاب الفضلاء الغيرى الذين يتعبدون دائماً بشحذ أقلامهم الصالحة لتحطيم كل رأس يحمل فكراً او حرية او تمرداً على اخلاق القطيع لا يفعلون شيئاً يفيد العرب ولا الدين، وليسوا بهذه المقاومة يدافعون عنها او يشرفونها ، بل انهم بمقاومتهم وهلعهم الاكيد يعطون فكرة غير صالحة عن موضوع دفاعهم!

يجب ان نرى وان يروا ان الاسلام والتاريخ العربي قويان بخصائصهما وباسباب البقاء والقوة فيهما لا بابعادهما عن الحركة والنضال ... ان النضال والتمرس بالاخطار ليشدان القوى ويرهفان المواهب ويبعثان الامكانيات .. واذا كنا لانقوي عضلنا بالركود والسلامة ولا بالخوف من التعب فاننا ايضاً لا نقوي عقيدتنا او تاريخنا باخراجهما من المعركة والخوف عليهما!!

كيف نستطيع ان نقتنع باننا ننصر حقائقنا العزيزة علينا بابعادها عن الانوار وبتكتيفها في الظلام وبالمحافظة عليها من التمرس بالأحداث ؟

« عش في خطر ، فان الضربة التي لا تقتل تقوي ... » هكذا تكلم المعلم نيتشه .

كم تجني الام الجاهلة على وليدها اذا رأت ان تحافظ على صحته وحياته بابعاده عن تقلبات الطقس وعن التعرض لمزعجات الحياة وملاقاة الانداد ومشاجراتهم ؟-

وكم كذلك يجني الصالحون على عقائدهم وحقائقهم اذا رأوا ان يحافظوا عليها بان يقصوها عن الخلافات وعن المعارك والمشاجرات الفكرية ؟

ان الخلاف على العقائد والافكار وتحديها يبعث فيها

مارد المقاومة ويهيب بحماسها الى الانطلاق ويرفع عنها اعباء الخمول ، بل وينضجها ويثير غيرة المؤمنين عليها ويحفزهم على الالتفاف حولها ... واكثر من هذا واكبر انه يصقلهـا ويسقط عنها عوامل الضعف وما لا يصلح للبقاء والمقاومة – انه عملية تطهير ... كثير من عقائد الناس ومذاهبهم قد مات او هو في حالة اسوأ من الموت لانه قد اصبح من المسلّمات المتبلدة التي لا تصطلي بنار خلاف ولا بوهج شك ... وانـه لمن الممكن ان ترد لها الحياة لو قام من ينقدونها ومـن يعرضونها للاصطدام والحركة. فالعقيدة التي تعيش في معركة اقوى من التي تعيش في سلام !

وهؤلاء المؤمنون الذين قد مات الايمان في نفوسهم وفقدوا كل حماس ونبض، كان من المحتوم ان يردوا الى ايمانهم الحياة والنشاط والى نفوسهم الحماس والنبض لو انهم وجدوا مـن يصدمون معتقداتهم ويحملونهم على التفكير فيما يؤمنون به !!

لعل الفرق بيني وبين هؤلاء الاخوان الذين انزعجوا على مصير العقائد والتاريخ العربي خوفاً عليهما مما كتبت اني انا لم افترض ابداً ضعف العقيدة والثقافة العربية الى هذا المـدى الذي افترضوه وخافوه ، واني كنت ارى انهما اقوى جداً مما حسبوا وخافوا ... بل كنت ارى عكس ما رأوا أنـني امجّدهما واعطيهما من احتمالات التقدم والانتصار والتطور أضعاف ما تصوروا ... هم ظنوهمـا اهتزازتين واهنتين ، بقاؤهما في نسيانهما وفي ابعادهما عن المخاطرة رعاية لضعفهما ... اما انا فقد رأيتهما عملاقين راسخين يتحديان من يتحداهمـا ويزيلان ولا يزولان ... فلم أخش عليهما مما خشوا ولم أظن بهما ما ظنوا ...

وانا كذلك رأيتهما حقيقتين قابلتين للتكامل والتطور والتوافق استمراراً مع الحياة والظروف لأن لهـما ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ... أما هم فقد اعتقدوهما أمرين متجمدين لا يتغيران ولا يتطوران ولا يتكاملان ، وليس لهما الا ماض فقط . ولهذا فهم يقصونهما عن كل خلاف وكل خصومة وكل محاولة وكل تطوير . وقد غابت عنهم هذه الحقيقة الكبيرة التي معناها: ان الافكار الصحيحة تقوى وتنتشر كلما هوجمت وخوصمت ...

نحن العرب والمسلمين لسنا محتاجين الى مزيـد من الرضا عن النفس والاعجاب بالتاريخ والآباء ، اذ نحن والحمـد لله متفوقون في هذا تفوقاً حاسماً ... ولكننا محتاجون الى ان نحول بعض هذا الغرور وهذا الرضا الى عمليات صعبة – الى حوافز تجعل منا فاعلين لا متحدثين فقط عن مجد التاريـخ ومجد الاسلاف . فاسلافنا يرضيهم ان نتفوق عليهم اكثر مما يرضيهم ان نفاخر بهم ...

وانه لمبدأ خطير ان نتهم كل من لا يسيرون في مجرانا الفكري بانهم متآمرون ومخربون واعداء ...

من الحق لنا ان نخالف وان ندافع عن مقتنياتنا الفكرية وألا نؤمن الا بما نرى ... ولكن ليس من حقنا ان نتهـم مخالفينا بالفساد او بالخيانة او بالتدبير العدواني ...

لسنا نحن الحقيقة الكاملة التي يجب ان تركع تحت قدميها كل الحقائق الاخرى ... نحن بعض الحقيقة ومخالفونا بعض آخر لها – هكذا يجب ان نظن ونتواضع ... اما كل الحقيقة فشيء يتوزع على الزمن كله ... ولهذا فان احداً أو شعباً لا يستطيع ان يحيا الحقيقة كلها الا اذا كان ممكناً ان يحيا الزمن كله ... !

القول بالحقيقة الكاملة الجاهزة قول ينتهي بمعتقـديه الى الغباء والوقوف والى التعصب والكبرياء الجاهلة ... وهـو قول ينافي الحياة والانسانية والاديان نفسها ...

وانه لضرب فظيع من عشق الذات – بل من عبـادة الذات – الزعم باننا دائماً نحن المصيبون الطيبـون ، وان الآخرين هم دائماً الضالون الشريرون ...

كيف ؟ لماذا أكون انا ضالاً وفاسداً ومـدمراً اذا خالفتك يا صاحبي، ولا تكون انت كذلك اذا خالفتني؟ من الذي منحك الحق في ان تكون انت انت وحرّم علي ان اكون انا انا ؟ ان كان ذلك لانك تعتقد انك هكـذا فانا ايضاً اعتقد في نفسي كما تعتقد انت في نفسك ! كيف يجوز ان يكون لكل مناشخصه ولا يجوز ان تكون له شخصيته – او كيف يجوز ان تكون للمرء سماته البدنية ثم لا يجوز ان تكون له سماته الفكرية؟ إذا كانت حياتنا وظروفنا وامكانياتنا مختلفة فكيف ينتظر ان تكون افكارنا ومشاعرنا متفقة ؟

ما الانسانية ، وما الحضارة ، انها مجموع اختلافاتنـا واتفاقاتنا ... ماذا لو اننا حذفنا من حساب الأنسانية ومن حساب الحضارة كل خلاف ؟

ان الشعوب المتحضرة القوية هي اكثر الشعوب تفاوتـاً

واختلافاً ، وان البداة والمتأخرين لأكثر توافقاً في الاعتقاد والتفكير والشعور والاحتياج ...

الشعوب العظيمة يوجد فوق قمتها امثال افلاطون واينشتاين بينما يوجد تحت قاعدتها جماهير المزارعين والعمال الطيبين الذين يبتسمون لكرم السماء ! وهذا التفاوت بين القمة والقاعدة هو الشوط العظيم الذي تتحرك بين طرفيه خطوات الامم كلها .

اما الشعوب المتخلفة فهي ترفض ان تكون لها قمة وقاعدة — نريد ان يكون الجميع قاعدة — قاعدة بلا قمة ! لهذا فهي تدأب ابداً على تحطيم القمم — انها دائماً تفضل صفات القطيع !

لقد كان القدماء اكثر حكمة وعدلاً من اكثر هؤلاء المختلفين، فقد كانوا يرون الحقائق مقسمة بين جميع الآلهة ولم يروها في إله واحد ... اما هؤلاء المخالفون المحترمون فهم يرون الحقائق كلها في جانب واحد !! ما أشجعه من خطأ غير رصين !

شكوت في مقالي المنشور في مجلة « الآداب » من أن الظروف العربية لم تمكن الفكر العربي من ان يكون خلاقاً مقتحماً جسوراً ، ينطلق في كل الآفاق ويتدخل في كل المعارك دون ان يخشى او يهون ... فقام المخالفون يشجبون هذه الشكوى ويزعمونها اساءة للعرب واستهانة بتراثهم الفكري الشجاع ... اما انا فارجو ان يكونوا على حق وان اكون انا مخطئاً .. ان هذا لموضع شرف وسعادة لي ...

ولكن ... ألا يلاحظون انهم بهجومهم العاصف واتهامهم الجارح لي ولما كتبت بانه مؤامرة وتدمير ومحاولتهم استعداء المشاعر والمصالح والتقاليد ضدي — نعم الا يلاحظون انهم يتناقضون بين دفاعهم هذا وبين محاولاتهم هذه المهينة ؟

لست أعني محاولة النقد ولكن محاولة الاتهام والاستعداء ... والارهاب الفكري اكبر مأساة تحل بأمة من الامم... ان الافكار هي محطات الارسال التي يطلق منها الانسان قذائفه ومحاولاته لغزو الطبيعة المنيعة وغزو الآلام والمصاعب التي تعوق تطوره وانتصاره !

ولو أزلنا من حساب أي شعب من الشعوب رصيده الفكري لبقي بلا حضارة ولا تاريخ... فلا حضارة بلا تفكير ، ولا تفكير بلا حرية ، ولا حرية مع الخوف ...

واذا وجد الارهاب الفكري فقد وجد كل ارهاب ، كما انه اذا وجدت الحرية الفكرية زال الارهاب كله ... فلا حرية اذا لم توجد الحرية الفكرية ، واذا وجدت فقد وجدت كل حرية ... ومن المستحيل ان نكون احراراً ما لم نكن احراراً في تفكيرنا وفي التعبير عنه ..

لم يخلق الله حتى الآن من يستطيع ان يرتفع فوق جميع الآلام والمخاوف وان كان اعظم الابطال ... ومهما كانت الطاقات النفسية ، فان المجتمع هو الذي يجعلنا احراراً او يجعلنا غير ذلك... فالذين يعيشون في مجتمع يعادي الحريات ويجرح من يريدون ان يكونوا احراراً ويطلق عليهم كل اسلحة الاتهام والتشنيع والقذف، فلا بد ان يكونوا جبناء — او على الاقل — لن يكونوا أبطالاً ... والارهاب الاجتماعي لا يقل ازعاجاً وكبتاً للحرية التي تريد الانطلاق عن الارهاب القانوني او الحكومي ... فلا يكفينا لنكون احراراً الا يعاقبنا القانون او السلطان على الحرية — بل يجب الا يعاقبنا أيضاً المجتمع ...

وهؤلاء الكتاب الطيبون الذين يرموننا بشر التهم وأسوأ الظنون — على منابر من عواطف الجماهير — هم يرهبوننا وينالون منا . واظن ان هؤلاء الاخوان لا يدركون مدى الأضرار التي يصيبون بها أمتهم بما يشنونه من هجوم نبيل على كل من اراد من قومهم ان يتحرك داخل القمقم - دع من اراد الخروج منه ...

ليتهم يعلمون انهم يعطلون في أمتهم بما يفعلون اقوى الاحتمالات ويحرمونها من الانتفاع بطاقة الانسان الكبرى ويحطمون في يديها سلاحها الظافر ...

وليتهم يعلمون اننا نريد ايماناً قوياً يستطيع ان يدافع ، وأفكاراً حرة تستطيع ان تهاجم ، لأننا نريد ان نكون أحياء يحملون حماس الحياة وصخبها واخطارها ، ولا نريد ان نكون متاحف تتجمع فيها جثث التاريخ ومتاعبه !!

اني اؤمن بان الله يحترم عبده الحر النشيط المفكر الفعال أكثر مما يحترم عبده المؤمن الضعيف الجبان البليد ، لانه يريد من البشر ان يحققوا معنى ذاته في قوتهم ، لا ان يحققوا معنى ضعفهم في عبوديتهم !!

ان افضل دفاع عن العرب والاسلام هو ان نكون احراراً وشجعاناً وفضلاء ونافعين للحياة ... وليس من الدفاع ولا من الصلاح ان نخشى الحرية وان نلعن الاحرار ونتشدد في قبض أيدينا على رياح الماضي أو ترابه !!

وان اضافة اي جديد الى حياة العرب والاسلام ، من القوة او العلم ، لأفضل واقوى في الانتصار لهما والدفاع عنهما من جميع الدموع واللعنات التي نفرزها سخطاً على المخالفين او بكاء على الدين !

عبد الله علي القصيمي

حفنتا دموع

[مهداة .. الى الصديق الشاعر صلاح الدين عبد الصبور .. ذكرى ليلة جمعتنا وجـاء ذكر الموت .. فاغرورقت عيناه بالدموع .]

صديقتي .. اليك حفنتين من دموعْ
حصاديَ الهزيل
خلاصة المسير في الصباح والاصيل
ورحلة الشقاء والنشيج والانين
وعوديَ الحزينْ .
حكايتي دموع
صديقتي .. اليك حفنتين من دموع .

***

صديقتي دَلفتُ للحياة كاليتيمْ
رأيتني وحيدْ .
أبُصّ في الترابْ
وأنبش التراب
وأنقش الجدار بالشكول والرسوم
أصور الغيوم
وأنظم الهموم .
وحوليَ الصغار يلعبون يمرحونْ
وترقص الحياة في الثغور والعيون
ووحديَ الحزينْ .
أبثّ للرياح والقبور والنجومْ
وأشتكي الحياه .
ويدفق الضياء في الدروب والتخوم
ويغسل الصغار والطيور والزهورْ
واشتكي الظلامْ
كأنيَ الضريرْ .
واسمع النحيب في الحفيف والخريرْ
ورعشة النسيمْ .
وألمس المصيرْ .
صديقتي فأمزج التراب بالدموع
وأسأل الترابْ
فيحبس الجواب .
أعود كالطريد للشرود في الحقول
أصاحب الغدير
وألثم الشجر
فيحبس الجواب .
وسرتُ بالسؤال في الصباح والمساءْ
اسائل البشر
فقال ذو العمامة الكبيرة الرزينْ
وألغز الجواب :
« حياتنا غرور
وربنا القدر . »
وبسمل الرزين
ومط لحيته .
وقال ذو الكتاب والدواة والقلم :
« حياتنا كتابْ
مطلسم الحروف . »
مطلسم الجواب .
وقال لي الصّناع مازج الخمور :
« حياتنا ألم
دواؤها الكؤوس . »
وأفرغ الكؤوس .
صديقتي فلفّني الشعورُ بالعدم
وقسوةُ القنوط والظلام والفراغ
وضيعة الحياهْ .
وعدتْ في الجراب خيبة الرجوع
وحفنة الدموعْ .

***

صديقتي .. رحلتُ كالشعاع في الزمانْ
وجئتُ للشباب .
ومات ذو الكتاب والرزينْ .
ومات ذو الدنانْ
وأمّيَ الحنونْ .
ظفرتُ بالجوابْ .
« حياتنا امتدادْ
نعيش في البنين
كرحلة الضياء في الشموعْ
نعيش في الجموع . »
وطفتُ بالنشيد أنشر الرجاءْ
وأوقظ الحياة في العيون
وأفتح الكهوف والقبور
وأبعث الرمام
بلحنيَ الوضيء .
صديقتي فجاءني الأصم ذو النيوب
يضجّ بالزئير والثبور والوعيد
ليخنق النشيد .
ويمضغ الخراف والصغار والزهور
ويُسكت الطيور .
بكيتُ للخراف والصغاروالزهور
بكيت للطيور
بلحنيَ الحزين
وجئتُ للقاءْ
بحفنتيْ دموع .
صديقتي ...
صديقتي اليك حفنتين من دموع .

القاهرة — **نجيب سرور**

قوياً جداً

فيكرز فايكاونت

أولى طائرات النقل في العالم بمحركاتها الاربعة من نوع التوربين النافوري . سرعتها تتجاوز ٣٢٠ ميلاً في الساعة فهي لذلك أسرع من أي طائرة نقل اخرى تماثلها . جوها الداخلي مكيف من ناحية الضغط الجوي .. والتدفئة .. بامكانها الطيران فوق الغيوم إلى ارتفاع قد يبلغ ٢٥ الف قدم.



توصلك الى **بغداد** في ساعتين فقط . ومنها الى **طهران** في ساعة ونصف . والى **البحرين** في ثلاث ساعات . والى **الكويت** في ساعة ونصف

الخطوط الجوية العراقية

دوماً في خدمتكم

الوكلاء العموميون : **حتي اخوان** . بيروت . ساحة النجمة . تلفون ٢١٧١٥

توبياس

قصة بقلم توماس مان

ترجمة عايدة مطرجي

يدعى احد الشوارع المتعرجة المتفرعة من شارع « المحطة » والمؤدية الى قلب المدينة بـ« الطريق الرمادي ».ففي منتصف هذا الشارع تقريباً ، من الجهة اليمنى باتجاه النهر ، يرتفع بيت ضيق كئيب اللون لا يميزه شيء عن سواه من البيوت المجاورة . وفي اسفل البيت دكان سمان تباع فيه احذية من الكاوتشوك وزيت الخروع ، وبعد ان تقطع الممر الذي ينفتح على ساحة تلهو فيها القطط ، يستقبلك سلم خشبي مهترىء الادراج تفوح منه رائحة فقر لا يمكن التعبير عنها ، فتصعد منه الى الطوابق العليا . ففي الطابق الاول شمالا يقطن نجار ، وتسكنه يميناً قابلة . اما الطابق الثاني فيحتله ، شمالا ، مرقع احذية ، ويميناً ، امرأة يعلو صوتها بالغناء كلما سمعت وقع اقدام على السلم . واما الطابق الثالث ، من الناحية الشمالية، فخال من السكان ، اما يميناً فيسكنه رجل يدعى « مندرنيكل » ويلقب بتوبياس . ولهذا الرجل قصة يجب ان تروى .

يتكشف مندرنيكل عن مظهر أخاذ غريب مضحك . فعندما يذهب الى النزهة مثلا ،ويصعد شبحه الهزيل الطريق متكئاً على عصاه ، يكون متشحاً بالسواد من رأسه حتى قدميه . فهو يغطي رأسه بقبعة قديمة الطراز مجعدة وخشنة ، ويلبس « ردنجوتاً » ضيقاً ، اكل الدهر عليه فالتمع ، و« بنطلوناً » مهترئاً ، مهدباً وقصيراً الى حد تبدو معه ساق حذائه المطاط.والحق ان ثيابه منظفة بعناية ، ورقبته المتكشفة تبدو اكثر طولا كلما برزت من القبة المنخفضة.

وكان شعره الرمادي املس مرسلا على صدغيه،وكان طرف القبعة العريض يلقي ظلا على الوجه الحليق ، المتقع ، الاجوف الوجنتين ، ذي العينين المحتقنتين بالدم ، والنظرة التي قلما ارتفعت عن الارض . وكانت ثنيتان عميقتان تمتدان من الانف حتى اوصال الشفتين المتدليتين .

ولا يخرج مندرنيكل من البيت الا في الندرى ، ولهذا اسباب . فانه فور ظهوره في الشارع يتجمع حوله عدد كبير من الاولاد يرافقونه بعض الطريق ويضحكون عليه ويهتفون مغنين : « هو ! هو ! توبياس » واحياناً كانوا يشدون اردانه ، بينما يخرج الناس على عتبات الابواب فيضحكون ساخرين . بيد ان توبياس كان يمر دون ان يدافع عن نفسه، ملقياً حوله نظرات مذعورة ، رافعاً بشدة كتفيه ، ماداً برأسه الى الامام، كأنما هو رجل يركض ، بلا مظلة ، تحت وابل من المطر . وبالرغم من انهم كانوا يضحكون في وجهه، فقد كان يسلم هنا وهناك، على هذا اوذاك، من اولئك المنتصبين على الابواب، بادب ملؤه الانكسار .

وفيما بعد ، اذ يكف الاولاد عن اللحاق به ، وفي الشوارع التي يبدو فيها مجهولا ، ويلتفت قليل من الناس لدى مروره ، تظل هيئة توبياس على حالتها لا تتبدل : انه يظل ينظر بذعر حوله ويتقدم منحني الظهر ، كأنما كان يشعر بوطأة الف نظرة ساخرة تثقل عليه . وعندما كان يرفع عينيه عن الارض ، مرتبكاً خجلا ، كان يلاحظ عليه — وهذا حادث غريب — انه كان عاجزاً عن ان يحدد نظره بهدوء وجد على اي من الكائنات او الاشياء . ومهما يكن ذلك فريداً ، فكأن موهبة التفكير الطبيعية تنقصه ، هذه الموهبة التي تسجل الحقيقة بواسطة الاشخاص وتسمح لكل فرد ان يتأمل عالم المظاهر . ولقد كان توبياس يُشعر بان كل مظهر كان يأسره في الواقع ، وان نظراته الهاربة كان تصدف عن الرجال والاشياء لتلتصق بالارض .

ترى ما شأن هذا الرجل المعتزل دائماً،والذي يبدو تعيساً الى ابعد الحدود ؟ ان لباسه البورجوازي ، بالاضافة الى حركة اليد المقصودة وهي تلامس الذقن ، يجعلنا نفترض انه لا ينتمي الى الطبقة الاجتماعية التي يعيش فيها . والله يعلم اية مماكسات قد عرف ! فوجهه هو وجه من صفعته الحياة وهي ترسل ضحكة ازدراء . بيد انه في الممكن جداً ان يكون ، ومن غير ان يتعرف على تقلبات كثيرة ، غير جدير بالوجود، وان مظهره الابله الذي يبدو عليه الارهاق يعطي الشعور المؤسف بان الطبيعة قد حرمته نصيب التوازن والقوة والحيوية الذي يمكنه من ان يعيش مرفوع الرأس .

فاذا ما صعد الى المدينة متكئاً على عصاه السوداء ، عاد بسرعة الى منزله ، فاستقبلته في « الشارع الرمادي » هتافات الاولاد . ويصعد الادراج الملأى بروائح العفن ليدخل غرفته الخالية من كل زينة الا من طاولة امبيرية ذات قضبان معدنية ثقيلة تتمتع وحدها ببعض قيمة وجمال . وقد كان بالقرب من النافذة التي كان الجدار الجانبي للبيت المجاور يحجب دونها الرؤية ، اناء للزهر مملوء بالتراب ولكن لا ينبت فيه شيء . وكان توبياس يتقدم احياناً ويتأمل اناء الزهر ويستنشق رائحة الارض العارية . وكانت تلتصق بهذه الغرفة حجرة اخرى للنامة معتمة . وعندما كان توبياس يرجع الى مسكنه كان يضع قبعته وعصاه على الطاولة ويجلس على الاريكة المغطاة بقماش اخضر له رائحة الغبار ، ويغمر ذقنه بيده فيرفع حاجبيه ويخفض عينيه على الارض فيبدو ان لا مشاغل له اخرى في هذه الدنيا .

وانه لمن العسير جداً ان نطلق حكماً ما على طبع مندرنيكل . على ان الحادث الذي سنصفه ينطق في صالحه .

خرج هذا الرجل الغريب من بيته ذات يوم ، تلحق به كالعادة عصابة من الاولاد تتبعه بضحكاتها وسخرياتها ، فتعثر ولد في العاشرة من عمره بقدم رفيق له وسقط على الارض سقطة عنيفة جداً، حتى ان الدم تدفق من انفه وجبينه،وظل ممدداً على الارض وهو يبكي . وسرعان ما التفت توبياس واندفع نحو الطفل فانحنى عليه ، وبصوت ناعم ومرتجف عبر عن عطفه قائلا :

— مسكين انت يا صغير ! هل اصابك مكروه ؟ ان دمك يسيل ، انظروا الدم يقطر من جبينه . نعم ، نعم انك تعيس جداً وانت ملقى هكذا على الارض ، ان به ألماً شديداً يجعله يبكي ، هذا الطفل المسكين. كم انا اشفق عليه ! لقد كانت غلطتك . ولكني ساضمد جبينك بمنديلي . هكذا . هكذا . والآن . كن شجاعاً وانهض .

وبعد ان قام بضماد الطفل سريع بمنديله الخاص ، انهضه بعناية ومضى . على ان هيئته ووجهه كانا يتكشفان في هذه اللحظة عن معنى جديد يختلف اختلافاً واضحاً عن هيئته المألوفة . كان يمشي بخطى ثابتة منتصباً باستقامة .

وتحت « ردنجوته » الضيق ، كان صدره يتنفس بعمق ، واتسعت عيناه ، وسال فيهما بريق ، واصبحتا تنظران باطمئنان الى الرجال والاشياء ، بينما كان يرتسم حول فمه خط من السعادة المؤلمة .

ونتج عن هذا الحادث ان سخرية سكان « الطريق الرمادي » قد تناقصت قليلا . الا انه بعد مضي وقت قصير نسي مسلكه الغريب ، وعادت عصابة من الاولاد الاصحاء والمرتاحين والجفاة ، يغنون بملء اصواتهم وراء هذا الرجل المنحني : هو ! هو ! توبياس !

وفي ذات صباح مشمس، خرج مندرنيكل من البيت في الساعة الحادية عشرة فقطع المدينة كلها وارتقى « الروكنبرغ»، هذه الرابية التي تكوّن في ساعات الاصيل اجل نزهات المدينة . ولكن الطقس الربيعي الساحر كان قد جذب في هذه الساعة الصباحية بعض السيارات وبعض المشاة . وتحت شجرة الممر الرئيسي العريض ، وقف رجل رفع بعيداً عنه كلب صيد صغيراً يعرضه على المارة بنيّة ان يبيعهم اياه . لقد كان حيواناً اصفر ضعيفاً ، في الشهر الرابع من عمره تقريباً ، تحيط بعينيه دائرة مسودة . وكانت اذناه سوداوين .

وحين شاهده توبياس ، توقف وامرّ مراراً عديدة يده على ذقنه ، ونظر نظرة تفكير الى البائع والى الكلب الصغير الذي كان يبصبص بذنبه برشاقة ، ثم تابع سيره وقد اسند فمه على رأس عصاه ، ودار ثلاث مرات حول الشجرة ، ثم تقدم اخيراً منه ، ومن غير ان يتوقف عن التحديق بالحيوان .سأل بصوت مرتفع وسريع :

— كم يساوي هذا الكلب ؟

فاجابه الآخر :

— عشرة ماركات .

وصمت توبياس لحظة ثم ردّد بقلق :

— عشرة ماركات ؟

فأجاب الرجل : — نعم .

واذ ذاك اخرج توبياس من جيبه كيساً جلدياً اسود واخذ منه ورقة بخمسة ماركات وورقتين بثلاثة ، وورقة باثنين . ثم مد يده سريعاً بالنقود الى البائع ، وتناول الزمام . ثم سار مسرعاً، منحنياً على عادته، وهو يلقي حوله نظرات مرتاعة لان اناساً كانوا قد شهدوا البيع فاخذوا يضحكون .

ومضى يجر خلفه الكلب الذي كان يرسل صرخات صغيرة ويتخبط . وقد تمرد الكلب عن السير طوال الطريق وكان يثبت بالارض قدميه الاماميتين ويرفع نحو معلمه الجديد نظرات ملؤها تساؤل قلق . ولكن توبياس مضى يشد الزمام بصمت وقوة حتى بلغ المدينة الواطئة سعيداً .

ولقد انفجرت هتافات الأطفال في « الشارع الرمادي » عندما اطل توبياس مع كلبه ، ولكنه سارع يأخذ الكلب بين ذراعيه وانحنى عليه ، وبالرغم من ان الاولاد الخبثاء كانوا يتشبثون بأردانه فقد تسلل توبياس وسط الضحكات والسخريات ورقي السلم الى غرفته .

واذ وصل ، اجلس على البلاط الحيوان الذي لم ينفك عن الانين، وامر عليه يده بحنان وقال بلهجة لطيفة :

— عجباً ، عجباً ، ليس لك ان تخافني ، ايها الحيوان الابله ! ان هذا غير ضروري !

وهنالك تناول من درج الطاولة صحفة ملأى باللحم والبطاطا ، فرمى قسماً منها الى الكلب الذي كف عن الانين، والتهم وقمته وهو يطقطق بلسانه ويبصبص بذنبه .

وقال توبياس :

— سوف تدعى بعد اليوم « اسو » : هل فهمتني : اسو ؟ ان جرس هذا الاسم يسهل حفظه .

ثم دله على الطريق امامه ، وصاح بلهجة الامر : « إسو » ، وأقبل الكلب راكضاً وقد كان يتوقع ان يقدم له نصيب آخر من الطعام، فأمسكه توبياس من جنبيه بدلال وبحركة مؤيدة قال له :

— حسناً يا صديقي ، اني اهنئك .

ثم تراجع بعض الخطوات واشار الى الارض وامر من جديد :«إسو» فقفز الحيوان وقد تحمس واخذ يلحس حذاء معلمه .

وأعاد توبياس هذه التمارين احدى عشرة مرة ، وقد وجد في اعطاء الاوامر لذة لا توصف ، ولكن الكلب بدأ يظهر في نهاية الامر علامات الضجر ،وبدا عليه انه بحاجة الى الراحة،فتمدد بوضع كلاب الصيد،وقرب رجليه الاماميتين الطويلتين الناعمتين ومددهما امامه فصاح به توبياس :

— مرة اخرى ، يا إسو .

ولكن اسو اسند رأسه على قدميه ولم يتقدم

فقال له توبياس بصوت ملؤه تهديد صامت ، ولكنه تهديد مخيف :

— أطعني وإلا فستعلم انه ليس من الخير لك ان تثير غضبي .

وإذ بدأ الحيوان بتحريك ذيله ، ثارت في مندرنيكل سورة غضب جنونية لا حدود لها .. فتناول عصاه السوداء واخذ اسو من جلدة رقبته، فأخذ يئنّ ويصيح . وكان توبياس ، وهو في غضبه المغيظ، قد فقد صوابه ، فأخذ يردد بصوت لاهث :

— ماذا ؟ كيف لا تطيعني ؟ هل تجرؤ على ان لا تطيع ؟

وانتهى بان رمى عصاه ووضع على الارض الكلب الذي كان يئن واخذ يتنفس بعمق،ويداه خلف ظهره وهو يذرع الغرفة طولاً وعرضاً بخطوات كبيرة بينما ظل يرسل الى اسو نظرة تكبر وغضب . واستمرت نزهته بعض الوقت،ثم توقف قرب الكلب الممدد على ظهره ، المحرك رجليه الاماميتين كأنه يسترحم ، وتكتف توبياس ووضع يديه على صدره،وصرخ بلهجة ونظرة باردتين مخيفتين قاسيتين كأنها نظرات نابوليون تنتهر الفرقة التي أفقدته نسره في المعركة :

— كيف تفعل ذلك ان كان يحق لي ان اسألك هذا السؤال ؟

واذ كان الكلب سعيداً بهذا التقرب ، فقد زحف الى معلمه اكثر من قبل والتصق بساقه ورفع اليه عينين براقتين تسترحمان .

وظل توبياس ، فترة قصيرة ، ينظر بصمت ومن عل الى المخلوق المتواضع ، واذ شعر بحرارة الجسم الملتصق بساقه رفع اسو اليه ، وقال له :

— اذهب ، فسأكون بك رحيماً .

ولكن عندما أخذ الحيوان يلحس وجه معلمه تبدلت هيئة توبياس واتسمت بالحنو والكآبة ، فشد اليه الحيوان بحنو اليم واغرورقت عيناه بالدموع،ثم ردد مرات عديدة دون ان يتم الجملة حتى نهايتها وبصوت مخنوق :

— اترى ؟ انك انت صديقي الوحيد ... الوحيد ...

ثم مدد اسو بتأن على الاريكة وجلس بالقرب منه واسند ذقنـه الى يده واخذ يتأمله بهدوء وصمت .

★

بعد هذا اليوم اصبح خروج توبياس من البيت أندر من قبل ، لانه لم يكن لديه ابة رغبـة في ان يظهر امـام الجمهور مع اسو . وكان يخص الكلب بعنايته من الصباح حتى المساء ، وكان شغله الوحيـد ان يطعمه وان يلقي عليه الاوامر وان يوبخه وان يخـاطبه وكأنه انسان . ولكن اسو لم يكن يستجيب دائمـاً لرضاه . وكان حين يستلقي على الاريكة بالقرب من سيده ويأخذه النعاس بسبب نقص في الهواء وفي الحرية، وينظر الى سيده نظرة كئيبة ، كان توبياس يستغرق في غمرة السرور ، فيجلس جلسة هدوء وانشراح ، ويداعب برفق صلب اسو وهو يقول :

– انك تنظر الي نظرة حزينة يا صديقي؟ اجل ، أجـل ، ان العالم حزين وسوف تخبر ذلك انت ايضاً وان تكن صغيراً.

ولكن عندما كان الحيوان يعدو حول الغرفة، في هوس اللعب والمطاردة ويداعب حذاء يلقى هناك ، ويقفز على الكراسي ، ويتدحرج كالكرة ، وهو فريسة فرح جنوني ، كان توبياس يتابع حركاته بنظرة مستنكرة وبابتسامة غضبى مغيظة حتى اللحظة التي كان يـدعوه فيها اليه باهجة حقى وينتهره قائلاً :

– كفاك مبالغة ، فليس هناك من داع للرقص والدوران .

وقد حدث مرة ان هرب اسو من الغرفة وقفز السلم بقفزة واحدة، وهبط الى الشارع فلاحق قطة، وقد فاض بالفرح. ثم اخذ يلعب مع الاولاد. ولكن عندما ظهر توبياس مكفهر الوجه ، تعالى من حوله تصفيق الناس وضحكاتهم في الطريق . وحدث آنذاك شيء حزين : لقـد هرب الكلب مطلقاً لساقيه العنان ، بعيداً عن معلمه . وفي ذلك اليوم ضربه اسو ضربـاً طويلاً قاسياً .

وفي يوم آخر ، وقد كان الكلب يخصه منذ بضعة اسابيع ، اخذ توبياس من درج الطاولة قطعة خبز لطعام اسو ثم مضى يقطعها بالسكين الكبير ذي القبضة العظيمة الذي كان يستعمل عادة لهذه الغاية، ويرمي بالفتات أرضاً. ولكن الحيوان ، وقد اخذه هوس من الجوع والنزق ، اندفع على السكين الذي كان توبياس يقلبه تقليباً اخرق، فاذا هو يصاب بطعنة في كتفه الايسر، فيفيض بالدم ويتدحرج على الارض .

وذعر توبياس فترك كل شيء وانحنى على الجريح . وفجأة تغيرت معـاني وجهه واضاء قسماته شعاع خاطف من العزاء والسعادة . وحمـل الكلب ، الذي كان يئن الى الاريكة بتحفظ ، ولا يستطيع احد ان يتصور بأي انكار للذات اخذ يغدق عنايته على المريض . فقـد كان لا يبرحه طول النهار وكان يمدده في الليل على سريره الخاص ويغسله ويضمد جراحه ويدلله ويعزيه ويتلهف عليه بفرح ورعاية لا يكلان .

وكان يقول له :

– هل انت موجع ؟ نعم ، نعم تتألم جداً ياحيواني المسكين، ولكن اسكت. علينا ان نتحمل .

وبينما كان ينطق بهذه الكلمات كان وجهه يعبر عن الهدوء وعن سعادة كئيبة . ولكن بينما كان اسو يستعيـد قوته وبهجته ويشفى ، كان توبياس يظهر مضطرباً ومستاء . وكان يستشعر الرضى بـان لا يعتني بالجرح ، ولم تكن شفقته تظهر بعد الا بالكلمات والتربيتات . غـير ان اسو الذي كان قوي التركيب ، كان يمشي الى الشفاء بخطى ثابتة ، فعاد يدور في الغرفة . وذات يوم بعد ان ولغ حصته من الحليب والخبز الابيض قفز الى المقعد وقد استعاد كل قواه واخذ يقفز في الغرفتـين وهو يرسل



نبحات بهجة . وراح حيوان الماضي الذي لا يُكبح يشد غطاء السرير ويقذف امامه قطعة من البطاطا ويتدحرج من الفرح .

وكان توبياس واقفاً على النافذة قرب اناء الزهر ، وخلل شعره الذي كان ينزل على صدغيه كان يمر بحركة آلية يداً طويلة وهزيلة تخرج من كم المخطط. وكان شبحه ينعكس اسود غريباً على حائط البيت المجـاور الرمادي . وكان وجهه شديد الشحوب، متقلصاً من الحزن . وبنظرة مرتبكة حسودة وخبيثة كان يتابع قفزات اسو . وفجأة انتصب وهجم عليه وأوقفه، ثم اخذه بين يديه على مهل ، وبدأ يقول له :

– يا حيواني الصغير ..

على ان اسو ، وقد فك عنه قيده ولم يعد يقبل ان يعامل هذه المعاملة طويلا بعد ، عض بفرح اليد التي ارادت ان تربت على ظهره ، وانفلت من الضمة ، وقفز على الارض وهو يقوم بقفزة جـانبية هازئة ، ونبح ثم هرب جذلاً .

وظل توبياس واقفاً ، ويداه تتأرجحان وجسمه منحن الى الامـام وشفتاه مشدودتان ، وجفونه ترتعش بحزن في محجريهما . وفجأة انبعث بريق من شيء لماع في يده، فخر الكلب على الارض، وقد اصيب بجرح في كتفه الايمن .

وبعد لحظة ، كان ممدداً على المقعد ، وتوبياس يجثو بالقرب منـه ، ويجفف بمنديله الدم المتدفق من الجرح وهو يتمتم :

– يا حيواني المسكين، يا حيواني المسكين. كم يبدو كل شيء حزيناً. كم نحن تعيسان ، نحن الاثنين ! هل انت موجع ؟ نعم ، نعم ، انني اعلم ، انك تتألم . وها انت ذا ممدد بالقرب مني ، بصورة تثير الشفقة ! ولكني انا قريب منك . سأعنى بك . فبأجمل منديل لي سوف ...

ولكن اسو كان ممـدداً هناك يحشرج، وكانت عيناه المظلمتـان المتسائلتان المتجهتان نحو معلمه تعبران عن الحيرة والبراءة والالم ثم مدد قليلا رجليه ومات ...

وظل توبياس متحجراً ، وهو على وضعه نفسه، وكان قد الصق وجنته بجسم اسو ، وأخذ يبكي بمرارة .

نقلتها عن الفرنسية

عائدة مطرجي

شيطان بين عملاقين

بقلم جورج جرداق

[مهداة الى عبدالله القصيمي]

أحب فرنسيو القرن التاسع عشر ، في معظمهم ، أن يجعلوا من أنفسهم قوماً أتقياء صالحين. فستندال وأناطول فرانس نفسه، وأخيراً بول فاليري، كل هؤلاء كانوا يشيرون في نفوسهم الى وجود الحيوان الصالح الورع . ذلك لأن فولتير، عظيم اوروبا في القرن الاسبـــق ، كان في طليعة اولئك الذين لم يرغبوا مرة في ان يكونوا حيوانات صالحة ورعة ! فكان ، لذلك ، يتمتع « بسمعة غير طيبة . » وجميع الذين امتهنوا الرصانة واتخذوها عملًا ، قرروا ان فولتير لم يكن رصيناً . وجميع الذين«قرروا» ان يكونوا فاضلين ، وان يكونوا من ملائكة الاب السماوي عـــلى الارض، مقتوا الشيطان الرجيم الذي هو فولتير، ولعنوا ابتسامته الساخرة الماكرة ! واتفق الادباء الصالحون الورعون ، على ان فولتير ، هـــذا الخصم العنيد للمسيحية وللاديان جميعاً ، الذي حطم اللاهوتية وما اليهـــا ، وسخر بها مصدراً وغاية وقيمة ، انمـــا هو رجل تنقصه القيمة ، ويعوزه الوقار ، او بعبارة اكثر وضوحاً : تنقصه وجاهة الصالحين الورعين !

يرى البعض ان الانسان يحب ، ابداً ، ان يعجَب وان ُيعجب . وان الناس يرغبون في ان يكونوا ؛ بالنسبة لسائر الكائنات ، موضوعاً عظيماً يثير الدهشة والاعجاب . وان هذه الاساطير الملأى بالخوارق والاسرار التي تحدث الديانات بها الناس ، إنما صنعت لكي تثير اندهاش الانسان بنفسه واعجابه بمصيره !

لهؤلاء يقول فولتير : « ان الأحجيـــة لم تكن ، ابداً ، شرحـــاً وتعليلًا » ...

اما هم ، المعتقدين بأن لنا ملء الحق في اللجوء الى الخوارق والتهاويل ، فقد رأوا في فولتير صورة عن إبليس ! ورأوا أن ابتسامته المـــاكرة الساخرة ، إنما هي خيانة لأماني الانسانية ، وانها ليست اكثر من ابتسامة بائع غشاش . ثم ينعون على فولتير انه يفقد الحنان العميق في حياته وآثاره، وفي زعمهم ان الحنان انما هو مظهر بمقدار ما هو حقيقة في النفس . وقد فات هؤلاء ان حنان القلب في حياة فولتير وآثاره ، انما هو حنان لا يعلن عن نفسه تظاهراً وتزويراً . فنيتشة ، تلميذ فولتير ، يجزم بضرورة الكتمان — وهو ضد الاعلان — حتى في مواقف البطولة العظمى . ومثل هذا الجزم بضرورة الكتمان نجده في آثار فولتير جميعاً ، وهو القائل : « نعلم أنـــك تتألم ، ولكن لا تتشك . إن اشد الناس عجيجاً وتشكياً ، ليسوا اولئك الذين يتألمون اكثر من سواهم ... »

ان قوة الفكر والروح هي في ان يجرؤ المرء على قدْر العالم كما هو . وتلك هي قوة فولتير ، وهي الاكثر ندوراً بين القوى . اننا نعيش خرافات وأوهاماً . ونروي لانفسنا ، عن انفسنا ، حكايات مزيفة لا تنتهي . والطريف اننا سرعان ما نصبح ضحايا هذه الخرافات التي اخترعناها . فان أوهامنا وخرافاتنا هذه ، التي أعددناها لكي نخفي عن أعيننا شقاءنا ، لا تلبث ان توسع طاقة هذا الشقاء . فشقاؤنا يقضي بشذوذنا في خلق هذه الخرافات ويسببه ، وشـــذوذنا هذا يقضي بشقائنا ويسببه . وهذه الحلقة المفرغة التي يدور فيها معظم الناس وأكثر المفكرين ، لم يقبل فولتير بان يدخلها ويطبق دائرتها على نفسه ، مما جعله بعيداً عن الناس ولا سيما الصالحين الورعين .

ومن غرائب الطبع الانساني ، ان الملحد الذي يهاجم المعتقدات السائدة ، ويشتم المعتقدين ، ويجرحهم ، هو اخف وطأة عليهم من ذاك الذي يصغي ، ويسخر ويكثر من السخر . وعلة ذلك ان بعض صور النقمة على المصير وعلى الحياة وحدودها ، قد تمالقنا وترضينا وتعللنا ، اذ تكشف لنا عن عاطفة غالية ، وهي اننا احق بمصير أسمى واجمل !

لذلك كله كان اسلوب فولتير في اعـــادة الانسان الى حدوده ، يبدو لاخصامه كأنه تحقير للطبيعة الانسانية ذاتها .

اما فولتير ، فقد عرف هو أيضاً خصمه ، اول خصومه .

اكتشف فولتير بنظرته العبقرية ، قوة باسكال ، كما كان قد اكتشف شكسبير . وتحدث عنه ، وهاجمه ، وحاول تقويض آرائه ، دون ان يسيء الى شخصيته الفذة ، وإن لم يستطع ان يتخلى عن سخريته . قال فولتير : « منذ زمن وأنا ارغب في محاربة هذا العملاق ! »

واشتدّت الوقيعة بين فولتير وأنصار باسكال . وجعل فولتير يهدم في باسكال الاساس نفسه الذي بنى عليه آراءه : يهدم فيه ذلك الانطواء على النفس بحجة التأمل في الذات ، ويهدم في تلاميذه وأنصاره تلك الرغبة في التأمل الذاتي التي اصبحت فيهم شيئاً من التعنّت والهوس ، يهدم اولئك الذين يخالون انهم يتسعون ويعظمون بهذا الرجوع الدائم الى ذاتهم دون المجتمع ودون الكون المحسوس ، ويتظاهرون بانهم انما يحملون بذلك عبئاً لتحري الحقيقة ، وهم في الواقع كسالى تافهون . يقول فولتير لهؤلاء :

« واقولها ثانية ايضاً : ان التفكير بالذات مع التجرد من الاشياء الطبيعية ، انما هو تفكير بلا شيء ، بلا شيء عـــلى الاطلاق . وليحذروا هذا النوع من التفكير . »

وكأن فولتير يقضي ، سلفاً ، على هذا التزمت التافـــه

الثقيل الذي يسود اليوم كثيراً من الناس ، والذي يشاء ان يجم القيم في هذا الصنف الهارب الكسول من البشر الـــذين يضيعون في نفوسهم بحثاً عن الحقيقة كما يزعمون ، ونتفكه !

ولكي يحدد باسكال صفة الطبيعة البشرية ، قال :

« حين أرى عماية الانسان وتعاسته ، وهذه المتناقضات الغريبة الـــتي تنكشف عنها طبيعته ، وأنظر الى العالم فأجده أخرس لا يفصح ، والى الانسان فاذا هو لا نور يهديه ، متروك لنفسه وكأنه تائه في هذه الزاوية من زوايا الكون لا يعلم من وضعه فيها ولا ما أتى من أجله ، ولا يدرك ما مصيره بعد الموت ، حين أرى كل ذلك ، أدخل في فزع هائل ، كذلك الرجل الذي يحمل نائماً الى جزيرة مقفرة مخيفة ثم يستيقظ دون ان يعرف أين هو ، ودون ان يدرك أية وسيلة للخروج من حيث هـــو . وإذ ذاك يدهشني ألا يلج المرء في ظلمات اليأس من مثل هذه الحال التعسة ! »

فيجيب فولتير ببساطة رائعة :

« أما من جهتي أنا ، فحين أنظر الى باريس او لندن ، فانني لا ارى علة لألج في هذا اليأس الذي يتحدث عنه السيد باسكال . انما ارى مدينة لا تشبه جزيرة مقفرة في شيء ، بل آهلة واسعة النعمة ، متحضرة ، يسعد فيها الناس بمقدار ما تتسع الطاقة الانسانيـــة للسعادة . ومن يكون ذاك الرجل العاقل الذي يملأ قلبه اليأس لانه لا يعرف طبيعة أفكاره ، او لانه لا يعرف بعض أسرار المادة ؟ أفليس عليه ايضاً ان ييأس لانه لا يملـــك اربعة ارجل وجناحين ؟ لماذا نكره كياننا ؟ إن وجودنا ليس بائساً بمقدار ما يريدون أن يوهمونا ... »

ويتابع فولتير هذا الفيض من القول الرائع ، المؤمـــن بالانسان كما هو ، حتى ليتساءل المرء ، لدى اي من الفريقين نجد تحقير الانسان ، ألدى فولتير القائل بجمال الحياة وجمـال الحضارة وجمال العمل في نطاق الوجود بوصفه وجوداً وكفى ، أم لدى أخصامه ومتهميه الذين يتنادون للبكاء على وجـــود الانسان مصدراً وغاية ومصيراً ؟!

لدى اي من الفريقين نجد تحقير الانسان ، ألدى فولتير المتجاسر على قدر الانسان بما هو كائن عليه ، أم لدى أخصامه ومتهميه الذين يفزعون من الوجود الى ذاتهم بحجة البحث عن الحقيقة ، ثم لا يخرجون منها الا بلذة واحدة ، هي : الاعلان عن خيبة الانسان في وجوده وعن ضآلة شأنه ؟

« يجب ان يعيش الناس جميعاً ! »

يقول فولتير هذه الكلمة ببساطة وحرارة لباســكال ، العملاق الذي ينفر من البشر والوجود. وفي مثل هذه الكلمات البسيطة تبدو انسانية فولتير . ثم هو اذا بحث في كيفيـــة الوصول الى تحقيق هذه الرغبة الشريفة ، بدا له ان المشكلة اجتماعية لا فردية . إن مشكلة الانسان ليست كما يريد البعض ان يفهموها : أن يفلح « عاقل » أو قديس او نفس شقية في الارتقاء على اقدام الرب حجة لتقرير الوجود وتبريره . بل ان جميع الناس وجميع الكائنات يجب ان تأخذ طريقها الى البقاء. يقول باسكال : « اذا كان هنالك من خالق ، فيجب ألا نحب الا اياه ، دون المخلوقات . » فيجيب فولتير : « يجب أن نحب المخلوقات جميعاً ، ونحبها بحنان وعمق » .

اما اذا شئنا تفسيراً لكلمة فولتير هذه ، فلا بد من ان يكون كما يلي :

اننا ، نحن البشر ، لسنا الا العلاقات التي نرعاها ونصونها مع الاشياء ومع الكائنات جميعاً . ومن ثم لا نكون أحياء الا بمقدار ما تكون هذه العلاقات كثيرة وعميقة .

ودأب فولتير يعمل بحيوية ونشاط عجيبين كأنه الشيطان.

وأطلق في وجه الصالحين الورعين ، العاجزين الهاربين من بهاء الشمس ، المشككين بقيمة الانسان ، المقنعين عن جمالات الكون وشهوات الحياة بحجب من كسل الجسد وتخنث الفكر وميوعة النفس ، المتهافتين على الاديان وما تستلزمه من جمود في الفكر وانهيار في الحس الجمالي وفي قوى الانطلاق ، وما تقتضيه من إنكار لجمال الكائن ضمن قوانين العفوية والطبيعية ، المعتقدين بما خلفه الماضي من شروط لمعنى الوجود الانساني ، أطلق صرخات تلو صرخات تتمزق على جنباتها أجيال من العرف الاعتقادي ، والعرف الاجتماعي ، وبالتالي العرف السياسي !

وأمعن في خصمه باسكال تهديماً ، وفي آراء زمانه ، حتى رأت سلطات، عصره وهي القابعة في تلك الابنية الفكرية العتيقة التي يقوض فولتير جدرانها وسقوفها ويدكها دكاً ، رأت تلك السلطات من الخير ان تحرق آثاره لو تستطيع ، ولا سيما الرسائل الفلسفية ، والقاموس الفلسفي ، ومحاولة في فهم العادات ، والاقاصيص ، والكثير الكثير من اشعاره واهاجيه !

لم يكن فولتير بلهجته ، وصوته ، وأسلوبه في معالجة الامور ، رصيناً عاقلاً في نظر زمانه ، والرصانة والعقل في عرفهم يعنيان الخشوع في معبد الماضي والانحناء لنير اربابه ! وما كان الشيطان ليخضع او ينحني !

وظل يعمل بكل قواه ، ويناقش . ويهدم ، ويبني ، كرجل يعيش على الارض ويحب الحياة والاحياء والموجودات جميعاً . ثم إذا هو نظر الى الموت رأى الناس يكثرون من التفكير فيه والاهتمام به ، فرثى لحالهم ، وأعلن ان التفكير في الموت لا معنى له الا غلبة الموت على الانسان ، وأن أجمل نصير للانسان على الموت هو الا يفكر فيه ، وان يهزأ به اذا امكن ، قائلاً : « سأموت ، اذا استطعت ، ضاحكاً » .

ظل يعمل كأكثر الرجال لصوقاً بالارض واقلهم اهتماما بالسماء ، متفائلا بمصير الانسان ، ممعناً سخرية وتهديماً في كل ما توطد بناؤه بحكم العادة من اوهام وخرافات وانحرافات تقوم الى جانب الحقيقة . اوهام وخرافات قُدّست على حساب الحقيقة الحارة الجميلة ، وعلى حساب قيمة الانسان ، فأقيمت لها معابد فيها اصنام وكهان ومعتقدون كثيرون ، وكان لها عمل تأخيري واضح شد ما عاق الانسانية في سيرها التصاعدي .

يأخذون على فولتير شيئاً واحداً : وهو انه لم يكن قديساً ! غير ان قديساً واحداً في هذه الدنيا لم يعمل بعض ما عمله فولتير . ولعل اقل القديسين شأناً هم اكثرهم عملاً ...

قال الشيطان فولتير :

« الجنة حيث انا موجود ... »

وكفى الارض جمالاً ان تكون هذه الجنة . وكفى الانسان وجوداً جميلاً ان يكون سيد هذه الجنة .

●

ويقف في وجه فولتير عملاق آخر من جبابرة الفكر الانساني ، والأصالة الانسانية ، وأعني به ظهيره في بناء قواعد الثورة الفرنسية ، جان جاك روسو ! فان كلا من روسو وفولتير حد للاخر .

لا بد لنا من أن نغض الطرف عن الشتائم الكثيرة التي كان فولتير يوجهها الى روسو ، اذ كان روسو على لسان فولتير « مسخاً » و « يهوذا » و « رجلاً خبيثاً » و « سعدان الفلسفة الذي يقفز على عصا ! » . غير ان هذه الشتائم لا تعني في حقيقتها شيئاً . لأن فيها من عمل المزاج الفني ومن وحي القريحة . وفولتير لم يكن ، كروسو ، يعتقد كل ما يقوله . فهو عابث ساخر يتهكم بروسو كما يتهكم بنفسه . وحين ينتهي عمل المزاج الفني الخالص لدى فولتير ، يتحدث باحترام وتهيب عن روسو ، ويرى انه « بائس كبير ! » غير ان كلمة واحدة تتردد على لسان فولتير مئات المرات ، تدلنا على اسلوبه في التخلص من الحال كلما اصطدم بعبقرية روسو الفذة وشخصيته المدهشة ، هذه الكلمة هي ان روسو : « مشعوذ غبي . »

كان يرددها تخلصاً من كل ما لا يفهمه، وما لا يريد ان يفهمه في روسو هذا العابر العجيب ، الغريب عن الدنيا !

كان روسو لا يحلم الا بسعادة البشر ! وكان يتكلم عنها وعنهم بفيض من الحنان والحب العميقين ، كما لو كان يتكلم عن عالم شاهده مرة في حلم أو قاده اليه ارهاط من الشعراء . عالم يحتفظ بما فيه من مظاهر الطبيعة العذراء دونما اعتداء على جسد هذه الطبيعة وعلى قلبها . فيما كان فولتير يريد سعادة البشر هو ايضاً ، ولكنه يراها بوصفه ابناً للارض والمجتمع والحضارة .

لا شك في ان القلب يتجه بكل نوازعه نحو روسو العظيم . غير أن العقل يؤثر فولتير ويتجه بعناد وإصرار اليه .

ان المرء ليحس كم هي فاتنة وجميلة تلك الظلال الرخية الحلوة التي تكشف البيت الريفي الذي نراه ابداً في آثار روسو . وكم يطيب للقلب ان يحن أبداً الى هذا العالم الصغير الساحر . ولكن ، ايكتفي الانسان بان يستسلم لهذه الفتنة وهذا الحنان ؟ ! ان هذا العالم الصغير ، عالم روسو ، فاتن حبيب ولا شك ، ولكنه ضيق، وساكنه لا يلبث ان ينقلب الى انسان ذي حدود ، معروفة لا تجاز ، وليست تلك هي حدود الانسانية ، بل انها اوسع وأشمل . وانه لمن الخير ان يواصل فولتير وامثاله إقلاق هذا العالم الصغير ساعة يثقون بامكانية تقديمه وتوسيع حدوده .

ان نظرة روسو الى المجتمع والحضارة ، تطلق الثورات وتحييها . ولكنها قد تمنطقها ايضاً او توقف انطلاقها . أما فولتير فيطلقها ابداً حتى لا تهدأ ولا تستسلم . ان حب الحقيقة وتركيزها ، هو مبدأ كل ثورة تستمر . وهذه الثورة بمعانيها العميقة ، لا تحترم شيئاً الا الحياة وميادينها السلمية . وببطء ، ولكن بقوة ، تبدل الاخلاق والعادات والانظمة والمفاهيم، وتفتح قلب الانسان وعقله على ما هو أوسع وأبعد وأجمل . والثورة كلمة لم يرددها فولتير الا قليلا جداً . ولكنه اراد نتائجها وسعى اليها وادرك منها اكثر مما ادركه جميع الادباء الذين يرددون لفظتها في كل ما يكتبون . والثورة هي موجز نظرته الى التاريخ ، والدين ، والاجتماع . وهي التي كانت توقظه بصورة مستمرة على كل ما يهم الانسان من صغائر الامور وكبائرها . الثورة عند فولتير هي ما كانوا يسمونه « شيطنة فولتير » القائل للانسان السادر في طريق الخرافه ، وفي طريق الشك بكرامته وقيمته : « اذكر قيمتك كانسان ! »

ولما مات الشيطان، لم يؤمن اخصامه من الحيوانات الصالحة الورعة بان « شيطنته » قد ماتت معه ، وكانوا على حق في ذلك ! .

مات فولتير وابتسامته الساخرة على شفتيه ، ولأول مرة يبتسم الموت في تاريخ الانسان .

جورج جرداق



المدينة والفجر

[مهداة الى الأستاذ باهر فائق وزوجته الكريمة سعاد .]

•

لكل مدينة في الكون ساعة طهرها الساحر
فلو ضجت لياليها
ولو ضجت مقاهيها
ولو سالت دنان الخمر رجساً في سواقيها
فعند الفجر تلقاها
وثوب الطهر يغشاها
كأن الليل لم يرقص على كلكلها السـاكر
ولم يسكب إله اللهو ذوب جنونه فيها .

***

لكل مدينة في الكون وجه ساذج باهر
فلو طالت مبانيها
ولو ترفت اهاليها
ولو فاحت جرار العطر بذخاً من ايديها
فعند الفجر تلقاها
وروح الخير تغشاها
كأن اليوم لن يمتص من خفاقها الزاخر
عبير الخـير والنعمى وينفث شره فيها

***

هنا في الفجر لا شر ولا دعر وارهاق
ولا ترف ولا كفر
ولا صلف ولا مكر
ولا دن ولا خمر
ولكن مأمل سام وتصميم واشراق .

***

تحدى العامل البنّاء عيش المترف الغافي
هنا في الدرب تلقاه
يبارك فجره الله
وتعطي الدهر يمناه
شذى البركات والخيرات من ينبوعه الصافي .

***

لكل مدينة في الكون قلب مؤمن شاعر
فلو جُنت امانيها
ولو عصفت مساويها
ولو شبت رياح الكفر ناراً في مآقيهـا
فعند الفجر تلقاها
وعين الله ترعاها
كأن الدهر لم يجترّ فوق جبينها الساخر
صدى الآهات او يترك سواد غضونه فيها .

سلمى الخضراء الجيوسي

سنوحي

القصة الواقعية الاولى في آداب الشرق

بقلم : انيس صايغ

لا تزال آداب امم الشرق العريقة تملأ فراغاً كبيراً في مجموع آداب العالم الكلاسيكية عبر التاريخ . فقد حفلت حضارات هذه الامم بروائع ادبية وفنّية تضاهي الاسس العلمية والفكرية والمادّية التي قامت عليها نهضاتها الحضارية الحيّة مع الايام .

ولقصة سنوحي ، المصرية الاصل ، من المميزات والصفات ما يجعلها في مقدمة الآثار الادبية في مصر القديمة بشكل خاص ، وآثار امم الشرق بوجه عام . هذا الى جانب اقدميتها الزمانية ، اذ هي من اوائل القصص في تاريخ العالم ، اقدم قصة شهيرة خطّها الانسان . فهي ترجع الى عهد الاسرة الثانية عشرة في التاريخ الفرعوني على ارض مصر ، اي الى حوالى اربعة آلاف سنة خلت .

يتكلم بطل القصة ، الذي يروي حوادثها بنفسه ، عن تاريخ حياته – عن نشأته في مصر ولجوئه الى سورية ، وعودته اخيراً الى مصر بعد غياب طويل .

فسنوحي امير كان ينتمي الى بلاط الفرعون امنمحت الاول ، ويشرف على شؤون قصره ، ويتولى مسئوليات عسكرية وادارية عالية في الدولة . وبينما كان يحارب مع ولي العهد في جبهات الحرب المصرية الليبيّة بلغ مسمعه نبأ وفاة الفرعون ، قريبه وصديقه ، وانتقال التاج الى ابنه ، سنوسرت الاول . ويظهر ان العلاقات الشخصية بين سنوحي وهذا الامير لم تكن حسنة ، اذ اضطرت سنوحي الى الهرب من الجبهة حيث كان يحارب ، واختراق مصر من اقصى غربيها الى صحاريها الشرقية ، وعبورها الى سيناء ، ثم الى فلسطين .

ويتحدث لنا سنوحي في قصته عن مقامه في فلسطين ، عطف احد امرائها عليه ، واعجابه به ، واعطائه ابنته زوجة له ، واقطاعه اياه ارضاً في بلدة يي .

فاستقرّ به المقام في فلسطين ، وعاش فيها مدة طويلة ، وانتشر خبره في مصر وفي سورية ، وارتفع مقامه وتزعم القواد السوريين ، ووطّد الامن وراقب التجارة والمواصلات ، وحمى الهاربين اللاجئين اليه ، واستضاف الزائرين ، وانمى ثروته وزاد ممتلكاته .

ولكنه ظل مع هذه الخيرات كلها يحنّ الى مصر ويتوق الى الرجوع الى ارض مولده وحداثته . لذلك لم يخيّب دعوة الفرعون لما ارسل اليه يطلب اليه الرجوع الى مصر والعودة الى وظيفته في قصره الملكي . وغادر فلسطين غير آسف ، وحظي في مصر ، حال وصوله اليها ، باستقبال رائع ، ونال من الفرعون الكثير من الهدايا والمأكولات والاثواب ، وعُهد اليه ببعض المراكز الرفيعة الشأن .

هذه هي قصة سنوحي باختصار وتبسيط بالغين . ولكن الرجوع الى القصة بنصها الكامل – ان في اللغة الهيروغليفية الاصلية ، او في الترجمات الرئيسية عنها ، الالمانية والانكليزية والافرنسية والعربية – يبرز للقارىء عدداً وافراً من الصفات التي تتمتع بها هذه القصة ، والمميزات التي لا تتوفر في معظم اثار آداب الشرق القديمة . وهذه الصفات هي التي تقدّم « سنوحي » على غيرها من الروائع القصصية الكلاسيكية ، والتي تكاد تجعلها القصة الاولى في تاريخ البشرية .

فقصة سنوحي من اكثر القصص العالمية قوة في الاسلوب . وقد استطاع الكاتب ان يحبك وقائع القصة بقوة قادرة على السيطرة على القارىء ، ولو بعد اربعين جيلا ، والتنقل به خلال مشاهد القصة ، ووقائعها النفسانية والجغرافية ، والتأثير عليه خلال هذه التنقل . وبينما يتحدث سنوحي عن تجوّلاته وسفراته في مصر وفي سورية وبينهما ، وفي القصور والقفار ، وفي الحروب وايام السلم ، يرى القاريء امامه مشاهد حسّية منتزعة من صميم واقع تلك الاوضاع ، وتلبس الحقائق الكلامية شكلا مجسماً يكاد يفوق الاوضاع المجسّمة المشهورة في ملحمة قلقامش الخيالية في الادب السوري القديم .

وتتفوق قصة سنوحي على غيرها من القصص المصرية والسورية القديمة بواقعيتها التامّة . فسنوحي انسان من لحم ودم ، عاش اياماً سعيدة وشقي اياماً اخرى ، وتنقل بين المدن والدول المختلفة وخالط الاقوام المتعددة ، وعمر قلبه بمختلف العواطف والاشجان والاحاسيس . وهو يروي

قصة هذه الحياة كما هي ، دون ان يزيد على وقائعها حركات خيالية تنقلها الى مصاف الاساطير ، ودون ان يضيف الى احساساته تأملات فكرية تعطيها قيمة وعظية . فمتاعبه متاعب طبيعية قد يتعرض لها اي انسان منا في اي عصر ، وعواطفه بالرغم من حدتها ، عواطف بشرية عادية .

يصور لنا سنوحي وقائع قصته بواقعية امينة ودقيقة . ومن هذا التصوير العلمي في قالبه الفني نتزود ، نحن ابناء القرن العشرين الباحثين عن اخبار الماضي في الادب كما نبحث عنها في التاريخ ، بمعلومات وافرة عن اوضاع تلك الازمنة والامكنة على صعيد جغرافي وتاريخي واجتماعي .

يتحدث الكاتب في قصته عن حروب سنوسرت الاول مع الليبيين، وعن وفاة الفرعون امنمحت الاول وتفاصيل ولاية ابنه للعرش ، (وكان ذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة، بين ١٩٩٥ - ١٧٩٠ ق . م .) ، وعن علاقات مصر مع دول سورية ، وقيمة المصريين عند اهل سورية ، ومدى انتشار اخبار مصر ولغتها عندهم ، وسرد اعمال الفرعون ووصف قوته وصفاته ، الى غير ذلك من الامور التاريخية .

وفي القصة تفاصيل وافية للطرق الداخلية في مصر وفي سورية ، ولطرق المواصلات بينهما عبر شبه جزيرة سيناء الصحراوية . وفيها اخبار عن استحكامات الجنود المصريين الدفاعية، وعن الحدود وتحصينها ، واهلها وبدوها ، وتنقلات الجنود والرعاة ، وعن مدن فلسطين ، وغناها الطبيعي ، وزراعاتها وحيواناتها .

وتتحدث قصة سنوحي ، من الناحية الاجتماعية ، عن عدد وافٍ من معتقدات المصريين واوضاعهم الاجتماعية ذلك العصر - مثل علاقة الملك بالرعية وبالآلهة ، والايمان بالموت والحياة وما بعدهما ، والطقوس الدينية والجنائزية ، واخبار الالهة وصفاتهم واسمائهم ، واساليب النزال بين المحاربين ، ووصف قصر الملك وحاشيته وعائلاته ، واخبار العادات المصرية والسورية ، من شجاعة ودهاء ومكر وخداع ومدح ورقة شعور ...

وان كان سنوحي يتوفق الى حد بعيد في رسم الحقائق التاريخية والاجتماعية والجغرافية في قالب روائي فني ملذ رائع ، فهو يتوفق ايضاً في رسم الاوضاع النفسانية التي كان الكاتب يعيشها في الوقائع المجردة التي تكلم عنها. وكما استطاعت تلك الصور الحسّية ان تخلد عبر اربعين قرناً من الزمان ، لا تزال الاحاسيس النفسانية المعبرة في كلمات بسيطة حيّة شديدة التأثير على القارىء المعاصر . فلقصة سنوحي الفضل الاول في تأسيس دعائم فن التحليل النفساني في القصة الكلاسيكية . ويندر وجود هذه المزيّة في معظم آداب مصر ، وفي كثير من القصص السورية ، القديمة .

وقد صور لنا سنوحي مختلف الاختلاجات النفسانية التي تعرّض لها ، ببراعة ودقة ، وسكبها في عبارات موسيقية بليغة. ولا مجال لنا الآن لنقل هذه المشاعر المتعددة - مشاعر الخوف ، الخوف عند موت الاصدقاء ، وعند الهرب ، وعند الانفراد ، وعند التغرب ، وعند الحاجة ، ومشاعر المفاخرة ، بالانتصار على الاعداء ، وبالتغلب على صعوبات الحياة ، وبالغنى والثروة والمركز والجاه والتسلط ؛ ومشاعر الوطنية والحنين الى البلاد .

كان سنوحي قومياً مصرياً صميماً . وهو اوّل من خلد الشعور الوطني المصري في ادب حي . مليء احساسه بالولاء للوطن والشعب والملك ، وعمر قلبه بالمحبة والشوق الدائم لمياه النيل وتراب ضفافه . وتتجلى هذه العاطفة الوطنية في القصة المذكورة اكثر منها في اي قطعة ادبية اخرى من آداب الشرق العريقة . ولا اذكر كاتباً شرقياً واحداً ، من عصور

ما قبل المسيح ، استطاع ان يعبّر عن ولائه لوطنه بالقـــوة والجمال نفسيهما اللذين عبر بهما سنوحي عن تلك الرابطة الـتي تشدّ قلبه الى ارض النيل .

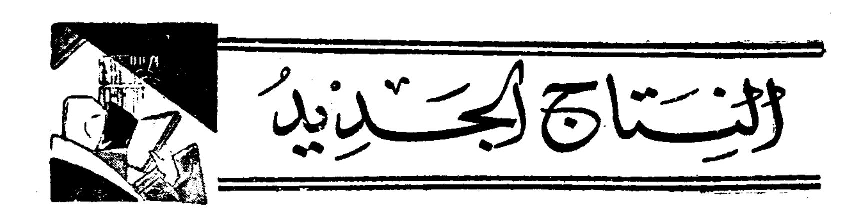
فعندما يستدرج الامراء السوريون سنوحي للتكلم عن فرعون مصر ينتصب مفتخراً ومتغنّياً ، بكـل جرأة واباء قومي ، بفرعونه الذي « لا شبيه له ، الحكيم الحـــازم ، المسيطر على العالم ، الشجاع القوي الجسور ، المنتقم ، الرشيق ، المحبوب الرؤوف ، الاله بين الناس ، الذي لا يخطيء في قتال ولا ينجو منه عدو ! » .

وعندما يطول به المقام في ارض سورية يحنّ الى مصر ، الارض « التي يحيا برحمتها ، ويسكن قلبه فيها » وما ان يأتيه عفو سنوسرت عنه حتى ينبطح على بطنه ويلمس التراب وينثره فوق رأسه ، ويبتهل الى الاله الذي ارجعه الى مصر « الارض الحبيبة التي فيهـــا وُلد » واخرجـه من سورية « الارض المتوحشة » .

وقد تمكن سنوحي من تصوير هذه العواطف باسلوب متين بعيد عن التفكك والركاكة . وتمكن من سرد الوقائع بتسلسل منطقي منظم . وكانت لغته نقية وخـــالية من الاخطاء . ولكنه لم يحرر نفسه من بعض التكلف البياني والزخرف اللفظي ، الذي اضعف من المعنى وضحى ببعض القوة من اجل التزويق الكـــلامي . وترجع هذه النزعة التكلفية الى وضع الادب المصري في عصر سنوحي . فقد انحرف ذلك الادب ، في عهد الاسرة الثانية عشرة ، عن اسلوبه القديم البعيد عن التكلف ، وانغمس في بديع لفظي ننفر منه اليوم .

هذه هي قصة سنوحي الخالدة في الادب المصري العتيق ، التي يرجع عهدها الى اربعين قرناً ، فترجع بالقاريء الى أزمان لا نزال نتلهف على اخبارها ، والى اماكن لا نزال نبحث عن اوضاعها . وتتمكن القصة من كشف هذه الاخبـــار والاوضاع باسلوب صريح جميل . ولكنها تكشف للقـاريء اكثر من اي شيء آخر ، عن جمال القصة نفسها – الجمـال في القوة والاسلوب والتحليل النفساني للشخصيات والخلجـات ، وفي السذاجة والعفوية في الانطلاق . وبهذا الجمال تتبوأ قصة سنوحي عرش الادب التقليدي في مصر وفي الشرق . وتظل مثالاً للادب الخالد الحيّ مع الاجيال .

انيس صايغ



شاعر النبي

تأليف عبدالله انيس الطباع

نشر مكتبة المعارف في بيروت — ١٣٢ ص

•

قال علامتنا الشيخ عبد الله العلايلي في « مقابسة » القسم الرابع من معجمه : « من ينقد عليك هو كمن يؤلف معك .. خطة درج عليها كل من أخذ قضية الفكر من انحائه بقداسة » . إلى أن قال : « فيكون من يبحث كمن يصلي » .

أما انا فسأحاول ان ارتفع إلى المستوى الذي رسمه العلامة الشيخ للناقد والباحث ، في نقدي لكتاب « شاعر النبي » . وما علي من بأس إن لم افلح في رفع ذاتي الى ذلك المستوى فحسبي ان النية صادقة .

ولا اكتم القارىء ، كما لا اكتم المؤلف انني ثرت عندما مضيت قليلاً في قراءة مؤلفه . وانني لم اجد إلا كل ما يزيد من ثورتي ويغذيها كلما تابعت الى امام (واني لاسجل هنا شكراً جزيلاً للدكتور طه حسين الذي علمني ان اصبر على ما اكره ، وان اتابع الى النهاية قراءة الكتاب الذي أبدأ به مهما بدا لي نافراً او ضعيفاً او ركيكاً او صعباً) . وعندما انهيت مطالعته ورميته جانباً على المنضدة بعد ان آذيته بالتخطيط والتهميش ، تمنيت ، في صدق، لو وضعت امام المؤلف وجهاً لوجه لأعاتبه بعنف والومه بشدة واتحدث اليه طويلاً في امر التأليف الذي غدا من اكبر مشاكلنا القومية . او لو وضعت امام الناشرين لانبههم بغير حياء او مجاملة الى ان يتدبروا الكتاب ويقرأوه قبل نشره ، ويترفعوا هم الآخرين عن تملق الناس او السعي الى الكسب غير البريء ، فيرحموا هذا الشعب فيما ينشرون من كتب .

وكي اسهل على الجميع المناقشة ، اصنف لهم مآخذي في حقول ، واحيلهم الى المآخذ في اماكنها من الكتاب .

وأول هذه المآخذ ضعف المؤلف البين باللغة ، حتى ليبدو جاهلاً بها كل الجهل ... فالاسلوب الانشائي الذي اعتمده المؤلف لا يرتفع من بدايته الى نهايته عن اسلوب تلاميذ المدارس المتوسطة او الثانوية . فهو ركيك جملة ، باهت في الوانه ، فاتر في سيره ، لايرضي بلاغة او بياناً ولم يغضب كل بلاغة او بيان او كل من له علم بالبلاغة والبيان ...

«فانت ترى ... ان حسان لم يتعرض الى ما تعرض اليه الشعراء من هجاء مقذع يخرج عن حدود الادب والذوق او من وصف المرء وصفاً غير حقيقي فيه لا لشيء الا لغاية في النفس . ونحن هنا لا ننكر ان حسان في هجائه جميعاً لم يكن هذا الشاعر المقذع . ولكننا نؤكد ان حسان لم يكن مقذعاً في هجاء القرشيين انسباء الرسول الاعظم واقربائه» — ص ٤٠ — «والدافع الذي يدفع بنا الى ان نبرىء حسان من الجبن انه شاعر . و شاعر قبل كل شيء بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى » — ص ٣٥ — . «وانه اليوم الاول والاخير » الذي تمكن فيه المسلمون من « فهم محمد » — ص ٥١ — «وقد تشاركهم السماء بكاءهم وتبكي معهم هذا اليوم الذي قضى فيه محمد ، واي يوم في رزئه ومصيبته يعادل هذا اليوم ، يوم مات فيه احمد — ص ٦٤ — وعلى كل تراثا نعرض انموذجاً لشعره الجاهلي — اي ساعرض لك فيما يلي : ص — ٦٩ « افليس بعد هذا نرى من حق حسان ان يفتخر بمعركة احد . » — ص ٥٣ .

فالاخ — سامحه الله — يترجم عن كتاب مدرسي في اللغة الاجنبية ، ولا يؤلف باللغة العربية .

والنحو والصرف — اجارهما الله من الضعفاء أمثالنا — لعب بهما حضرة المؤلف — عفا الله عنه — كما لعب بكرامة قارئه ، واحتقرهما كما احتقر عقل قارئه وذوقه . فنصب خبر إن في قوله « ويحس محمد أن جسمه متعباً ص ١٨ » . ورفع معطوفاً على اسم إن في قوله « وعلم ان خمسة وسبعون مسلماً ص ٢٣ » . ورفع المفعول به أو لعلّه جرّه (فهو لم يشكل) في قوله « هنا يخاطب قريش — وانه ليراه يوم عظيم ص ٤٧ » ورفع أو جر خبر كان في قوله « كان حسان معجب ص ٤٦ » ورفع أو جر المعطوف على الحال في قوله « يرون هذا الامر بعيد التحقيق ، مشكوك فيه ص ٤٩» ونوّن وزن أفعل في قوله «يجعل منه يوماً أغراً ص ٥٣ » وانتقل من صيغة الغائب الى صيغة الحاضر دون ان يمهد لذلك الانتقال في قوله « راح — اي حسان — يصوّر هذا اليوم — أي يوم بدر — تصويراً ألهمه وفُتح به عليه وتراه في هذا التصوير يخاطب أبا سفيان ويؤكد له ان اللقاء قريب ، وأننا لن نكون أمة ولن تكون لنا (خيلاً) — اسم تكون منصوب — اذا لم تروها في القريب العاجل تثير الغبار الخ ... ص ٥٤ » .

وثاني هذه المآخذ اعتداد المؤلف بنفسه إلى درجة الغرور (وعذراً من الدكتور طه حسين. لقد دافع في كتابه « خصام ونقد » عن الاعتداد بالنفس عند الفنان العبقري) . فهذا الكتاب لم يبدُ فيه فنّ أو عبقرية ولا ما يُقارب الفنّ والعبقرية حتى يُغفر لصاحبه اعتدادُه بنفسه ، وغروره .

لقد حاول المؤلف أن يقلد الدكتور طه حسين في كتابيه « في الأدب الجاهلي ، وحديث الأربعاء » عندما أراد الدكتور أن يشكك في صحة ما ينسب من روايات إلى الشعراء الجاهليين أو الشعراء الغزليين في صدر الدولة الأموية ، أراد أن يشكك، ولكنه لم ينف نفياً ولم يجزم جزماً ؛ وإنما كل ما فعله أنه أثار مشكلة نقدية وفق في إثارتها كل التوفيق . أما مؤلف « شاعر النبي » فقد عمد إلى نفي الأحاديث النبوية التي قالها النبي (ص) لحسان عندما كان يشجعه على هجاء المشركين . نفاها ، وأثبت أنها قد « دست » على النبي و « جزم » أنها « مختلقة » ص ٤٠ — ص ٤١ — وما أجدرنا بالتساؤل بديلاً عن التقرير القاطع — كما يقول العلامة العلايلي

وثالث هذه المآخذ تقليده غير الموفق ، للآخرين . كتقليده للدكتور طه حسين في أسلوبه وسطوه على جمل تامة له، وحتى في حالة السطو لم يوفق إلى وضعها في مواضعها ... [ويروح — أي محمد — فيشكر ربه في تؤدة، ويشكره في صمت ، ويشكره في خشوع ص ٤٦ — أذن له — أي لحسان — ... أن ينسلخ عن تاريخه وعن حياته ، أو أن ينسلخ عنه تاريخه وحياته في تاريخه ص ٢٨ .. نود ان نشير هنا إلى ان هذا النوع من المدح كان جديداً في الأدب العربي، جديداً في ذاته، جديداً في أسلوبه ص ٣٢. وهو في أسلوبه جديد « بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى » جديد في ألفاظه ، وجديد في تعابيره وجديد في إشاراته وجديد في تصاويره —

ص ٣٣ . « فهو لم يأخذ نفسه بهذا اللون » من البطولة ص ٣٧ . « وترى حسان في هذا الشعر مطمئناً لدفاعه – عن النبي – راضياً به محباً له ، ولعل هذا الاطمئنان وهذه الغاية وهذا المصير لم نعرفه قبل الاسلام ص ٥٩].

وكتقليدة للدكتور النويهي الذي استند على التحليل النفسي فزعم أن عقدة أوديب عند أبي نواس والتي نشأت عن حبه لأمه وفشله في ذلك الحب ، هي التي دفعته إلى أن يتردّى في ما تردّى فيه ويقول ما قاله ... وللاستاذ العقاد الذي استند على علم النفس أيضاً فزعم أن اعتداد أبي نواس بنفسه أصابه بالنرجسية ، فاستند حضرة المؤلف او اراد للناس ان يستندوا على علم النفس فيدرسوا حسان دراسة نفسية ليعلموا انه لم يكن جباناً [وهم لو درسوا حسان دراسة نفسانية « مبنية على علم النفس » ... لما قالوا إنــه جبان – ص ٣٥] – انظر الى هذا التعبير –.

فحبذا لو صدر كتاب الدكتور طه حسين « خصام ونقد » قبل ان يؤلف الأستاذ الطباع كتابه « شاعر النبي » ليقرأ في مناقشة طــه حسين للدكتور النويهي والأستاذ العقاد ، أن رجلاً مسكيناً مضى على وفاته مــا يقارب أربعة عشر قرناً لا يمكننا ان ندرسه دراسة نفسانية « مبنية على علم النفس » ، ولا أن نحلل له نفسيته .

وأرى أن الأستاذ المؤلف كان متسرعاً في دراسته لحسان كما كان متسرعاً في تأليفه كتاباً عنه ودفعه إلى المطبعة ليصل بسرعة إلى ايدي القراء وأبصارهم. فهو مثلاً لم يذكر أن يعد علياً بين المسلمين الأول في صفحة ١٩ ، ولم يذكر أن الله سبحانه ، عندما علم تهامس بعض المسلمين في ان النبي (ص) يؤثر آل بيته بعطفه ورميهم إياه بالتعصب أنزل « والنجم إذا هوى ، ما ضـلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » . ولم يراجع من أجلها كتب الصحاح او كتب التفسير فزجها في غير محلهــا في صفحة ٥٣ .

وختاماً ارجو ان يعذرني حضرة الأستاذ المؤلف إن بدوت قاسياً في نقدي ، فانا واحد من مساكين كثر في هذا الوطن العربي البــائس ، يوفرون ثمن الكتاب من ثمن قوتهم ، ويسرقون من وقتهم الضيق الثمين الذي يجب ان لا يصرف إلا في كل ما يبني كيانهم ويبني الوطن، ليقرأوه ، وهم يتكافون الجهد والسهر من اجل ذلك. فيشق عليهم ويؤلمهم ان يمنوا فوق ذلك بالخسران المبين ... وكم اتمنى له ، وكما تمنيت لنفسي مراراً ، ان يمسك عن الكتابة ، والتأليف ، الآن ، ويعود للقراءة والدرس . وليعــلم ان الشهرة لا يضيعها شيء مثل البكور والسرعة في طلبها وابرئه من ان يكون قد قصد الى كسب المال ، لأنه يعلم ان للمال مصادر اخرى تغني وتشرف ، وله شكري ، في كل الاحوال ، جرياً مع القاعدة التي رسمها الشيخ العلايلي بقوله « فحظ من جهد ان يشكر » .

جبله **جميل حسن**



نحو عربيه ميسّرة

تأليف الدكتور أنيس فريحه

منشورات دار الثقافة ، بيروت – ٢٢٤ ص

•

واقعنا اليوم مؤلم بشع ، نحس به في تفرقنا وانقسامنا، في تأخرنا عن ركب الحضارة ومسايرة الزمن ، في تكالب الاستعمار علينا وتمزيقه اوطاننا نحسه في كل شيء ، ونلمسه في كل شيء . فهل اذا بدت اللغة – لغتنا العربية– منسجمة مع ذلك الواقع ، كان ذلك أمراً اداً ، وشيئاً خارجــاً عن المألوف ؟

« اللغة كائن حي نام متطور » هذه هي الحقيقة التي اتخذ منها الدكتور أنيس فريحه حجر الزاوية في كتابه : « نحو عربية ميسرة ». وهل حياتها ونموها وتطورها الا بالافراد الذين يعيشونها ، ويحيون من خلالها ، فتنفعل بهم وينفعلون بها ؟ « واحياء » اللغة العربية وافرادها ماتوا منذ زمن بعيد ، ماتوا منذ ان ووري ابن جني التراب ، وتوفوا مع تشييع جثمان الفراء وابن الحاجب . واليوم حين يستيقظ العرب ويفركون النعاس عن عيونهم ، يجدون انفسهم ، وقد ولد في الضياء منهم من قد ولد ، وعاش في كنف الغرب من عاش ، ونهل من ينابيع امم حية متيقظة من قد نهل ، ليعود اليهم ، وهم نصف احياء ، يصرخ في آذانهم صرخته المدوية ، ويسلط على عيونهم الناعسة الكسلى ، اضواء وهاجة ، ان كان لها من اثر ، فالصمم في الآذان ، والبهر في العيون .

لست اصطنع الحمية ، وعزة القومية ، ولكن اشير الى ما لا بد من الاشارة اليه ، الى العلاقة القريبة بين وجودنا السياسي وحياتنا اللغوية ، الى الوشيجة القوية بين كياننا العالمي وكرامتنا الادبية . لست اذكر ابن جني والفراء مدفوعاً بحمية الانتصار للتاريخ ، والذود عن كل ما يمس كياننا القومي ، فذلك يصلح في معرض الخطابات الحزبية ، لا في بحوث علمية ، رائدها الحقيقة ، والحقيقة وحدها .

ان ابن جني والفراء وغيرهما ، ممن ساهم في بناء النحو العربي القديم ، وجعله سياجاً منيعاً حول العربية ، كي لا يتطرق اليها الوهن والانحلال ، قد ادى واجبه على خير وجه ، وقام بما يجب على حماة العربية ان يقوموا به في ذلك الوقت ، ثم مات ابن جني وماتت الدولة العربية – اقول ماتت وانا مدرك تماماً معنى الموت – فاستنبط العرب ، واستعرب الترك ، وحكم العرب غير العرب ، من ديلم وفرس ونبط وترك ، وابعدت اللغة العربية عن مكانتها لا في شؤون الحياة العامة فحسب بل زحمتها اللغات الغازية المسيطرة حتى في دواوين الانشاء و في السياسة والاقتصاد وحجرتها في قمر مظلمة ، لا ينفذ اليها نور علم ولا ضياء معرفة ، ثم عملت العوامل اللغوية – بعد العامل السياسي – عملها فتأثرت العربية – في شتى بقاع الأرض – بالتربة والمناخ من ناحية الاصــوات وبآثار اللغات الاصلية ، واللغات القاربة من من ناحية الكلمات والمترادفات ، فنشأت اللهجات الحديثة ، فكان للعراق لهجه ، وللشام لهجة ، ولمصر لهجة ، وإلى ما شاء الله من هــذه اللهجات الكثيرة .

أعود إلى الكتاب –موضوع البحث– لأرى ان الدكتور – فريحه – في سبيل دعم رأيه ، وتأييد دعواه (هجر اللغة العربية الفصحى واحلال اللغة المحكية محلها) قد وقع في اخطاء فادحة ، واستند الى حجج لا تقوى أمام الادلة والبراهين :

يقول في ص ٩٨ من كتابه : « وليس لنا ان نعيد على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية إلى مرتبة أدبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، لأن هذا من الأمور المعروفة التي لا تحتاج الى تعليق » .

لا يا سيدي فهي تحتاج إلى تعليق ومناقشة طويلة : القرآن الكريم لم يخلق الفصحى خلقاً ، ولم ينزل بلغة قريش لأنها افضل من غيرها ، بل نزل القرآن بها وبغيرها من اللهجـات ، وفي حديث عن النبي (ص) « انزل القرآن على سبعة اخرى وفي رواية على عشرة » وانما آثر العرب قراءة القرآن بها لانها اللغة المفهومة لدى الجميع ، واللهجة التي يعرفها النجدي والحجازي ، القضاعي والتميمي . ومن ثم كان القرآن عاملاً قوياً في توحيد اللغة العربية ، وجعلها هي اللغة النموذجية التي يحتذيها الأديب والبليـغ ، والا فما معنى تحدي القرآن لكافة القبائل ان يأتوا بسورة من مثله ؟

وليس بدعاً ان تكون لغة قريش كذلك ،فقد كانت هناك — قبـل نزول القرآن — عوامل سياسية وتجارية ودينية ، هي التي بوأت مكة مكان الصدارة ، فالكعبة ولسوق عكاظ ، ومركز قريش التجاري اثر هام في جعل اللغة القرشية لغة يقلدها النابغـة وامرؤ القيس وشعراء العرب في شتى بقاعهم .

ان اللهجة القاهرية اليـوم هي التي يقلدها الصعيدي والاسكندراني والاسماعيلي ، ويعتبرها — وهي اللغة الرقيقة المهذبة — اللغة التي يحسن به ان يصطنعها ، وإلا لتعرض للغمز واللمز ، حتى إذا ما عاد الى بلده ، عادت اليه لهجته ، وطريقة تخاطبه مع جيرته وابناء حارته .

بل اننا نحن في سوريا وفي لبنان ، اصطنعنا اللهجة المصرية لغة في كثير من اغانينا واناشيدنا ، لانها تمثل الدولة الأقوى والأغنى .

أفنستكثر على قريش ، وهي من الامة العربية في مـكان الصدارة ، تحج اليها القبائل في مناسبة وغـير مناسبة ، كما يحج السوري الى دمشق ، لاخراج السجل العدلي ، أو لشم الهواء فقط ، وكما يحج ابنـاء العروبة الى القاهرة للدراسة والاطلاع ، أو للتمتع بالأهرام وحديقة الحيوان ويوسف وهبي ، أفنستكثر عليها ان تكون لغتها هي السائدة واللغة المقلدة المحكية؟ واذن فلا غرابة ان يقرأ القرآن الكريم ، وتكون لغـة قريش هي المفضلة في ترتيله والتقيد به ، في نفس الوقت الذي ابيح للقبائل الأخر ، ان تقرأه بلهجاتها الخاصة ، ولكن ايقبلون على لغة قريش في الادب والشعر ، وتخاطبهم معهم ، ويحجمون عنها في تلاوة القرآن ؟ اللهم ان هذا لبعيد .

ثم يقول الدكتور فريحه — « وجل ما يفهم من كلامهم (القدماء) ان اللهجات انحطاط لغوي ص ١٠٢ » يقول هذا غير مفرق بين اللهجات التي اعتبرها القرآن ونزل بها ، وبين الانحطاط اللغوي الذي تعرضت له العربية من جراء اختلاطها بالاعاجم والموالي ، مما لا يمكن بحال ان يعد تطوراً لغوياً او شيئاً من هذا القبيل .

ويدلك على فهم القدمـاء لمعنى اللهجة ، ان الرواة آثروا أول الامر الاخذ عن قريش وقيس وتميم واسد وهذيل وغيرهم ممن كانت مساكنهم في وسط الجزيرة ، الا انه لم يكد ينقضي القرن الرابع الهجري ، حتى ظهر من علمائهم من لم يفرق بين قبيلة واخرى وعدهم جميعاً سواء في جـواز الأخذ عنهم والاحتجاج باقوالهم . وقد عقد ابن جني في الخصائص — فصلاً سماه — (اختلاف اللغات (اللهجات) وكلها حجة .)

ولو فهل الرواة القدماء ما يقوله الدكتور فريحه من تفضيلهم لغة على لغة ولهجة على لهجة ، لأراحونا من عناء كبير ولاقتصروا في اخذهم عن اللغة النموذجية التي اختارها العربي لغة القرآن ، ولما وقعنا في هذه القـواعد والقوانين المستنبطة من لهجات متعددة ، ولما كان لدينا هذا الخضم الزاخر من المترادف ، الذي يشكو منه الدكتور فريحه ، والذي ليس في الحقيقة الا لغات العرب مجتمعة .

ويربط الدكتور بين الفكر واللغة، ويجعل كلا منها مؤثراً في الآخر ، اي متفاعلين ، يستنتج من كل ذلك قصور الفكر العربي ، وعجزه عـن اللحاق بالفكر الاوربي والانساني ، ما دامت اللغة نفسها قاصرة عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون .

الفكر واللغة متفاعلان ، ما في ذلك شك ، ولكن .. الأننا نعيش اليوم وراء الامم ، نجاهد في كل منطقة ويحاربنا الاستعمار في عقر دارنا ، بجامعاته ومعاهده ، بعلومه ولغاته ، بتشويقنا إلى زيارة بلدانه والتعلم فيها ، ويحمل بعض حكامنا ووزرائنا على اصدار قرار في مطلع هذا القرن (في مصر) بأن اللغة العربية لا تصلح لغة للمدارس ، فتثور الجمعية المصرية ، وترغم ناظر المعارف على العودة عن قراره ؟ الأن فلسطين احتلها اليهود والفرنسيين يفرنسون المغرب ، والامريكان يبذلون الدولارات ، ألهذا كله تضعف نفوسنا وتهن عزائمنا ، فنشك في لغة حملت العلم والحضارة ردحاً من الزمن ، ونتهم فكراً كان خلاقاً بالعجز والقصور .

« ان تعليم اللغة وتعلمها ، وبخاصة بتعليم ما يكسب ذوقها ويلهم فنها ، انما هو امر وجداني صرف ، ونفسي محض ، يستغني فيه الدارس بالاقبال والممارسة الفعلية عن القاعدة النظرية والتلقين التعليمي فيختلي ونفسه، ليقرأ ويتحدث ، ويجدد ويلحظ فيتذوق ويكتسب ... وانى له ان يفعل ، وهو يرى هذه اللغة بين هاتيك الغوائل المتاوشة ، والمفزعات المتخطفة ، قـد اصابهـا من وجودنا ومنزلنا بين الامم ما مس الشغاف وهز القلوب ، وزلزل المشاعر ، فلم ترزأ بمباعدة الافواه ومجافاة الالسن ، بـل بعدت عن النفوس وحاربها مدرسوها والقوامون عليها » (١) وهل اكـثر دلالة على ذلك من ان كتاباً كالامثال السائرة ، جمع من روائع الادب العربي ، ما يمكن ان يدخل في التراث الانساني ، يعرض على تلاميـذ الدكتور، فلا ينال عندهم القبول، ولا يعجبهم فيه الابضع قصائد: التمثال — لمحمود طه . الطيارة — لفوزي المعلوف . البحيرة — للامرتين . وبضعة ابيات للمتنبي والباقي فان تلاميذه الاذكياء لا يعرفون سبباً يحمل الاستاذ المقدسي يسلكها في عداد المختارات.يا استاذ لحكيلك الدغري ، ما فيهـا شيء ، وليش المقدسي يسميها مختارات سائرة ما بعرف ص ٢٠٧ . بخ بخ . يا طلاب الدكتور فريحة . لقد جعل منكم استاذكم الفاضل ، نمـاذج لانشاء لغة مستحدثة وهدم لغة عجز الزمن عن هدمها ، لا لسبب إلا لانكم لا تستطيعون فهم العربية الفصحى ، انتم الذين تعرفون عن لغة شكسبير ، وميزات عصره اللغوية ، ما يجهله كثير من ابناء جلدته !

ثم يخرج المؤلف من كتابه الى النتيجة التي ارادها له ، وهي لا تخرج في فحواها عن ترديد للدعوة القديمة التي أطلت برأسها في مطلع هذا القرن ، وهي الدعوة الى العامية ، الا ان المؤلف شعر انه لو دعا الى عامية محضة لحملت دعوته في تضاعيفها ، سر خسرانها وفشلها ، فراح يلف ويدور ، حتى فتح الله عليه ، بدعوته الجديدة ، التي ظن فيها تغييراً وتجديداً ، وان فيها العلاج الشافي لمشكلة هي مشكلة قومية اولاً قبل كل شيء . يقـول في ص ١٨٢ :

ان الحل المرضي للمشكلة اللغوية هو الحل الرابع (د) ، وكان قـد

(١) مقتبسة من نص لامين الخولي في فن القول .

كتب وردت الى المجلة

(وسينقد بعضها في اعداد قادمة)

* شجرة النار بقلم محمد الصباغ – شعر منثور – دار الطباعة المغربية ، تطوان – ٩٠ ص
* ابن فرجينيا تأليف اوين وستر ترجمة الدكتور محمد عوض محمد – دار المعارف بمصر – ٤٦٠ ص
* فن القصة بقلم الدكتور محمد يوسف نجم دراسة – دار بيروت للطباعة والنشر – ١٨٦ ص
* احلام الشباب بقلم فاضل خلف مجموعة قصص – المطبعة المباركية ، بيروت – ١٠٨ ص
* رسالة في الرئاسة والرئيس تأليف اندريه موتتانيون تعريب لويس الحاج – منشورات دار المكشوف – ١٧٨ ص
* ديوان جميل صدقي الزهاوي باشراف الدكتور محمد يوسف نجم الجزء الاول – دار مصر للطباعة – ٣٣٨ ص
* ليل الشتاء بقلم يوسف حبشي الأشقر مجموعة قصص – منشورات دار المكشوف – ١٤٤ ص
* وحي الحق بقلم صقر القاسمي ديوان شعر – مطبعة كوستاتسوماس وشركاه – ٢٥٢ ص
* مدحت باشا بقلم صديق الدملوجي دراسة – مطبعة الزمان ، بغداد – ٢٥٨ ص
* ذكريات السودان بقلم الدكتور يوسف نحاس مذكرات رحلة – المطبعة المصرية بالقاهرة – ٨٠ ص
* الاسلام الحي بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي قدم له ونشره رضوان ابراهيم – رابطة الادب الحديث بالقاهرة – ١٢٦ ص
* الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية تأليف جورج شهلا وعبد السميع حربلي وألماس شهلا حنانيا مطابع دار المكشوف ، بيروت – ٥٩٠ ص
* بعد العاصفة بقلم جميل جبر رواية – دار الروائع – ٢٠٠ ص
* في الثقافة المصرية بقلم محمود العالم وعبد العظيم انيس دراسات – دار الفكر الجديد ، بيروت – ٢٠٤ ص
* احمد زكي ابو شادي بقلم محمد عبد الفتاح ابراهيم دراسة – مطبعة ومكتبة الشعب ، القاهرة – ٦٠ ص
* قصص من الادب الانكليزي المعاصر ترجمة جبرا ابراهيم جبرا – منشورات دار السعيدي – ١٠٢ ص
* علم النفس التربوي تأليف ارثر جيتس وآخرين ترجمة ابراهيم حافظ وآخرين – مكتبة النهضة المصرية – ٢٤٨ ص
* المملكة العربية السعودية تأليف كارل تويتشل ترجمة شكيب الاموي – مكتبة البابي الحلبي بالقاهرة – ٣١٦ ص
* كويت وكويتيون بقلم راسم رشدي دراسة – مطبعة الرهبانية اللبنانية ، بيروت – ١٣٠ ص

استبعد ثلاثة حلول من بينها (الرجوع الى الفصحى) وهو الاعتراف بلهجة موحدة هي لغة المتأدبين في جميع الاقطار العربية . وقد ابديت لك في هذا الفصل اننا نبغي عن وضع لغة لان لدينا لغة موحدة هي هذه اللغة التي يسرتها الحياة وبسطها الاستعمال هي اللغة التي نولد بها ، وبها نعبر عن الحياة) ص ١٨٢ .

انتهى كلام الدكتور – الا ان المشكلة ما زالت قائمة ، وستظل كذلك ما دام العرب متأخرين في السياسة في الاجتماع وفي الاقتصاد ، ما دامت نسبة الثقافة في بعض الاقطار ١ – ٢ في المائة ، وانه ليخيل الي ان الدكتور اوقع نفسه في تناقض ظاهر ، فهو مع اعترافه بأن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وانها كائن حي متطور ، لا يد للقوانين والحكومات فيها ، يدعو الى تبني فكرته وارتضاء رأيه حلا للمشكلة ، بفرض لغة المثقفين من ابناء الامة العربية في جميع البقاع والعمل على اتخاذها لغة الدولة ولغة الادباء ، وبالتالي لغة الحياة . ولكي ينجح مشروعه هذا يجب في رأيه ان تتوفر الشروط الاساسية التالية :

ا) ان يكون لها ادب

ب) ان تكتب بالحرف اللاتيني

حـ) ان تضبط احكامها الصرفية والنحوية والصوتية

ء) ان يقبل بها العرب

ومعاذ الله ان اتهم الدكتور فأقول : انه جاد في قوله ، او انه مؤمن كل الايمان بهذا المبدأ والا لما عاب على القدماء ضبطهم اللغة العربية بأحكام الصرف والنحو والصوت ، فاللغة كائن حي نام متطور ، يجب ان لا تقيد بل تترك على عواهنها ، ولو كان مؤمناً ايماناً جدياً بعملية الفكرة ، لكان اول من استن لها طريقاً ، وعبد لها سبيلاً ، فيصيب بذلك عصفورين بحجر واحد ، حل مشكلة اللغة العربية ، اولاً ونسبة اللغة الجديدة اليه ، فنقول: لغة فريحية ، او لغة أنيسية او ننسبها الى المعهد الذي يدرس فيه الدكتور فنقول لغة امريكية بعد الحذف .

اما ان يقبل بها العرب او يرفضوها فذلك من شأنهم انفسهم ، واني لأطمئنه سلفاً الى ان العرب في محنتهم الحاضرة سينظرون الى اللغة الفصحى ، على انها سبيل وحدتهم ، ومناط اجتماعهم ، فمن طريقها يتم التفاهم ، بين المصري والعراقي والسعودي والجزائري ، بين امم تنظر الى الفصحى نظرة الاعزاز والاعجاب والتقديس ، ويتمنى كل فرد من افرادها اتقانها وايجاد الحلول العملية لمشاكلها ، فالى ان يتم الاتحاد العربي ، فيخرج اليهود من فلسطين ، والفرنسيون من شمالي المغرب ، والانجليز من محمياته العديدة الكثيرة ، والغرب جميعه من قلوبنا وعقولنا ، والى ان تنصهر الامة العربية في دولة واحدة ، تكون اللهجة الموحدة المفهومة لدى الجميع قد وقفت على قدميها ، وتكون الحلول المنطقية العملية قد وجدت سبيلها الى دنيا العرب ، في جميع النواحي والاتجاهات . حينئذ سيعجب الدكتور فريحة وغيره من دعاة العامية ان لا وجود لتلك المشكلة اطلاقاً . وان اللغة المحكية اصبحت قريبة من اللغة الفصحى وان الدولة ، هي التي ستكون السلطة العليا التي اشار اليها المؤلف في كتابه ، وإن غداً لناظره قريب .

حلب

بدر الدين الحاضري

ليسانس آداب من جامعة فؤاد

دموع للبيع ...

قصة

بقلم الآنسة سميرة عزام

لا اعرف كيف تهيأ لخزنة ان تكون نادبة موتى وماشطة عرائس في آن واحد . ولكنني سمعت عنها الكثير من امي وصديقاتها قبل ان اتيح لي ان اراها لاول مرة حين مات جار لنا . كان انساناً امتصته العلل قبل ان يبلغ الخمسين ، لذا لم تكن وفاته مفاجأة حين نادت احدى جارتنا على امي وقالت غير حزينة : - « حوالينا ولا علينا يا ام حسن .. فلان اعطاك عمره .. »

وثار فيّ احساس بانني سأقضي يوماً ملوناً عنيف الاثارات ، ولم اكره هذا ، فهذه فرصة انتهز بها جوار آل الميت لنا ، فأتسلل مع صبيان الحارة وبناتها بفضول كبير لنتأمل وجه المائت الشمعي ، ونرى كيف تبكيه زوجه وبناته ، وكيف تصفق النوادب تصفيقاً موقعاً وهن يمددن اقوالاً محفوظة .

ووضعت يدي في يد صديقة صغيرة ، واستطعنا معاً ان نتسلل من بين الارجل لنقف غير بعيد من الباب حيث كان اطفال كثيرون جاؤوا مثلنا يتعرفون على الموت ويلهون الاثارات . ولم يتفرقوا الا حين نحتهم قبضة كبيرة كانت قبضة خزنة التي وقفت بقامتها الطويلة العريضة فسدت الباب ، وفي اقل من لحظة لبست وجهاً منفعلا ، ومدت اصابعها فحلت جديلتيها واخرجت من جيبها عصابة سوداء شدت بها جبهتها ، ثم اطلقت صرخة منكرة انقبض لها قلبي الصغير ، وشقت بعدها طريقها بين النسوة الى حيث قام في الزاوية اناء بهنيل مسيح مسحت بمائه وجهها ويديها ، فبدا كوجوه المساخر التي يعلقها الباعة في المواسم ، وعادت فوقفت فوق رأس المائت ، واطلقت صيحة اخرى وراحت تضرب صدرها بقسوة وعنف وتدير لسانها بكلام موقع تردده النسوة بعدها ، وقد سحت من عيونهن دموع غزيرة .. فكأن خزنة لا تندب بصراخها ذلك الميت وحده بل تبكي موتى البلدة واحداً واحداً ، تحرك في هذه حسرتها على زوج وفي تلك على ابن او اخ .. فلا تعود تدري مَن مِنَ النسوة أمّ المائت او زوجه او اخته .. فاذا ما فترن بعد ان يأخذ منهن الجهد قامت خزنة تعدد عداً خاصاً حزيناً تتبعه بصرخة فظيعة ، فاذا الدموع تنفجر والنشيج يشتد واللوعة تقوى ، وخزنة في هذا كله مركز الثقل ، لسان لا يكل وصوت كصوت البوم وقدرة على اصطناع الاسى غريبة ، فبقدر الجهد يكون الثواب ، واثابة خزنة على حزنها العظيم لا يكون بغير مبلغ يحرك فيها رصيداً من اللوعة لا ينفد قط ..

وما ازال اذكر كيف قامت خزنة حين اتى الرجال يحملون المائت الى نعشه الخشبي ترجوهم ان يترفقوا بالغالي وان يشفقوا فلا يعجلوا في قطع صلاته بهذه الدنيا حتى اذا دفعها رجل ضاق بثرثرتها عنه وحمل ورفاقه المائت عنوة ، وارتفعت المناديل السوداء مودعة وتقاطرت تواصي النسوة ، فهذه تحمله سلاماً للزوج وتلك للوالدة .. قامت خزنة تملأ الحي زعيقاً تميز بين عشرات الصيحات حتى اذا ابتعد الموكب ومشى المشيعون وئيداً بالنعش الذي يتراقص على خشبته طربوش الفقيد ، وآن للنساء ان يسترحن قليلا من هذا الحزن الذي اخذن به نفوسهن ودعين الى مائدة قامت في احدى الغرف يصبن منها بعض الطعام ، كانت خزنة اسبقهن الى غسل وجهها ورفع كمها وحشو فمها الكبير بكل ما تصل اليه يدها .. وما فاتني ان ألحظ، وانا بين الصغار المتسللين ، كيف كانت تدس شيئاً في صدرها حتى اذا احست ان هناك من تلاحظها ابتسمت باعياء وقالت :

- بعض شيء تأكله بني مسعودة . فقد نزل علي الخبر قبل ان اعد لها ما تأكله ... واكل طعام العزاء بعد ، ثواب !

يومها عرفت ان خزنة ليست امرأة كالنساء .. وانها ضرورة الموت قبل المائت ، ولم انس قط فمها الكبير وقبضتها المخيفة ، وشعرها الجعد المسترسل ، فقد كنت كلما سمعت بانسان يموت اسمي ورفيقتي الى بيته ، لا يدفعني الا فضولي في ان اري شيئاً مثيراً اتحدث به الى امي ان لم تكن قد سمعت هي ايضاً ، فيصرفني منظر خزنة عن وجه المائت وتظل عيناي في حركة دائبة اتأمل يدها وهي تنتقل من صدرها الى وجهها الى رأسها في ضربات عنيفة تبدو لي مع هذا الكلام الملحن الذي تقوله ايقاعاً خاصاً يغور جراح الاهل ويحسس الوافدين بالحسرة ..

ومرت مدة قبل ان يتاح لي ان اشهد عرساً ، فأرى خزنة واكذب عيني .. الشعر الجعد الاسود نفسه ولكنه مسرح مزين بالمنثور .. والوجه القبيح ذاته ولكن المساحيق جعلت منه وجهاً لا يشبه الوجه المصبوغ بالنيل ، وبدت لي عيناها اكثر اتساعاً بذاك الكحل الذي احاطتها به، وكانت يداها مثقلتين بالاساور (من قال إن تجارة الموت غير رابحة ؟) وكان فمها ينفتح على قهقهات ولا ينطبق الا نصف انطباقة حين تدير قطعة لبان كبيرة بين اسنانها الصفراء.

وعرفت يومها ان لخزنة مع العرائس كما مع الموتى شأناً ، فمهمتها تبدأ مع صبيحة يوم العرس ، تصقل العروس بعقود السكر وتزجج حاجبيها وهي تعرفها همساً - او بكلام تخاله همساً - بواجباتها الجنسية ، فاذا احمر وجه الفتاة حياء قامت هذه تسخر منها بضحك مغموز ، وتطمئنها الى ان ليلتين او ثلاثاً تجعل منها استاذة ، وهي الكفيلة بهذا اذا حرصت على ان تستعمل لجسمها الصابون المعطر ولرأسها دهوناً تستحضرها من العطار او تشتريها من خزنة نفسها ، فاذا ما جاء المساء وتوافدت النسوة معطرات مشكلات وتحلقن حول العروس الجالسة الى التخت وان قامت زغاريد خزنة تمزق سماء البلدة ، وكانت لها في حلقة الرقص مواقف مشهودة ، تدور وهي تمازح النسوة بنكات بذيئة تثير ضحكاتهن ، فاذا ما جاء العريس ليأخذ عروسه بين غمزات النساء ، وقامت خزنة بزفها الى باب الغرفة ، ظل لها عليها حق الناطور ولم افهم بسهولة لماذا تحرص خزنة على الوقوف بباب العروسين تنتظر بفضول وعصبية شيئاً ، فان جاءت الاشارة بعد انتظار قصير او طويل اطلقت زغرودة مشهودة ينتظرها اهل العروس بنافد صبر. فان سمعوها فتل الرجال شنباتهم وأعلوا من اطرافها وقامت النسوة قومة واحدة فاذا كل فم زغرودة تنتشي فيها الكبرياء فتنصرف خزنة راضية العين والنفس والفم والجيب يلاحقها دعاء النسوة بأن تفرح من مسعودة .

وفرحة مسعودة شيء تتطلع له خزنة وتحشد من اجله الاساور والذخيرة ، فمن لها غير هذه البنية يؤول اليها كل مالمته من المآتم والافراح ؟ ولم تشأ السماء ان تفرح خزنة .

كان صيفاً لا انساه تطوعت جراثيم التيفوئيد لتجعل منه موسماً لخزنــة ولا كالمواسم ، كانت لا تطلع شمس بلا مائت وقيل بان خزنة بكت في يوم واحد ثلاثة زبائن ..

ولم يرحم التيفوئيد مسعودة حين تسلل الى امعائها كما لم يشفق عليهـــا الموت حين آثرها رغم نذور خزنة .

واستيقظ الناس في بلدتي على نبأ وفاة الصغيرة وبدأ فضولهم حيث انتهت هذه المسكينة كيف ستبكي خزنة ابنتها بكاء لم تعرفه البواكي ماذا ستعدد لها بلوعة الخسران .. اي مأتم ستقوم له الحارة وتقعد ؟

ولم استطع ان اغالب فضولي ورثائي معاً ، فحملت نفسي اليها ، قصدتها مع افواج النساء اللواتي انطلقن يرددن لها بعض دينها ...

لم تكن الغرفة الوحيدة لتتسع لاكثر من عشرين جلسن وظلت الباقيات واقفات عند الباب . وتتطلعت من فوق الرؤوس الى وجه خزنة ابحث عنه بعد ان افتقدت صوتها . ولدهشتي لم اجدها تبكي .. كانت ساكتة واجمة وهي تفترش الارض في ركن الغرفة .. لم تعصب رأسها بالسواد ولم تصبغ وجهها ولم تلطم خداً او تمزق ثوباً ...

لاول مرة رأيتني امام وجه انسانة لا تفتعل الاحساس افتعالا .. كان وجه متألم تكاد تموت من المها ..

كآبة خرساء .. كآبة لا يعرفها الا الذين يحسون الحزن ويحسون الفجيعة . وحاول بعض النسوة ان يبكين ، ان يصحن فنظرت اليهن بذهول وكانها تستنكر هذه التظاهرات فسكتن وقد اخذهن الاستنكار والعجب ؛ وحين اتى الناس ليحملوا جسد الصغيرة ، جسد المخـلوقة الوحيدة التي اتاحت لها ان تمارس احساساتها بلا نفاق ، لم تصرخ خزنة ولم تشق ثوبها . بل نظرت اليهم بعيون تائهة ومشت وراءهم كالذاهلة وهم يقصدون المسجد فالجبانة .. وهناك لم تفعل اكثر من ان القت رأسها الى التراب الذي استودع الجسد الصغير واراحته ساعات لا يعلم الله مداها ..

وعاد الناس مـــن المأتم ليقولوا في خزنة اشياء .. بعضهم قال انها جنت حتى بدت كالعقلاء ، وقالوا لم يعد لديها دموع تبكي بها بعد ان استنفدتها المآتم كما لم يعدم المأتم من قال « خزنة لم تبك لانها لم تقبض . ! ! »

وقليلون قليلون هم الذين ادركوا ان خزنة لم تعرف الحزن الا حين لم يعد لديها دموع ، ولم تعد تاجرة .

سميرة عزام

انطلاق

للشاعرة عزيزة هارون

•

وهذي القيود بـدربي وأي قيــود لقلبي

وقلبي يضمّ الوجود

وهذا الهوى كانطلاق العبير يثير

يسير ويأبى الركود

أطير بهذا الفضاء الرحيب وأيّ حبيب يطير معي

ويهتــف في مسمعي ان اعــود

أعود الى أين يا صاحبي لأي مكان

وليس لقلبي زمان = وليس لروحي حدود

أعود الى الأرض لا لن أعــود

وماذا يهمّك من عودتي وأنت رفيقي في رحلتي

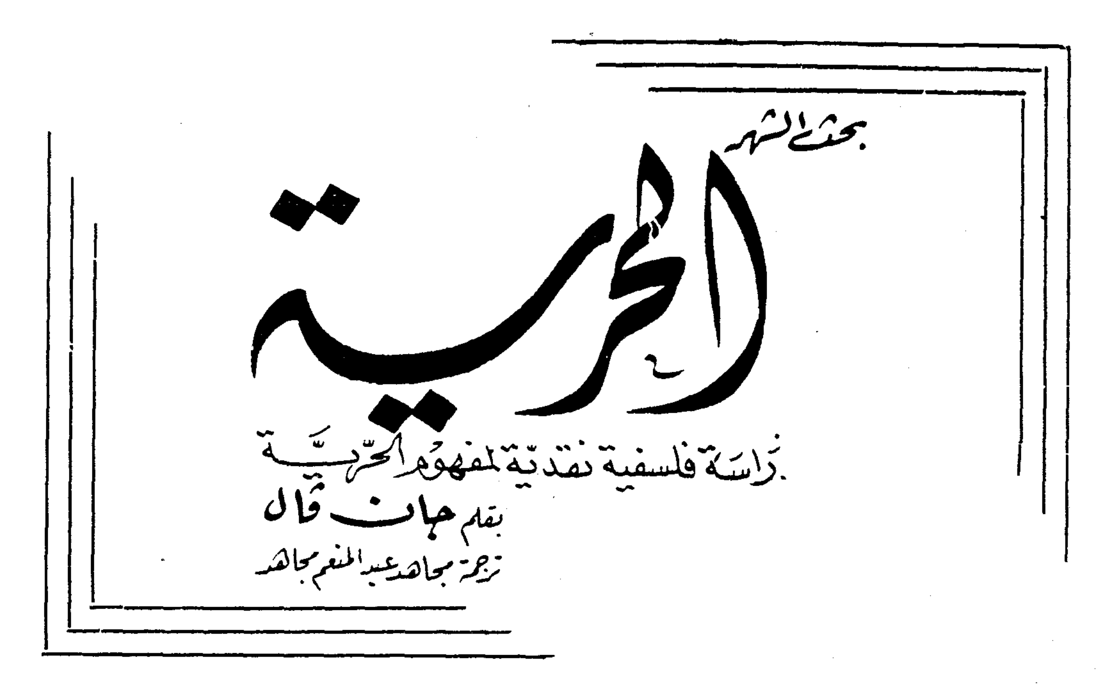
رأيت السموات في وحدتي وهيأت نفسي لسر الخلود

وحـلمي اني أراه وابصر فيــه الالـه

تنـــوّر قلبي رؤاه فتصبح روحي صلاه

وانسى الوجود

دمشق **عزيزة**



إن اول ما ظهر في تاريخ الانسان * - إذا ما نظرنا الى الامر في ضوء مشكلة الحرية والضرورة - هو فكرة الضرورة أو القدر التي تكوّن مضمون التراجيديا اليونانية . ولكن ، يمكننا ان نتساءل عما اذا كانت فكرة الضرورة قد سبقتها فكرة الحرية . كيف يشعر الانسان - كعائق - بالقدرية المعلقة في عنقه ان لم يشعر ايضاً في داخله برغبة في الحرية ، إن لم يكن في الحرية نفسها ؟ ومع هذا ، طبقاً لما قاله شعراء التراجيديا الاغريقيون ، فان الافعال التي ظهرت على انها من نتاج الارادة الانسانية ، قد دبرتها - في الحقيقة - قوة إلهية .

وهذه مشكلة القدرية Fatalism اكثر من كونها مشكلة الجبرية Determinism ، لان ما هو قدري عبارة عن علة مطلقة تفرض إرادتها الكلية على الانسان . وعلى العكس نجد ان ما هو جبري إن هو إلا كل فعل انساني تحدده الحادثات الجزئية وهذه الحادثات يمكن ان تكون سيكولوجية او فسيولوجية . فالجبري يمكن ان يقيم توكيده على اعتبارات مستمدة من الفيزيقا كالمبدأ القائل بأن لا شيء في الانسان يقبل التأويل الا في حدود المعطيات الخارجية External data ، او في حدود الاقتصاد كما فعل كارل ماركس ، أو في حدود الايديولوجية كما فعل اوغست كونت عندما قال بأن العالم تدبره الافكار . ولكن - والامر كما قال برجسون - كل صيغة للجبرية قد قامت على اساس الجبرية السيكولوجية ما لم يكن الذي يؤمن بالجبرية يبني نظريته على اساس مذهب ما فوق الظاهرية Epiphenomenalism ، ويقول بأن الظاهرة السيكولوجية ليس لها اي تأثير على الظاهرة الفيزيقية .

ولهذا لن نهتم بمناقشة الاختلافات المتباينة للجبرية اكثر من مناقشتنا للجبرية السيكولوجية ، فقد انتقدت الاراء التي قيلت عنها نقداً مريراً ، قام بهذا بوترو Boutroux وجيمس وارد James Ward وبرجسون . إن الجبرية تفترض قابلية النتائج لكل شيء في العالم ، ولا تدخل في حسابها الافتراضات المسبقة للعالم نفسه ، تلك التي تدخلت في تكوين قوانينه ، ولذا كان من غير الضروري - لكي نبقي على الحرية - ان نرجع الى الاكتشافات الحديثة في الفيزيقا ، وان نحيي مذهب ابيقور ولوكرتيس Lucretius اللذين قرنا حركات الارادة الانسانية بالذرات .

وهكذا يتبين لنا ان كل ما تبقي لكي نناقشه إن هو إلا الجبرية السيكولوجية ، كما تتبدى مثلاً عند هوبز ومل Mill وتين Taine وسبنسر . وسوف نؤجل هذه المناقشة قليلاً حتى ننظر في معنى الحرية .

يمكننا أن نقول بأن هناك أساساً مشتركاً للتحديدات والتصورات الممكنة عن الحرية ، فمن حرية معتبرة على انها تحديد متفق مع العقل ، إلى حرية معتبرة كالصدفة المحضة . فنجد المفهوم السقراطي والرواقي Stoic في جانب ، والمفهوم الابيقوري Epicurean في الجانب الآخر . ولا توجد الحرية في واحد من هذين المذهبين فحسب ، ولكنها توجد ايضاً بينهما أو خارجاً عنهما . وهذا ما سوف نستبينه .

يعرّف سقراط الفضيلة بأنها العلم ، وهذا يعني ان الشر جهل ، أي أنه إذا استطاع فرد ما أن يرى بوضوح ما يجب ان يفعله ، فيجب ان يفعله بالضرورة ، لأن هذا هو ضغط فكرة الخير التي لا نستطيع أن نعرفها ما لم نزاولها بالتطابق معها . وهذه أيضاً هي عين نظرية افلاطون ، على الأقل في محاوراته الأولى - لأنه يذكر في محاورة « الجمهورية » ان الانسان يختار قدره الخاص ، والانسان يتحلل من ربقة الله على أساس أنه يأخذ على عاتقه مسئولية أخطائه .

وهذه الفكرة القائلة بتماثل الحرية مع تصميم الذات العام

* هذا هو الفصل الثامن من كتاب : The Philosopher's Way الذي كتبه الاستاذ جان قال ، الفيلسوف الوجودي الكبير ، والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات اهداها الى تلامذته من السوربون .
Oxford University Press - New york - 1948

طبقاً للعقل ، نجدها عند كلٍ من الرواقيين وعنـــد سبينوزا وهجل .

وفي الحقيقة ، يمكننا ان نعتبر هذه النظرية عن الحريـــة إنكاراً للحرية .

فاذن ، إذا نحن انتقلنا إلى التيار الآخر ، نجد نظريـــة الابيقوريين الذين قـــالوا بأن الحرية تشبه تساقط الذرات في أمكنة ولحظات غير معينة ، وذلك على اساس الخط الطويل الذي افترضوه والذي يفضي الى الخلاء اللامتناهي ، وهـــذا – كما هو بَيّن – مذهب الصدفة العمياء . ويمكننا أن نقارنه بما يسمى بحرية اللامبالاة Freedom of indifference التي يختـــار الانسان – على أساسها – دون أي باعث – بين فعلـــين . ولكن هذه الفكرة عن الحرية والتي أشير اليها خلال فترات من العصور الوسطى والتي وُجدَ عنها شيء كثير عند بوسوية Bossuet ، هذه الفكرة غير مقنعة بدهيّاً ، لأننـا لا نتصرف بهذه الطريقة إلا في الأحداث ذات الأهمية الثانويـة ، ومن الصعب أن نجد دائماً باعثاً لفعل عن آخر . ويمكننـا أيضاً أن نقارن بين هاتين النظريتين وبـين نظرية رينوفييه Renouvier الذي يقول بأن الانسان يمكنه أن يبدأ سلسلتين من الاحداث دون ما شروط محددة مسبّقاً . ولكن نظريـــة رينوفييه تفترض لا استمرارية في الزمان تكون موضع تساؤلنا .

ومن الواضح ان النظرية الأبيقورية عن الحرية وكذلك الفلسفات التي تتبع نفس التيار هي نظرية عن الصدفة . ونجد تأكيدات لنظرية الصدفة لدى فلاسفة الذرة . فلوكريتس يؤكد لا تجددية اللحظات والامكنة التي تترسب فيها الذرات في دوراتها لكي تتلاقى .

ولكن فلاسفة الذرة لا يتبعون تحليلاً دقيقاً لمفهوم الصدفة . ربما كان توكيد الصدفة يمنع من تحليلها ، تحليلها يمنع من توكيدها .

وهناك تحليلان من خير التحليلات لمذهب الصدفة يمكن ان نجدهمـــا عند ارسطو وعند كورنو Cournot ، ولن ندقق في التمييزات التي قام بها أرسطو في هذه النقطة ، وهو يحدد الصدفة على أنها نتاج للعلل الميكانيكية الخاصة رغماً عن أن لها مظهراً يبدو فيه القصد والارادة . وإنا لنتحدث عن الصدفة وعن الحظ الحسن والسيء ، وعن شيء يحدث يكون معلولاً لعلل كافية دون ان يكون لها نهاية بالرغم من أنها تبدو وكأنها مقصودة . ويرجع كورنو فكرة الصدفة إلى أنهاتقابل سلسلتين مستقلتين من العلل ، وكل من هاتين السلسلتين محددة بل ان تلاقيهما ذاته محـــدد ، إلا أن مظهرهما الكيفي يبدو وكأنه شيء جديد يعـــلو على السلسلتين . فاذا أنا قابلت شخصا في الطريق ، فان سيري وسيره محددان ، وعلى هذا تكون المقابلة محددة أيضاً ويكون التقابل حدثاً ذا كيف جديد .

وقد كان لنظرية الاحتمال تأثير على تطور نظرية الصدفـــة في القرن التاسع عشر ، وعلينـــا أن نرجع إلى بسكال وليبنتز وأصدقائهما وتلامذتهما لنتبين مصدر هذه النظرية . ولكن تأثيرها لم يستثمر إلا في منتصف ونهاية القرن التاسع عشر ، وقد استنتج بعض العلماء أن القوانين التي نكتشفها في الطبيعة تنشأ نتيجة لتقابل عدد كبير جـــداً من حركات الذرات دون أي قانون . ونجد هذه الفكرة عند بوانكاريه Poincaré ، وكذلك في فلسفة بوترو . ويمكننا أن نجد في التطور الحديث للعلوم الفيزيقية تطوراً متشابهاً مع هذه التصورات والذي يبين نظام الطبيعة على انه نتيجة لعدم وجـــود أنظمة متقابلة ومتوازنة .

وفي الوقت الذي طوّر فيـــه بوترو نظريته ، نجـــد ان الفيلسوف الأمريكي بيرس Peirce كون منهجـــاً أطلق عليه عدة أسماء ، منهـــا Zychism ، ويعني به أن عنصر الصدفة موجود في باطن الأشياء . وقد قدم هذه النظرية – في شكل مغاير – بلود Blood وأخيراً جيمس James الذي قال بـــأن الحرية لن تكون ممكنة في العالم من غير عنصر الصدفة . وكما ذكرنا من قبل ، يمكننا ان نؤكد وجود الصدفـــة ، ولكن اذا نحن حللناها فانها تتلاشى ، فلأن نشرحها هو ان نلاشيها ، وإذن فعلينا أن نختار بين تأكيد الصدفة وبين تحليلها .

بعد ان رأينا هاتين النظريتين عن الحرية: نظرية الرواقيين من جانب، ونظرية الأبيقوريين من الجانب الآخر ، لننظر – باختصار – في ثلاثـــة فلاسفة كونوا افكاراً يمكن ان نجد فيها عناصر مختلفـــة لاتنقض وهم : ديكارت وليبنتز وكانت .

وقد شغف ديكارت بهذه المشكلة ، أولاً لأنه يؤكد في عزم هَوِيّة Identity الارداة مع الحرية ، وثانياً لأن هنـــاك صفحات في كتاباته يؤكد فيها اللاتحددية Indeterminacy التامة للحرية ، وهو يحسسنا بهوية الجبرية مع الحريـــة عن طريق العقل على الطريقة السقراطية والرواقية . لقد كان مدركاً تماماً للمعاني المختلفة التي أعطاها للفظ « الحرية » ورأى بوضوح أن هناك عدة معاني تندرج تحتها الحرية ، فمن حرية اللامبالاة التي هي احط صورة للحرية لدى الانسان ، الى حريـة الفعل

---

١ يمكننا ان نختار فولتير على انه مثال للفيلسوف الذي تذبذب في آرائه عن الحرية . فأحيانا يؤكد الحرية – وهي حرية مغايرة ومحددة . درجتها القصوى هي الطاعة الضرورية العمياء لاملاءات العقل (متفقاً في هذا مع تعاليم ديكارت وليبنتز) لقد قال فولتير بأن الحرية التي تفهم هكذا هي « حياة للحياة » ، وقال بأن أي منهج نعتنقه ، فلا بد وان نتصرف دائماً كما لو كنا احراراً .

ولكن في النهاية يبدو انه انكر الحرية ، فهو يقول بأن تصرفاتنا حرة ، ولكن إرادتنا ليست حرة ، ويذهب الى ابعد من هذا فيقول عن الجبرية : « من التناقض ان يكون ما يجب ان يكون يمكن الا يكون » ، و « المذهب المتناقض مع مذهب الضرورة لهو مذهب باطل absurd » . فالحرية اذن تبدو لهعلى انها المعلول المعروف لعلة غير معروفة. من هذه الركيزة وجد نفسه مضطراً إلى ان يكتب ما كتب رغماً عن انه يعرف ان القاضي الذي عليه ان يحكم عليه ، مضطر الى ان يحكم عليه . ولم يمنعه هذا من ان يعتقد انه مصيب والقاضي مخطيء ، ولم يمنعه ايضاً من تأكيد قيمة الحرية السياسية والتسامح . وعند معظم الفلاسفة في القرن الثامن عشر نجد – في نفس الوقت – انـــكار الحرية الميتافيزيقية والسيكولوجية وتأكيد الحرية السياسية .

الذي ينبثق مما نسميه النور الفطري للوعي. ويجب أن نلاحظ أن ما هو أحط صورة للحرية لدى الانسان ليس هو أحط صور الحرية، لان الله يحدد نفسه دون ما باعث من غير ان يعبأ بالحقائق الخارجية لانه هو المنبع نفسه الحر لهذه الحقائق، ولا يمكن أن يتردد بأي طريقة.

وقد حاول ليبنتز أن يتخلص من مذهب وحدة الوجود Pantheism والجبرية عند سبينوزا، فحدد الحرية على انها العفوية الموجودة عند الكائن العاقل. وهو يقول إن البواعث تنحرف دون ما قصد، ولكن يبدو أن كل مجهوداته كانت عبثاً، فطبقاً لمذهبه في الذرات الروحية Monadology فان كل شيء يحدث في الذرة الروحية يحدده ماضي الذرة، ومثل هذا المذهب لا يترك لنا املاً كبيراً في امكانية الحرية.

أما كانت، فان الحل الذي يذكره يذكّرنا الى حد كبير في جزء منه بالحل الذي قدمه افلاطون في جمهوريته. وركيزة «كانت» هي مقولة العلية ومفادها ان كل افعالنا محددة. والزمان والمكان عنده لا يفسحان مكاناً للاشياء في ذاتها Things - in - themselves. ان الزمان قالب كونته ملكة الفهم Understanding لكي تنظم التجربة. وان صوت الواجب الذي نسمعه من انفسنا يحدثنا بأننا احرار، لان قراره يخاطب كائناً يستطيع ان يطيع اولا يطيع. والآن، ها نحن أولاء نعرف ان الاشياء في ذاتها خارج الزمان، وأن كلامنا شيء من ذاته Thing - in - itself، ولهذا لا توجد اي بواعث محددة لاي من افعالنا حيث انها افعال لشيء في ذاته. والحقيقة عند «كانت» هي ان فعلنا الحالي كأفعالنا الماضية انعكاس، ويمكننا ان نقول بانه ترديد وترجيع للفعل الذي كونا به وجودنا خارج الزمان، الزمان الذي اخترنا به وجودنا في اختيار لا متحدد ولا متعين. وهكذا نرى ان كانت وقد الغى الحرية عن عالم الظواهر phenomena أبقى الحرية لعالم الاشياء في ذاتها. ومن هذا نرى أن سلوك المجرم مثلاً يؤول في الظاهر بأفعاله السابقة وبيئته وبتعليمه، ولكن هذا السلوك يؤول في الحقيقة في الفعل الذي يختار به طبيعته المتعلقة.

ويمكن للانسان أن يرى بسهولة الصعوبات القائمة في مثل هذه النظريه، رغماً عن مظهرها الرائع. فكيف يتسنى للانسان ان يفسر التغيرات في الشخصية الانسانية؟ علينا ان نعود الى الفكرة التي قدمها بعض الصوفية وهي ان التغيرات تحدث اثناء الحياة الابدية. ولكن الاعتراض الاكثر اهمية هو اننا لا نملك تجربة الحرية في حياتنا. إنه حل أكثر استدلالاً، قيم بالنسبة لحياتنا الابدية غير المعروفة لنا.

ولهذا لم تكن اي من هذه النظريات الثلاث كافية تماماً: فليبنتز يستبعد الحرية من الناحية العملية ويؤيدها من الناحية النظرية، ولم يعطنا كانت الحرية في هذا العالم، ويتصور ديكارت الحرية القصوى المطلقة محددة في ضوء العقل. ورغماً عن ان لهذه النظريات بعض الاهمية، إلا أنها تصف جزءاً من الواقع، وحتى نظرية كانت يمكن أن تتصور على أنها رمز للحقيقة الفعلية في تجربتنا، لهويتنا مع أنفسنا وهي غير معروفة لنا، وترسم كل فعل من أفعالنا. وأغنى هذه النظريات – على ما يبدو – هي نظرية ديكارت. ولقد أشرنا من قبل الى المعاني المختلفة عند ديكارت. فبين المعنيين المتطرفين اللذين أكدناهما يكاد يوجد تدرج للمعاني بالنسبة للحرية مستمر. فمثلاً يوجد الطبع، وأوامر الذات وهذه تميز أبطال الشاعر كورني وهو معاصر لديكارت.

إن التمييز الذي أحدثه كانت بين عالم الظاهرة phenomena والشيء في ذاته noumend (أو things - in - themselves) لا يشار اليه من جانب أتباعه، ويمكننا أن نشير إلى اثنين على وجه الخصوص ونقارن بين مذهبيهما: أولاً هيجل الذي يدرج كل شيء تحت الفكرة التي هي الشيء في ذاته ولذاته، وثانياً رينوفييه الذي يمكن ان يسمى بالظاهري Phenomenalist والذي انكر الأشياء في ذاتها. والتعارض بين هذين الفيلسوفين يرجع إلى الطريقة التي نظر بها كل منهما الى المتناقضات antinomies، فبينما هيجل يقول بأن العالم يمكن أن يعتبر نهائياً ولا نهائياً معاً (وكل من هذين المظهرين يعتبر جانباً من جوانب الحقيقة ثم يتوحدان لا نهائياً في مركب الموضوع synthesis) نجد رينوفييه ينكر قيمة فكرة اللانهاية، فالحرية لا توجد إلا في عالم فيه الاشخاص محدودون، ومن هنا يمكننا أن نتصور الافعال التي تعتبر بداية حقة لسلسلة من الافعال الجديدة.

وهناك مفكر آخر هو فوييه Fouilleé نذكره لان نظريته تبين الحرج الذي وضع فيه كانت الفلاسفة. فالحرية عنده هي ما يسميه بالفكرة القاهرة ideé force وهذا يعني ان الحرية ليست

حقيقة ، ولكن يمكن ان تكون حقيقة اذا اعتقدنا فيها ، انها مصدر الفعل الذي ينبع من إرادتنا في الحرية .

ومن المفهوم ان هناك اذهاناً لا تقنع بالتطور العقلي الذي تصوره هيجل ، ولا بتلك التجليات manifestations التي لا تنقطع للحرية التي اكدها رينوفييه ، ولاستبدال فوييه إرادة الحرية بما نشعر أنه الحقيقة . وهذا هو السبب في انه في الربع الثاني من القرن التاسع عشر — في انجلترا عند جيمس وارد ، وفي فرنسا لدى بوترو — كان هناك تأكيد على عدم توقع قوانين الطبيعة ، بل وحتى قوانين المنطق ، وكذلك في امكانية الافعال الحرة بالنسبة للانسان . وذهب برجسون الى أبعد من هذا في نقد النظريات المألوفة للحرية والجبرية . وقد قادته ملاحظته غن الحياة العقلية الى ان يرفض وجهة نظر رينوفييه الذي كان يؤمن باللاستمرارية discontinuity ، ولم يؤمن برجسون بأن المفهوم الهيجلي يطابق الحقيقة . وقد وجد برجسون ان السبب الذي من اجله قصر كانت الحرية على عالم الاشياء في ذاتها ولاشاها من عالم الظاهرة هو أنه لم يتعمق حقيقة الزمان ، لان الزمان ليس قالباً لملكة الفهم كالمكان المقصود ، وإذا نحن تصورنا الحرية على انها خارج الزمان كما فعل كانت لما كانت هناك حرية ، فهذا تحطيم لها . اذا كانت الحرية توجد على الاطلاق ، فانها توجد في حياتنا الزمانية ، وطبقاً لكلامه نجد ان الحياة هي الزمان اساساً ، الزمان المتعين Concrete — والذي نسميه الديمومة duration — ولذا نجد انفسنا أحراراً .

وعلى هذا الاساس ، ينقد برجسون الجبريين من أمثال تين ومل وسبنسر . وقد ذكرنا من قبل ان كل شكل للجبرية نجده في الجبرية السيكولوجية . والجبرية السيكولوجية مؤسسة على التداعي associationism ، وعلى أساس هذا المذهب ، نجد ان حياتنا الذهنية عبارة عن تتابع اللحظات ، كل منها معلول للعلل السابقة ، وتكون هي علة للمعلولات اللاحقة . وزيادة على ذلك ، فانه في كل من هذه اللحظات يمكن ان يحلل الذهن الى بواعثه المختلفه ، حتى اننا اذا عرفنا البواعث في اية لحظة من حياتنا أمكننا ان نتنبأ بكل الافعال اللاحقة ، لان الباعث الاقوى دائماً ما يسود .

هذا المفهوم الكل قد عارضه تأكيد برجسون للزمان الذي لم يجعله يضاهي مذهب كانت . ولتنظر معي اذا أنا قلت : ان الباعث الاقوى هو الذي يسود ، كأن اقول ان الرغبة في نزهة في لحظة معينة تفوق رغبة العمل لان الباعث الاول اقوى من الاخير . إذا كان هذا هكذا ، فكيف لي ان اعرف انه حقاً الباعث الاقوى ؟ الانه قد ساد فحسب ؟ اني اعرف مداه بتأثيره فقط ، حتى انه ليمكن القول بأن الباعث الاقوى الذي قد ساد يعني ببساطة ان الباعث الذي قد ساد قد ساد . ولكن يمكننا ان نذهب الى ابعد من هذا ، فهل هذا التحليل لحياتنا العقلية للحظات المنفصلة الى افكار وبواعث مختلفة ، هل يمت هذا الى الحقيقة ؟ لا يوجد مثل هذا الفصل بين لحظة واخرى او فصل الافكار والبواعث عن اللحظات والبواعث في ذهننا . هنا نجد ان كل شيء واحد ولا توجد لحظات ، ولكن هناك تدفق الديمومة ، وهكذا نجد ان الزمان الحقيقي يسمح لنا بتأكيد الحرية .

ويمكن للجبري ان يقول بأننا اذا عرفنا البواعث فيمكننا ان نتنبأ بالسلوك ، ولكن كيف اعرف باخلاص تام البواعث التي في ذهن شخص آخر ؟ على الاقل نجد ان هذه البواعث تدوي مع الشخصية الكلية للانسان في الحقيقة كما قلنا ، وهي ليست منفصلة عن البواعث الاخرى واذا كان علي ان اعرف بواعث غيري فعلي ان ادخل ذاتي داخل ذهنه وان اكون الرجل ذاته . ومع هذا ، فهذا الشخص الآخر نفسه لا يعرف ما سيكون عليه السلوك الذي سيؤديه : إنه يتحقق فيه . وهكذا يتبين اننا لن نعرف ماهية السلوك الذي سنؤديه سواء من خارج او من داخل انفسنا .

بمعنى اخر ، إن المستقبل غير مرسوم ، وغلطة المذهب الجبري الرئيسية هي انه يتصور المستقبل على غرار الماضي ، واذا نحن نظرنا الى الوراء ، الى تصرفاتنا الماضية بأعادة التفكير فيها ، فانها تبدو كما لو كانت محددة . ولكن إذا نحن نظرنا الى ابعد من هذا ، او كما يقول جيمس ، بنظرة تفاؤلية ، لوجدنا اللاتحددية التامة المستقبل .

ومن المؤكد اننا نحاول ان نخفي عن انفسنا هذه اللاتحددية التامة بقولنا إننا نتردد مثلاً بين سلوكين ممكنين ، ولكن هناك تساؤل عن فكرة الامكانية هذه ، انها طريقة لاسقاط الماضي في المستقبل ، وبعد ان نتصرف — على الاقل في القرارات الهامة — يمكننا ان نقول بأنه كان هنالك حلان ممكنان . إن الاختيار بين الامكانيات يتميز بقرارات غير هامة ، به نتأمل الامكانيات قبل التصرف ، ولكن في القرارات الهامة ، نخلق الامكانية بتصرفنا ، وفي الحقيقة انا نخلق أنفسنا بتصرفنا .

والعنصر الجوهري في نظرية برجسون هو هذا التوكيد على المستقبل على انه لا يمكن رسمه — وهو ما يسمى بانطلاقية المستقبل ، وقد اكد ارسطو نقطة مشابهة على اسس منطقية عندما قال بأنه لا توجد توكيدات صادقة او كاذبة عن المستقبل ، فمثلاً اذا انا قلت انه ستكون هناك معركة بحرية غداً ، فهذه الجملة ليست صادقة او كاذبة لان المعركة تتوقف على ارادة الادميرال الذي لم يتخذ قراره بعد . ومن هنا كانت الاحكام عن المستقبل غير صادقة او كاذبة . ولكن برجسون يذهب ابعد من هذا فهو لا يقول بأن هذه الأحكام ليست كاذبة او صادقة فحسب ، ولكن لا يمكن ان يكون ثمة حكم معين ، وبالتالي اي حكم على الاطلاق عن المستقبل ، وان كل حكم تصدره يرجع الى الماضي وبالتالي يلغي الحرية .

ويسمح لنا هذا — وهذا حق — بأن نقول ان الحرية الانسانية مستحيل ان نتحدث عنها ، وفي الحقيقة هنا احد استنتاجات برجسون . اذا نحن حاولنا ان نبرهن على الحرية عن طريق التصور فاننا ننكرها . وهكذا ينكر الحرية انصارها تماماً كما ينكرها معارضوها .

ومع هذا فان برجسون يعطي بعض التحديدات للحرية ، فيقول مثلا بان الفعل يكون حراً اذا كانت علاقته بذاتي تضاهي علاقة العمل الفني بمبدعه ، او عندما ينضج في ذاتي كالثمرة . وبمعنى آخر ، هو يؤكد استمرارية حياتنا العقلية ، ولكن تساؤلاً نلقيه هنا تماماً كالتساؤل الذي القيناه بالنسبة لتصور ليبنتز للحرية، انضاج الفعل هذا،وهذا الـ maturation او ما يسميه برجسون خلق أنفسنا بأنفسنا يمكن ان يفهم على انه نوع من الجبرية ، فيمكن للانسان ان يقول بأن برجسون يبرهن واحداً من توكيداته اكثر من رغبته حقاً في ان يبرهنه ، حيث ان تحديداتـــه للحرية تميل الى ان تلاشي فكرة الحرية .

وإذا بدأنا من برجسون ، لاٰمكننا ان نصوغ نظرية تنكر كلا من الحرية والجبرية ، أو اذا تركت للحرية مكاناً فهي حريـــة مستحيلة التحديد او التصور .

وجدارة برجسون هو أنه فند مذهب التداعي باقتناع تام ليجعلنا نتحقق ان كيفية أفعالنا التي تسمى الحرية يمكن ان يشعر بها من الداخل ولا تتأمل من الخارج ، وهي كيفية ترجع أساساً إلى الزمان ، لهـــذا التدفق للزمان الذي هو المستقبل .

ويجب أن نذكر ايضاً وليم جيمس الذي أغرممنذشبابه بمشكلة الحرية ، رأى الحل اولاً عند رينوفييه ، ثم ثانياً عند برجسون ، واخيراً حاول ان يوفق بين هذين الفيلسوفين بحديثه عن لحظات الديمومة المتقطعة مع بعضهـا كما هو الحال عند رينوفييه ، ولكن لها استمرارية في ذاتهـــا كما هو الحال عند برجسون .

والنظرية الاكثر تأثيراً نجدها عند الفلاسفة المحدثين الذين نظروا في مشكلة الحرية جاعلين ركيزتهم فكر كير كجور Kierkegaard . لقد اصر على حقيقة الامكانية؛فرجوعاً اليه يقول بأن الفكر الهيجلي تنقصه الامكانية ، ومن الطبيعي ان الانسان الذي يعيش في امكانيات فحسب يكون على مستوى ادنى للوجود كما يقول ، ولكن الانسان الذي يحرم مـــن فكرة الامكانية ، لا يزال في مستوى ادنى من هذا .

والحرية عند كير كجورد ضرورية لــكي يكون للفعل الخلقي والديني معناه الكامل . ومفهوم الخطيئة يتضمن اختياراً حراً بين الامكانيات ، يتضمن جذباً نحو الامكانية الشريرة في حالة القلق ، وبالنسبه للفعل الديني ، فرغماً عن انه تحت تأثير الله ، الا انه نقطة التقاء ارادة الانسان المحدودة بأرادة الله .

وقد اكد هيدجر ان الحرية متعلقة بطبيعة الانسان على انه الكائن المرتبط دائماً بالمستقبل والذي يفوق دوماً ذاته كما هي . والوجـــود الانساني هو هـــذا الاسقاط لـــلذات Self — projection .

وهكذا نجد عند هيدجر ـ تماماً كما هو الحال عنـــد برجسون ـ صلة بين الحرية والزمان، ولكننا نجد اننا لانستطيع ان نقول إلا القليل عن الحرية وإلا انها انطلاقيـــة المستقبل المتعارضة مع انغلاقية الماضي . ومن صعوبات الموضوع انـنـا اذا تتبعنا شروحات برجسون، فان فكرة الامكانية تتلاشى . ويجب ان نسأل انفسنا اذا كانت فكرة الحريـــة لا تختفي بدورها ، لان فكرة الامكانية قد تلاشت هي الاخرى . ويجب أن نظل وعندنا فكرة انكار كل من الحرية والضرورة، وعلينا ان نضع أنفسنا خـارج المشكل dilemma الذي عرّى الفكر الفلسفي .

والتوكيد العقلي للحرية هو ـ اساساً ـ السلب negation هو سلب للضرورة ، ولكن ما هي الضرورة ؟ انها بدورهـا سلب ـ سلب للامكانية . ان ما هو ضروري هو ما لا يمكن الا ان يكون كما قال ارسطو . وما هو الممكن ؟ ان مـا هو ممكن على الاقل ما هو ممكن نظرياً ـ بـــدورهوهو فكرة سابقة . ان مفهوم الامكانية يتضمن أن ما قدتم « كان من الممكن الا يتم » ولكن هذا السلب قائم على اساس فرضية ، اذ كيف لنا ان نعرف ان ما قد تم كان من الممكن الا يتم ، ان ما تم كان من الممكن ألا يتم اذا . . . اذا نحن الغيناشرطاً او عدة شروط هي التي جعلت ما تم قد تم ، او مـا سوف يتم ، يتم .

وغالباً ما يؤدي الجهل الى هذا الالغاء . فـــان لم يكن الجهل كان التجريد abstraction ، فلان نجرد هو ان نجهل ، وان نجهل هو ان نجرد .

وهذه الافكار ليست غريبة عن بعض الفلاسفة الميجريين Megarian والرواقيين ويمكن ان توجد ايضاً عنـد سبينوزا او برجسون . ونتيجة هذا انه لا يوجد ـ خـارج العقل او داخله ـ الى المدى الذي يميل فيه العقل أن يفكر موضوعياً ـ لا توجد مقولة الجهة [1] modality تلك التي نستطيع ان نسميها الضرورة. لانه اذا نحن نجحنا تماماً في استبعاد فكرة الامكانية فان نفي هذه الفكرة يكون لا معنى له .

وانا لنلاحظ ايضاً ان الضرورة شيء افتراضي كالامكانية ، فهي تفترض كلمة « اذا » . . . اذا وجد شيء ، فان شيئاً آخر يوجد .

توجد مقولة واحدة فحسب بالنسبة لمقولة الجهـة ، وهي مقولة الحقيقة reality ، ولنقل تماماً انه لمـا كانت هناك مقولة

---

[1] تحتوي مقولة الجهة على مقولات ثلاث هي : الامكانية possibility والحقيقة reality ، والضرورة necessity ، واذا نحن الغينا الامكانية لالغيت مقولة الجهة كلها وهذا ما يحاول جان فال ان يثبته . [المترجم]

واحدة من مقولات الجهة ، فإن مقولة الجهة تلغى ايضا .

وهكذا نجد أحكاماً عن الحقيقة فحسب ، ولكن يشعر الذهن الانساني أحياناً بأنه مضطر (من الصعب ان نفسر هذه النظرية دون تقديم مقولات الجهة المختلفة التي استبعدناها) الى ان يخطط او يشكل الحقيقة بتسميتها بالضرورة ، أو أن يغلفها في ضباب الامكانيات .

ما هي النتائج لمفهوم الحرية ؟ الحرية هي السلب المتصور للسلب المتصور للسلب المتصـــور . واذا استبعدنا السلب الاخير (الامكانية) فان السلب الثـاني (الضرورة) يلغى وكذلك السلب الاول [أي الحرية] .

وهكذا نرى ان الورقة الاخيرة في هذه اللعبة وهي الحرية تختفي بدورها .

ويستطيع الانسان ان يدرك مقدماً الاعتراضات « الممكنة » لمثل هذا الموضوع : اعتراضات ترتكز على نظرة كانتية ، حيث ان مقولات « الجهة » ذاتية ، وفي هذه الحالة ، فان ما قلناه الان ليس فيه جديد ، وكذلك بارتكازنا على هؤلاء الذين قالوا بأن هنـــاك إمكانيات موضوعية يمكن ان تؤكد انها موجودة في طبيعة الاشياء ومـــن غير شك فان الموضوع المفترض لا يقنع ، ولكن ربما كان هذا راجعاً الى طبيعة الانسان من انه لا يتبع الاستدلال ، وانه يريد ان يشيد أبنية متوهمة ، وهو يبسط الامكانيات فوق الحقيقة ، تلك الامكانيات التي يقيمها قبل وبعد الحقيقة التي هي منبعها وهي سلبها والتي ينفيها ويؤكدها ثانية .

ولا يعني هذا ان الانسان ليس لديه شعور وضعي بمـــا هو ممكن (تماماً كما أن هناك شعوراً وضعياً بالضرورة) ، إنه يملك هذا الشعور لان المستقبل يوجد كمستقبل ، ولهذا فهو يختلف عن الحاضر لا رجوعاً الى حقيقة اوزيف الاحكام عن كل منها فحسب ، كما لاحظ ارسطو ، ولكن طبقاً للتكامل البنائي كما لاحظ برجسون . ولكن هذه مغالطة ، مغالطة في إعادة النظر في الامور الماضية وفي التجريد كما قال برجسون ايضاً ، وهي ان ننقل المستقبل الحي المشعور به – المستقبل الخلاق إن استخدمنا تعبير jankelevitch – إلى تصور .

وبمعنى آخر ، الحرية مشكلة لغوية Etymological وليست مشكلـــة نظرية ولكنها شيء ، نضعه امامنا ، وهي افتراض بالمعني اللغوي ايضاً وليس بالمعنى العادي ، اي انها تعبير عن اندفاعنا élan ، ولكـــن اذا كانت الحرية فرضية ومشكلة فهي لا يمكن ان تكون موضوعاً ولا نظرية ولا تأملا . إن الفعل الحر لا يمكن ان نفكر فيه ، انه بكل بساطة فعل ، ولا نستطيع أن نقول عنه حتى بأنه حر ، وربما لا نقول عنه حتى بأنه فعل ، إننا نفعله فقط [1] .

وهكذا نجد ان مشكلة الحرية ترجع الى المشكلة العامة لمقولة « الجهة » وقد وجدنا في هذه المشكلة الاخيرة حلا رغماً عن انه حـل بسيط جداً ، ليس من الجوهري فحسب ان تقسم الطبيعة الانسانيـــة الاشياء في كل لحظة إلى ممكن وضروري وحقيقي ، ولكن الطبيعة البشرية بكونها تمت إلى الطبيعة بوجه عام ، فيجب ان تكون هنـــاك

١ يشبه هذا آراء برجسون .

انماط ممكنة وضرورية وحقيقية ، حتى في الطبيعة بمعناها الواسع رغماً عن ان تجلياتها تحتاج الى حضور الانسان .

فدعنا اذن نرجع الى مفهوم الحرية ونرى كيف نحددها واضعين في حسابنا أن التحديد ليس من العدل بالنسبة لطبيعتها الخالصة .

وفي الحقيقة ، كما رأينا ، ليس ما سميناه بالتحديد الرواقي للحرية كما يحددها العقل يلغي امكانية وحقيقة الحرية ، ولكن ايضاً التحديدات الليبنتزية والبرجسونية ولقد توصلنا الى ان الحرية فعل لا يحدد ، ومع هذا ، ونحن نتذكر بعض الافكار التي عبر عنها خاصة نيتشه وكير كجورد ، وابسون ايضـاً ، يمكننا ان نقول بأن الفعل الحر هو الفعل الذي يؤكد مسئوليتنا بالنسبة لتصرفنا ونتائجه ، كما هو معبر عن أعمق ذاتنـــا [1] وبهذا المعنى يمكننا ان نقول بأن الفعل الحر هو الفعل الذي لم يكن في استطاعتنا الا ان نفعله ، ونجد هنا مرة اخرى نقص المقولات حيث ان الفعل الحر الذي يبدو انـه يفترض الامكانية ، يرجع الى الضرورة [2] .

ولكن لا يمكننا ان نتوقف هنا ، علينا ان ننكر علاقة الحرية بمقولات « الجهة » لكي نبقي على علاقتها بالحقيقة .

فيجب ان نضيف انه احياناً يكون فعل الحريـــة شيئاً جديداً تماماً – شيئاً يشبه ابتداء سلسلة من الافعال جديدة كما وصفها رينوفييه – ولا يتعارض هذا مع ما قلناه ، لانه على الاقل من الركيزة الموضوعية ، هذه السلسلة الجديدة لا تزال عبارة عن استمرارية شيء في داخلنا ولكنه مخفى وراء سلسلات الافعال السابقة . ويمكننا ان نرفض القول بأنه اذا نحن ركنا الى هذا التأويل ، فانا نكون ضحية الطريقـــة الموضوعية للفكر الذي نقدناه ، وهذا صحيح بمعنى ان الحرية الحقة يمكن ان تزاول من الداخل فحسب ، وفي هذه اللحظة الاخيرة عندما يقدم الفعل الحر ذاته كما هو في داخلنا فيجب ان نكف عن كل تأويل وعن أي كلام . اننا فوق عـــالم المشاكل العقلية ، وبعد اتيان الفعل فحسب ، وباعادة التفكير فيما حدث، يمكننا أن نصوغ حريتنا وان نبررها .

نقلها عن الانكليزية

القاهرة　　　**مجاهد عبد المنعم مجاهد**

١ لقد قيل إن « الحرية هي الكلية Wholeness » وفي الحقيقة ، فان شخصيتنا الكلية تمركز ذاتها حول الفعل الحر .

٢ لاحظ جيمس ان كثيراً من اعاظم الرجال – مثل محمد ونابليون – كانوا قدريين . فنابليون يؤمن بطالعه .

الموج والشاطئ

* الفجر لا يسبق الشمس فحسب ، انه يعقب الظلمة ايضاً
* المرأة العاهرة ، والمرأة الشريفة ، كلتاهما تستطيعان انجاب اطفال منزهين عن كل شرور الدنيا وآثامها .
* الماضي ليس رماداً خامداً ، انه حبة قمح تحت التراب ؛ والحاضر ليس جمرة خابية ، انه اشعة ملتهبة ، والمستقبل مزيج من اشعة ملتهبة ، واخضرار حبة القمح في ربيعها الفتي .
* القشور لم توجد عبثاً . فبعض حقائق الاشياء لا يستدل عليهـــا الا من قشورها . واولها الله . انه في هذه الكواكب والسيارات ، وعلى هذه الارض ، وبكل ما نحس به ونفكر .
* اذا قسا الناس عليك ، علموك الصبر ريثما تثور . ولكن ما جدوى قسوتك على الناس ؟ ألتزيد في عدد الصابرين؟
* العواطف موزعة على الناس جميعاً لانها من صنع الله اما الافكار التي تملأ الرؤوس فهي مختلفة بعضها عن بعض لانها من صنع البشر .
* الساعة الكبيرة والساعة الصغيرة معاً ، لا تضبطان غير اثنتي عشرة ساعة .
* لا تظهر حقيقة الشعوب الا في فرحها او حزنها . انها كالمياه اذا زحم بعضها بعضاً ، تظهر نسبة الصفـــاء والاعتكار فيها .
* في الحفلات غير الناجحة ، يستطيع جميع المدعوين مغادرة الحفلة قبل اختتامها ، ما عدا الذي شملها برعايته !!
* جلستان يقف فيهما الزمن : جلسة الأحبة وجلسة الاصدقاء .
* اكثر استقامة من شعاع الشمس ، طريق منعرج شائك يسلكه احد رواد الحرية .
* العظمة الحقة اشياء بسيطة للغاية ، اما المغرور فهو المعقد .
* قد تستطيع العيش اذا مات ابوك ، ولكنك ان كنت وحيداً وماتت امك دون ان يبقى في البيت قبس من روح المرأة ، فقد متّ معها .
* قطرة ماء واحدة تنفذ في ذراع من الثلج دون ان تتجمد . وكذلك الرجل الحق حين تحاصره المخاطر .
* رأس الرجل يثقله المجد ، ورأس المرأة يثقله الشعر الغزير .
* ورقة البرتقال التي توضع على الجروح لا تحمل من نتن هذه الجروح شيئاً ، انها تظل ورقة برتقال عطرة الرائحة . فما اعظم الانسان الطيب الذي يظل برغم الدنيا المظلمة الظالمة انساناً طيباً .
* مثل المراهق الذي يزيد من رجولته باطلاق شاربيه ، كمثل الفتاة عندما تضع احمر الشفاه لتسعّر من انوثتها .
* ان تصعد السماء وتعتصر الغيوم ، خير لك من انتظار ينبوع تتفجر عنه الارض في ساعة مجهولة .
* في مجاري الانهار ينبت العشب على العشب ، وعلى ذروات الجبال يغفو الثلج على الثلج . اما في قلب الانسان ، فاي حب جديد ، يبيد كل حب قديم .
* الحياة مسرح كبير ، اتخذ الشيطان فيه دور الملقن .
* وطن الكاتب المفكر ، صفحة بيضاء ، يكتب فيهـا كلاماً ابيض ، ومواطنوه افكاره .
* الرياضة صلاة الانسان الحديث ، لا له العصر .
* يحيرني اولئك الذين يريدون من البشر ان يكونوا وفق نموذج واحد لانسان يرسمونه على الورق . ان الله قد خلق الناس شتى . ولو اراد ما يريدونه بالانسان ، لاكتفى بآدم وحواء .. ثم امانهما دون ذرية خاتماً بموتهما صفحة حياة البشر
* يظل الانسان طيلة حياته طالب استقرار .. الى ان يعثر عليه .. ولو في قبر .
* وضع الورود والازهار على القبور ليس عبثاً ، فالعطر ينفذ حتى من خلال التراب .
* الوردة لا تحس انها وردة الا اذا رمقتها العيون . فاسألوا المرأة الجميلة التائهة بجمالها ، عن معناه ، لو لم يكن هناك رجال .
* بعض الناس ، كحبة القمح كيفما القيتها في التراب ، سمقت سنبلة خضراء . وبعضهم الآخر ، مثـــل درنة البطاطا مهما حرصت على وضعها في التراب ، ظلت تحت الارض ابداً .

حلب — **علي بدور**

النهر الجديد

قصة بقلم عبد الرحمن الكيالي

عرفت هذه المدينة المقدسة منذ الطفولة الأولى . كانت أمي تتردد عليها كل عام مرة أو مرتين ، لزيارة والدتها وشقيقيها ، وكنت أصحبها في هذه الزيارات ، وإني لأذكر فيما اذكر ، أن سور البلدة القـــديم ، كان يضم اكثر ما فيها من العمران ، وأن ما قام خارج السور من الدور والمنازل، لم يكن من الكثرة في شيء ، وانما كان بيوتاً متفرقة هنا وهناك ، مبعثرة بين أشجار الزيتون القائمة من عهد الرومان ، وكانت أشجار الزيتـــون تسد الآفاق الاربعة من جميع الجهات ، فتبدو لعيني كبحر أخضر ضارب الى السواد تتكسر أمواجه على عتبات المدينة الوادعة في ظلال سورها الاثري الشامخ .

وإني لأذكر فيما أذكر أن نساء البلدة وأطفالهن ، كن يخرجن أيام الربيع الى النزهة بين صفوف الزيتون المنسجمة ، فيقضون أيام الجمـــع والآحاد على بساط الربيع المخملي ، يتجول بينهن باعة النقل واللوز والخس والبرتقال الى مابعيد العصر ، حتى اذا أخذت الشمس تنحدر وراء الهضبـــة الغربية ، وسطعت اشعتها على رؤوس المآذن فذهبتها ، وانعكست على قباب الكنائس النحاسية مؤذنة بقرب انتشار الظــــلام ، رأيت أفواج النساء في ملاآتهن البيضاء والسوداء ، وراءهن أطفالهن الصغار ، ينحدرن عن هاتيك الهضاب المودعة للنور ، كقطعان الضأن والمعزى تتراكض وراءها الحملان والسخول. ثم تأخذ هذه الاسراب سبيلها متجهة صوب أبواب السور الرئيسية في صفوف متقاطرة ، ربمـا حسبها الناظر اليها من علو بعيد خطوط النمل العائدة الى بيوتها من بيادر الحصاد ، موسقة بحبات القمح السمين.

لم تكن للناس في ذلك العهد متع شعبية سوى هذه النزهات الساذجة. وكان الفتيان يهتبلون هـذه الفرص السانحـــة ، فيشاركون النساء في اجتلاء مفاتن الربيع الخلابة ، ويلمون زمراً عـــلى مرأى من الصبايا والآنسات طمعاً في لفت أنظارهن ، واثارة انتباههن واستحسانهن من بعيد ، وان الحياة لتفيض عليهم خفة ونشاطاً عظيمين ، وتنشر عليهم ألوانـــاً من البهجة والسرور ، تتحدث عنها الوجوه ، وتشير اليهـــا العيون ، وتظهر آثارها السعيدة واضحة على الشفاه بالبسمات والضحكات .

كنت أعد أيام الأسبوع في انتظار يوم الجمعة ، وكثيرا ما كنت أسأل أمي عما بقي له من الايام ، لعله أن يكون قريباً ، وربما غالطتها وغالطت نفسي في عدد الأيام ، زعما مني أني أقربه، فأتخطى به مكانه يوماً أو يومين. وكان من نصيبي لصغر سني حينذاك أن احمل إبريق الماء الكبير الى المتنزه في بستان الزيتون القائم على ربوة مشرفة على واد شرقي المدينـــة ، وان كنت لأنوء بهذا الأبريق أحياناً وأنا مصعد به في المسالك الوعرة بين جدر الطريق ومنعطفاتها الصخرية ، فألقي به الى الارض وأعدو مسرعاً بعيداً عنه ، وتضطر والدتي المسكينة أن تأخذه بيدهـــا الأخرى ، مضيفة الى سلتها المملوءة بطعام الغداء حملا جديداً يقطع ساعديها ، فتسير متباطئة ، وتكره على الاستراحة على فترات متقطعة اثناء الطريق .

لم يكن ينغص علي الرحلة في تلك الأيام سوى هذا الابريق الفخاري المملوء بالماء . وكثيراً ما كنت احاول الخلاص منه ، وأتصنع العثور به على صخرة حيث يذهب هشيماً ، متجاهلا سوء العاقبة ، وما سأتعرض له من لوم والدتي وتعنيفها ، وناسياً أننا سنلجأ الى من يجاورنا من المتنزهات نستجديهن شربة الماء ، وكثيراً ما كنا نُرد عنه رداً جميلا او غير جميل ، فننصرف الى غيرهن بوجوه ذليلة حتى ننال جرعة تطفيء غلة العطش .

لقد كانت متعتنا سحرية حقاً لو لا هذا الابريق اللعين الذي كان يثقل كاهلي ويهتز تحته ساقاي الصغيرتان ، فأنقله من كتف الى كتف ، ثم آخذه بيدي الاثنتين ، وأحياناً كنت احتضنه احتضاناً . وكنت أنظر وأنـــا كذلك الى ذلك الوادي السحيق ، فلا ارى فيه قطرة ماء ، وأعجب له من واد بين جبلين عظيمين تحيط به الأديار والمعابـــد والمقابر المتناثرة في احتشاد عجيب من رفات أهل الأديان المختلفة التي عبرت هـــذه المدينة في عصورها الغابرة ، ثم لا تنبثق فيه قطرة ، ولا تسيل فيه صبابة تبل الظمأ ، فتغنيني وأمثالي من الاطفال عن هذه الأباريق المحطمة على جنبات الطريق.

وكان هذا الوادي ينحدر من شمال المدينة الغربي في اتساع ويسر ماراً باشجار الزيتون الكثيفة يشقها شطرتين ، ثم يضيق كلما انحرف نحـــو الجنوب الشرقي فيعمق ويتوعر حتى يصير في عرض خطوتين .

وكانت قرية طور زيتاء تطل على جانبه الشرقي من علو شاهق بكنائسها ومساجدها الأثرية ، فتمد ظلال ابراجها الماردة عليه منذ شرق الشمس حتى الضحى ناشرة افياءها الطويلة على الهضبة المقابلة .

ثم يلتوي الوادي متعرجاً ، فاذا هو بين مدينتين من مدن الأموات الزاخرة بعظام الذاهبين وانهـــم ليحسبون انهم على حفافيـــه اقرب الناس ارواحاً الى فراديس الجنان. وكثيراً ما كـــان يدفعني فضول الأطفال الى المخاطرة ، فانحـــدر مهرولاً الى قرارة الوادي العميق في نظري حينئذ علّي اصل الى غايته، فاذا بي امام جنادل وصخور جامدة لا تعرف البلل الا من الندى او في زحمة الأمطار .

اقامت هذه الصورة في نفسي ربع قرن منطوية في عالم النسيان، ولم يدر في خلدي يوماً ان ستتراءى لي مجلوة واضحة ، كأنما يعاد عرضها علي في شريط سينمائي جديد . فقد أحال ربع القرن هذا كل مـــا يحيط بأسوار المدينة المقدسة ، عمارات وطرقاً معبدة ، وأحياء نظيفة جميلة آهلة بالسكان وامتد فيها العمران شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . فابتلع ما كان يكسو هضابها من المروج الزمردية الناضرة ، وغنيت بكل ما تغنى به المدن الحية الصاخبة في هذا العصر ، فاذا المدينة القديمة داخل السور تضؤل وتتصاغر في حياء واستخذاء ، واذا المدينة الجديدة تشرف على الجو ببنايها الشامخة، وتزهى بشوارعها الرتيبة الفسيحة ومتاجرها الضخمة ، ومقاصفها الكبيرة وملاهيها العامرة ، وتمتد فتزدرد ما حولها من القرى الصغيرة ، وتتعاظم فلا يستطيع المرء زيارة صديقه الا في سيارة تقطع المسافات الطويلة بين الاحياء المزدحمة والقصور الضخمة الرائعة .

ثم تمزقت فلسطين كما يتمزق رغيف الخبز في ايدي نفر من الاطفال الجياع ، فلم يبق للعرب من حطام القدس الا ما تضمه الاسوار القديمة ، وما تنطوي عليه المقابر الشرقية من الاجداث وحجارتها الصماء ، وذلك الحي الصغير المتواضع من الاحياء العربية المعروف بواد الجوز ، والذي يقوم فيه مسكني الجديد فوق مخبز بلدي لاهل ذلك الحي ، فتخترقـــه

مدخنة المخبز ذاهبة صعداً فوق سطحه مجللة بالسواد من الدخان المتناثر .

نحن في منتصف كانون الثاني ، والوقت ضحى ، والشمس قد ارتفعت عن اشجار دير كاليّا الملتفة على اعلى رابية من روابي قرية الطور. كانت هذه الاشجار تقابل الغرفة الشرقية من المنزل ، وكنت افتح النافذة كل صباح اترقب طلوع الشمس من وراء تلك الاشجار الهرمة كأنها رؤوس مئات من عجائز الشياطين تجمعت في صعيد واحد ، ولم نكن ندري أفي فصل الصيف نحن ام في فصل الشتاء . فقد امسكت السماء عن المطر على الرغم من كل ما صعد اليها من صلوات استسقاء الشيوخ والقسيسين والرهبان . وكانت الحرارة لاذعة والرياح دافئة . ولبثت الارض والجبال والوديان جدباء قاحلة لم ينبت فيها عشب ولم تتفتح فيها زهرة .

واقبلت علي زوجي بوجه تصبح الدهشة في ملامحه ، وإن عينيها لتنطقان بأن معجزة قد حدثت على ظهر الارض ، وهي تشير الي وتستحثني على ان اتبعها الى المرآة . كانت المرآة داخل المصراع الايسر من خزانة الملابس ، وكانت النافذة مفتوحة ومصراع الخزانة مفتوحاً ايضاً ، ونظرت الى المرآة فبدت امامي مئذنة مسجد الطور وبرج دير المسكوبية يناطح السحاب ، وانكشفت لبصري صفحة الجبل عليها الحجارة المتناثرة كالجواهر المبعثرة تعكس انداؤها اشعة الشمس الفضية ، وجعلت افرك جفني واطيل التحديق في المرآة كأنني اكذب عيني ، ثم انفتلت وأطللت من النافذة فاذا ما أراه يصدق المرآة !

يا للعجب !!! ماذا ارى ؟ واية عجيبة هذه التي تذهل العقل وتحير الفكر! خيط فضي في عرض خطوتين يسير متدفقاً في قرارة الوادي حيث كنا نلهو ونرتع ايام الطفولة الاولى فلا نجد الا الحصى المتناثر نتراشق به ونملأ منه الجيوب . ونظرت فاذا الجدول يأخذ مجراه الطبيعي ، فيلتوي مسفلاً بين الجبلين ماراً بين بقايا الزيتون ونثار المقابر على السفحين .

واستحوذ علي الشك واعوزني اليقين .

ارتديت ملابسي بسرعة ، وهرعت يدفعني الشوق والعجب الى المنحدر ، فلمحت عن بعد اطفالاً يجتمعون ويتفرقون ، وفي ايديهم حجارة يقذفون بها من بعيد . وكنت اقترب من المنحدر ، فاشعر بأن انفاسي تكاد تختنق ، وكلما دنوت ضاق صدري وزكمتني روائح كريهة مزعجة ، وسددت منخري بيدي . وجعلت اتنفس بفمي ، ونظرت فاذا انا على جرف المجرى ، واذا هي اخلاط قذرة مائعة تضرب الوانها الى الصفرة الكدراء فتشمئز منها العين ، ويأخذ النفس منها دوار يشبه ما يسبق القيء ، فوليت مسرعاً ، حتى اذا صرت بمنأى من خبث الرائحة ، وقفت لاهثاً من شدة التعب ، واستوقفت بعض السابلة اسأله .

قال : انها يا اخي اقذار اليهود قد اخذت مجراها الينا في هذا الوادي فكانت هذا النهر الجديد .

وافقت مذعوراً كمن استقرت بغتة رصاصة في سويداء قلبه ، ثم صحا على الدماء تتفجر في صدره ، ورجعت الى زوجي منكس الرأس لاحدثها حديث الكبرياء الذبيح تنزف جراحها الذليلة من اعماق نفسي حقاً يا عزيزتي ان للقرن العشرين لعجائب ، وان من اعجبها لدي هذا النهر الجديد .

بيرزيت — الاردن — عبد الرحمن رباح الكيالي

صفحات من الأدب الجزائري الحديث

رجوع الى تبازة

بقلم البير كامو

« لقد أبحرت بروح غاضبة بعيدا عن مسكن الآباء ، مجتازاً أضعافاً من صخور البحر ، وسكنت أرضاً أجنبية عنك . »

ميدى

منذ خمسة ايام والمطر ينهمر بلا مهادنة على مدينة الجزائر حتى انتهى بتبليل البحر نفسه . ومن سمـــاء تبدو انها لا تنضب ، راحت وابلات غير منتهية ، لزجة مـــن فرط الكثافة ، تنصب فوق الخليج . وكان البحر أشهب ورخواً كأسفنجة كبيرة ، ينتفخ في الخليج الصغير غير المستـــدير . لكن صفحة البحر تبدو وكأنها ساكنة تحت المطر الثابت . ومن بعيد لبعيد ، راحت حركة واسعة غير مـــدركة ترتفع – فوق البحر – ببخار مضطرب انساب محاذياً للشاطيء ، تحت حزام من ازقة مبللة . حتى المدينة بكل جدرانها البيضاء التي تتجدول ندى ، ارتقت ببخار آخر خفيف راح يعـانق الاول . وحيثما اتجهت يخيل اليك انك تستنشق الماء وتشرب الهواء.

وأمام البحر الغارق ، كنت اسير أتأمل في هذه الجزائر التي بقيت عندي مدينة المواسم الصيفية . لقد هربت مـــن ليل اوربا ، ومن شتاء الوجوه . لكن مدينة الصيف نفسها قد اقفرت من هذه الضحكات ، ولم تعد تقدم لي سوى ظهور محدودبة ولامعة . وعند المساء ، في المقاهي المضاءة بقوة حيث كنت الجأ ، قرأت سني على وجوه تعرفت اليهـــا دون ان استطيع تسميتها . وما استشففت منها سوى شيء واحد هو ان هؤلاء كانوا معي شباناً ، ولم يعودوا الآن .

ومع هذا فلقد وقفت بعناد دون ان أعرف ماذا اترقب ، لعله – فيما اظن – رغبتي في الرجوع الى تبازة . حقاً إنه لجنون يكاد يكون عقاباً ، ان يرجع امرؤ الى بيئة الشباب ، وان نحاول في سن الاربعين إحياء ما احببناه ونعمنا به في سن العشرين . لكنني نبئت من قبل بهذا الجنون . ألم أكن قـــد

رجعت مرة الى تبازة بعيد سنوات الحرب الـــتي سجلت لي نهاية الشباب . كنت اتمنى – فيما اظن – ان اجد حرية لا استطيع نسيانها . حقاً لقد امضيت – منذ عشرين سنة – في هذا المكان اصبوحات بأكملها اتجول بين الخرائب ، وأستنشق رائحة الشيح ، وأتدفأ بالصخور ، أكتشف الصخور الصغيرة التي سرعان ما تسقط اوراقها والتي تبقى حتى الربيع . وعند الظهر فقط في الساعة التي تسكت فيها الصرارات ، مخدّرة ، أهرب أمام اشتعال النور الجشع الذي يبتلع كل شيء . وفي الليل انام احياناً شاخص العينين تحت سماء مجدولة بالنجوم . عشت اذاً ، وبعد هذا الزمن بخمس عشرة سنة ، وجدت مرة ثانية خرائبي ، على مقربة من اوائـــل الامواج ، وتبعت شوارع المدينة المنسية من خلال حقول مغطاة بأشجار مريرة ، وعلى التلال التي تسيطر على الخليج الصغير ، لا زلت الاطف الاعمدة القمحية اللون . اما الآن فقد احيطت هذه الخرائب بأسلاك شائكة لا نستطيع ان نخترقها الا على عتبات مصرّح باجتيازها . وان التجول ليلاً ممنوع بها لاسباب يبـــدو ان الاخلاق تدعو لها ، وبالنهار نلتقي هناك بحارس حازم . ولا شك ان المطر نزل على طول امتداد الخرائب بمحض المصادفة.

تائهاً امشي في البادية المبتلة الغارقة في وحدتها ، محاولاً ان اجد – على الاقل – هذه القوة المخلصة حـــتى الآن ، تعينني لتقبل ما هو موجود عندمـــا اعترفت – مرة – انني لا استطيع تغييره . حقاً انني لا استطيع ان اعيد سير الزمن ، ولا ان اعيد للعـالم الوجه الذي كنت قد احببته عليه ، والذي تلاشى ذات يوم منذ امد بعيد . في ٢ سبتمبر

هذه قطعة من روائع الاديب الجزائري الكبير « البير كامو » ضمّنهـا كتابه « الصيف » L'Été الذي أثار لدى صدوره في العام الفائت ضجة كبيرة في صحف فرنســا الادبية . وهذا الكتاب نفثات شاعرية استوحاها كامو من جمال الطبيعة الجزائرية الحبيبة اثناء اقامته بالجزائر في العطلة الصيفية . وواضح ان كامو يبث هنا حبه للجزائر ونفوره من اوروبا ، فيرمز الى الاولى بالصيف والنور والى الثانية بالشتاء والليل . و«تبازة» مدينة أثرية قريبة من العاصمة الجزائرية .

سنة ١٩٣٩ ، لم اذهب على كل حال إلى اليونان كما هو مفروض علي وعوضت ذهابي الحرب فجاءت الينا ، ثم شملت اليونان نفسه. هذه المدة ، هذه السنوات التي حالت دون الخراب والاسلاك الشائكة ، وجدتها حقيقة في نفسي ، في في هذا اليوم ، امام الاضرحة المليئة بماء اسود ، وتحت الاثول الجـافة

وبعد ذلك جاءت الاسلاك الشائكة ، اعني المظالم ، الحرب ، البوليس ، زمن الثورة . لقـد كان من الواجب ان نسير بانسجام مع الليل : فان جمال النهار لم يعد سوى ذكرى؛ وفي تبازة هذه الموحلة ، قد ارتسمت الذكرى ، ويجدر بنا الكلام عن الجمال ، عـن الاسراف ، او عن الشباب ! وفجـأة تحت ضوء الحرائق كشف العالم عن تجاعيده وقروحه ، القديمة والجديدة . لقد شاخ مرة واحدة ، ونحن معه . هذا الدافع الذي جئت ابحث عنه هنا ، اعرف جيداً انه لا يرتفع الا بالذي لا يعرف انـه سيندفع . لا حب بدون براءة . اين البراءة ؟ الدول تنهار ؛ الاجناس والناس تتعاض من خناقها ، افواهنا ملطخة . بعد ان كنا برآء دون ان نعرف ، صرنا مذنبين دون ان نريد : الغموض يكبر مع علمنا ومن اجل هذا نشغل انفسنـــا بالاخلاق ، يا للسخرية !

انني مريض احلم بالفضيلة ! وفي وقت براءتي ، كنت اجهل ان للاخلاق كيانا وجوديا . اعرفها الآن ، ولم اكن قادراً على ان اعيش في سموها . وعلى الرأس الذي احببته بكـــل قواي ، بين الاعمدة المبتلة من المعبد المهدم ، يخيل الي انني امشي وراء احد اسمع اقدامه على البلاط والفسيفساء ، ولكن لا ادركه ابداً . ورجعت الى باريز ، ومكثت فيها سنوات قبل ان ارجع الى بلادي .

لقد كان شيء ما ينقصني في هذه السنوات . عندما يبتسم لنا الحظ — مرة — فنحب بقوة ، تمر الحياة باحثة من جديد عن هذه الرغبة وعن هذا النور . إن التخلي عن الجمال وعن السعادة الحسية المرتبطة به ، ومهنة الشقاء العائقة ، تتطلب



البير كامو

عظمة تنقصني . لكن بعد كل شيء لا توجد حقيقة ترغم على الابتعاد . الجمال المنعزل ينتهي بالتكشير الوقح ، العدالة المنعزلة تنتهي بالظلم . الذي يريد ان يستعمل هذه عند إبعاد تلك لا يخدم احداً ، ولا نفسه ، وفي النهاية يخدم مرتين اللاعدالة . لقد جاء يوم من شدة تبلد حسه ، انعـــدم الشيء الذي يدهشني ، كل شيء معروف ، الحياة تمر لتعاد . هو زمن المنفى ، زمن الحياة الجافة ، زمن الارواح الميتة . لكي تبعث من جديد تلزم لك منحة سماوية او وطن او نسيان نفســـك . كم من صباح عند منعطف طريق ، نزل ندى عذباً على القلب ثم تبخر . لكن النضرة لم تزل حالـّة وهي الوحيدة ، التي يطلبها القلب دائمـاً . يجب ان اذهب من جديد .

ومرة ثانية — سرت في مدينة الجزائر ، تحت نفس الوابل الذي يبدو لي انه لم ينته منذ إقلاع ظننت أنه الأخير وسط هذا الحزن الشديد الذي يتنفس المطر والبحر ، ورغم هـــذه السماء من الضباب وهذه الظهور الهاربـة تحت المطر الغزير ، وهذه المقاهي ذات الاضواء الكهربتية المشوهة للوجـــوه ، وتشبثت بالأمل . هل أنا لا أعرف ان امطار مدينة الجزائر التي تبدو أنها لا تنتهي ، تتوقف — مع ذلك — في لحظـة ، كوديان بلادي التي تنتفخ في ساعتين ، فتتلف هكتارات من الأرض وفجأة تنضب ؟ وفي الواقع فلقـد توقف المطر ذات مساء . فانتظرت ليلة أخرى ، وارتفع صباح سائل ، باهر ، على البحر . ومن السماء الوضاحة كالمقلة ، المغسولة والمعـــاد غسلها بالمياه ، المتناقصة بهذا الغسل المستمر إلى أدق وأوضع خيط ، نزل نور مهتز فأعطى كل منزل ، وكل شجرة ، صورة حساسة ، وجدة مبدعة . الأرض في صباح العالم ، كان من حقها ان تنبجس في ضوء مشابه . واخذت من جديد الطريق إلى تبازة .

لم يكن واحد من هذه التسعة والستين كيلو متراً بين مدينة الجزائر وتبازة خالياً من ذكريات وإحساسات ، الطفولة

العنيفة ، أحلام المراهقة في أزيز الأوتوبيس ، الأصباحات ، الفتيات النضرات ، الشواطىء ، العضلات ، الشابة التي هي دائمـاً في أقصى جهدها ، ألم المساء الخفيف في قلب ابن ست عشرة سنة ، الرغبة في الحياة ، المجد ، ودائماً نفس المساء في امتداد السنين ، لا تنضب من قوة ولا من أنوار ، شرهة هي نفسها تلتهم واحدة إثر الاخرى عـلى مر الشهور ، الضحايا المقدمة على شكل صليب فوق الشاطىء ، في الظهيرة الجنائزية. نفس البحر - دائماً - قريب من النعومة عند الصباح ، هو الذي وجدته في نهاية الأفق منذ أن فارقت الطريق الساحل وهضابه إلى الكروم ذات اللون النحاسي وانخفضت نحـو الشاطىء . لكني لم أتوقف لأنظر اليها . انني ارغب في رؤية (شنوى) - مرة ثانية - هذا الجبل الجاثم بثقل ، القوي ، المقطوع في كتلة واحدة ، هذا الجبل الذي يحاذي خوايلج تبازة غرباً ، قبل أن ينحدر هو نفسه إلى البحر . إننا نلمحه من بعيد قبل ان نصله بكثير ، بخاراً أزرق وخفيفاً لا زال يمتزج بالسماء . لكنه يتكاثف شيئاً فشيئاً ، كلما اقتربنا منه ، إلى ان يأخذ لون المياه المحيطة به ، موجة ضخمة ساكنة جمدها بوحشية دافع عجيب فوق البحر الذي هدأ فجأة. لا أزال غير بعيد، قريباً من أبواب تبازة، وها هي كتلته العابسة سمراء وخضراء. ها هو الرب العجوز الأشهب الذي لا يزعزعه شيء ، ملجـأ ومرفأ لابنائه ، الذين أنا منهم .

أنظر اليه وانا أخترق الأسلاك الشائكة لأجد نفسي بين الانقاض . وتحت نور ديسمبر المختـال ، كما يحصل مرة أو مرتين فقط في الحيوات التي - بعد هذا - تستطيع ان تحس نفسها طافحة ، لقد وجدت بالتدقيق الشيء الذي جئت لأبحث عنه ، والذي - رغم أنف الزمن والعالم - قد قـدّم إليّ وحدي كحقيقة واقعية . في هذه الطبيعة القاحلة ، من الفوروم[1] (Forum) المنثور عليه الزيتون ، اكتشفت القرية في اتجـاه منحدر . لقد انقطعت كل حركة : دخان خفيف متصاعد في الهواء الصافي . لقد صمت البحر وكأنه اختنق تحت المنضحة المنقطعة من نور متلألي وبارد . ولم يأتنا من «شلوى» سوى صوت ديك بعيد راح يشهر وحـده مجد النهار الواهي . ومن جهة الخرائب التي هي أبعد من ان نصلها امتداد البصر ، لم نر سوى صخور مرتعشة ، وشيح واشجار وأعمدة في غلالة الهواء البلوري . يبدو لي ان الصباح أصابه وجوم ، والشمس توقفت لمدة غير محدودة . في هذه الانوار وفي هذا الهدوء ، سنوات من الغضب والليل ذابت بالتدريـج ، وسمعت في نفسي ضجة كادت تنسى ، كأن قلبي الذي قد توقف منذ أمد طويل ، رجع إلى خفقانه . والآن فأنا المنتبه من غفوتي عرفت الضجات غير المدركة التي احتواهـا السكون واحدة واحدة : كمنجة الطيور المستمرة ، تنهدات البحر الخفيفة القصيرة ، تحت اقدام الجلاميد ، اهتزاز الاشجار ، غنـاء الأعمدة الأعمى ، ارتعاد الشيح ، الضباب المختفي . لقد سمعت هذا وأصغيت أيضاً الى الامواج السعيدة تصعد إليّ . واخيراً بَدَا لي أنني رجعت الى الشاطىء ، لمدة لحظة على الأقل ، وهذه اللحظة العظيمة لا تنتهي أبداً . لكن بعد برهة ارتفعت الشمس درجة في السماء وضاحة . واختبر شحرور صوتـه بايجاز ، ومن كل مكان انفجرت الطيور بدورها تغني ببهجة ، تنافر باعث على السرور نشوة لا متناهية ، ورجع النهـار الى سيره فوجب عليه أن يأخذني حتى المساء .

وعند الظهيرة على المنحدرات نصف - الرملية والمغطاة بنبات عباد الشمس كالزبد الذي تركته أمواج أواخر الأيام الغضبى بعد انسحابها ، نظرت إلى البحر الذي ارتفع في بطء بحركة ضعيفة فأرويت عطشين لا نستطيع ان نتحايـل عليهما - دائماً - دون. ان يجف الكائن الوجودي ، أريد أن أقول « حبّ وتعجّب » لانه يوجد سوء الحظ فقط إذا لم تحَب ويوجد الشقاء إذا لم تحِب . والآن فنحن نموت كلنا بهـذا الشقاء . لأن الدم ، والأحقاد هي التي تهزل القلب نفسه ؛ كثرة المطالبة بالعدالة تتلف الحب الذي أعطاها - مع ذلك - الحياة . وفي الضجة التي نعيش ، الحب مستحيل والعدالة لا تكفي . ومن أجل هذا كرهت أوربا النهار ولم تعرف إلا شيئاً واحداً هو مقابلة الظلم بنفسه . لكن لمنـع تصلب العدالة ، هذه الفاكهة البرتقالية الجميلة التي لا تحتوي الا على لب مر ويابس ، اكتشفت - مرة ثانية - في تبازة انه يجب ان نحتفظ في انفسنا بالنضارة ، بمنبع السرور . وأن نحب النهار الذي أفلت من الظلم ، وأن نعود إلى الصراع مع هذا الضياء المكتسب . لقد وجدت - مرة ثانية هنا الجمـال

[1] مكان كان يجتمع فيه الجمهور اليوناني القديم لمناقشة مشاكله العامة .

القديم ، سماء شابة ، ووزنت حظي ففهمت اخيراً ان ذكرى السماء هذه لم تفارقني في أسود سنوات جنوننا . هي التي صرفتني اخيراً عن اليأس . لقد علمت دائماً ان خرائب تبازة كانت أشب من معالمنا وردومنا . العالم يبعث في كل يوم وسط ضياء دائم جديد .

يا للنور ... ! هو صوت كل الناس القائمين في المأساة القديمة امام حظوظهم . هذه الاستغاثة الاخيرة هي استغاثتنا . لقد عرفتها الآن . وسط الشتاء ، علمت اخيراً انه يوجد صيف لا يقهر في كياني .

لقد هجرت من جديد تبازة ، ورجعت إلى اوربا و كفاحها لكن ذكرى هذا اليوم بقيت تسندني وتعينني على ان أتقبل من نفس القلب ما يثقل وما يبعث على السرور . في هذه الساعة الصعبة التي نحن فيها ، ما هو الشيء الذي أستطيع ان ارغب فيه اذا لم يكن عدم رفض اي شيء وحذق الفتل من خيط ابيض وخيط اسود حبلاً واحداً مشدوداً الى حد القطع . ان في كل ما قلت وفي كل ما فعلت إلى الآن يبدو من الواضح ان اعترف بهاتين القوتين ، ولو كانتا متضادتين . لم استطع ان انكر النور الذي ولدت فيه وفي آن واحد لا استطيع ان ارفض عبوديتي لهذا الزمن . إن من السهل جداً ان نقابل ونوازن هنا بين اسم تبازة اللذيذ وبين اسماء اخرى اكثر وقعاً واكثر إيلاماً : يوجد لبشر اليوم طريق داخلي اعرفه جيداً لانني طفته في الاتجاهين فهو يبتديء من هضاب الروح وينتهي عند عواصم الجريمة . ومن غير شك فاننا نستطيع دائماً ان ننام ونستريح على الهضاب او نتاجر في الجريمة . لكن إذا تخلينا عن جزء من كياننا فاننا تخلينا عن الوجود كله ، اذاً يجب ان نتخلى عن الحياة وعن الحب بوجه آخر ، وبالنيابة توجد إذاً ارادة الحياة دون رفض اي شيء من الحياة التي هي الفضيلة المعتبرة عندي في هذا العالم . وأود لو جربتها من بعيد على الاقل . وإذا وجدت قلة من العصور طلبت كما طلب عصرنا أن نسوي بين الحسن والرديء فقد أحببت الا اتجنب شيئاً وان احافظ بالدقة على ذاكرتين . نعم ! يوجد الجمال ، وتوجد السخافات . و كيفما كانت صعوبات المشروع ، لا أريد ان اكون خائناً لا لهذا ولا لاولئك .

على ان هذا ايضاً يلتبس بالاخلاق ، ونحن نعيش لمعنى يذهب الى أبعد من الاخلاق . إذا أردنا ان نسميه ، ما هذا السكون ! المخيم على هضبة « القديسة سالزا » ، شرق تبازة ، المساء حافل ، والواقع ان الوقت لا زال ضياء ولكن ، في الغور سكرة خفية تعلن آخر النهار . واستيقظ هواء خفيف كالليل وفجأة اخذ مبحر بلا امواج اتجاهاً وسال كنهر كبير محدب من طرف الافق هذا الى طرفه الآخر . السماء تغور . هكذا ابتدأ الغموض ، آلهة الليل ، ما وراء اللذة . لكن كيف تترجم هذه : إن قطعة العملة التي التقطتها من هنا شكلاً ظاهراً ، وجه امرأة جميلاً يعيد على ما تعلمته في هذا اليوم ، ووجهاً متآكلاً تحسسته تحت اصابعي عند رجوعي . ماذا يستطيع ان يقول هذا الفم بلا شفاه ، غير أن صوتاً آخر غامضاً في نفسي يعلمني في كل يوم جهلي وسعادتي :

« إن السر الذي أبحث عنه قد فر وسط وادي أشجار الزيتون ، تحت العشب والبنفسج البارد ، حول المنزل العجوز الذي يستنشق عبير فروع الكروم .

منذ أكثر من عشرين سنة ، جبت هذا الوادي ، وجبت ما يشابهه ، وسألت معازين بكماً ، ودققت على باب الخرائب المهجورة . وأحياناً ، عند طلوع النجم الاول في السماء الذي لا زال مضاء تحت رذاذ من النور ظننت أنني كنت قد عرفت في الحقيقة . وأظن أنني أعرف دائماً . لكن أحداً لا يريد هذا السر ، من غير شك لا أريده أنا نفسي ، ولا أقدر أن ابتعد عن أهلي . لقد عشت في أسرتي التي تظن أنها جالسة على عرش مدن غنية وبشعة ، مشادة بحجارة وضباب ، تتكلم ليلا نهاراً بصوت مرتفع ، كل شيء ينثني امامها هي التي لا تنحني أمام أحد : هي صماء عن إدراك كل الاسرار . قوتها التي تحملني حيرت مضجعي وصراخها أتعبني لكن شقاءها شقائي ، فنحن من دم واحد . ضعيف أيضاً ، شريك في الذنب ، محدث الضجة . ألم أصح بهذا بين الصخور ؟ ولو حاولت أيضاً بكل قواي أن أنسى ، فأمشي في مدننا مدن الحديد والنار ، وأضحك بشجاعة لليل ، وأنادي الزوابع ، وأكون مخلصاً . نعم ؟ لقد نسيت : انني نشيط وأصم من الآن فصاعداً . لكن لعله سيأتي يوم ، عندما نصير مستعدين للموت ضنى وجهلاً ، هل لي ان اتخلى عن قبورنا المشئومة ، لكي أذهب واستلقي في الوادي ، تحت نفس النور واتعلم مرة أخيرة ماذا يجب أن أعرف » .

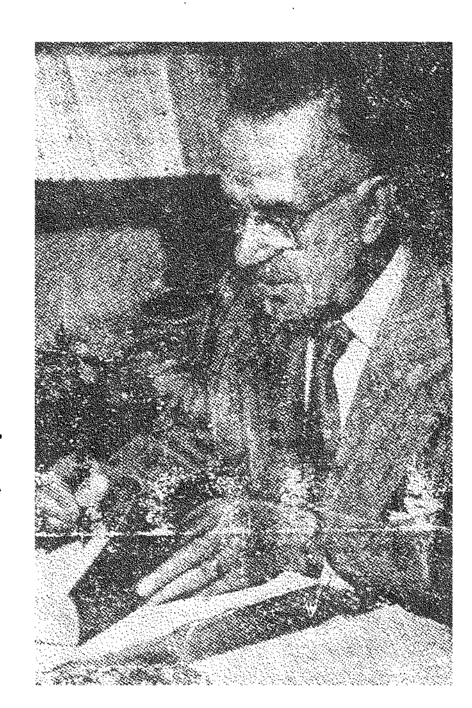
القاهرة — ترجمة : عثمان سعدي

النشاط الثقافي في الغرب

المانيا

وفاة توماس مان

توفي في زوريخ الكاتب الالماني الشهير توماس مان في اواخر الشهر الماضي ، بعد شهرين من الاحتفال بذكرى بلوغه الثمانين . وبغياب مان ، تفقد الرواية المعاصرة علماً من كبار اعلامها الذين كان لهم تأثير كبير في تطور هذا اللون الطاغي من الادب الحديث .



توماس مان

ويجسم مان في رواياته « القلق المعاصر » ويكسبه حياة وشكلا وصوتاً ، في إطار كثيف ومتحفظ في وقت واحد . وهو في ذلك لا يصور الوان الصراع النفسي والاجتماعي التي تمزق العالم ، وانما يعود الى منابع هذا التمزق والى اسبابه الخفية ، تلك التي تكمن في ما يحسه الفرد من عدم رضى ومن مشقة في الانسجام بمجموعة بشرية ليس مكانه فيها محدداً تحديداً كافياً .

ويقول مارسيل بريون M. Brion في مقال نشرته له مجلة « لينوفيل ليتريز » الفرنسية (العدد ١٤٥٩) إن الناس يأخذون على مان انه لم يواجه القضايا السياسية بما واجهها به اخوه هنريك مان من صراحة واهتمام ، كما يأخذون عليه انه ظلّ مؤرخ المجتمع الوهمي في رواياته الاولى ، وانه جعل موضع سائر رواياته في «لا زمن» فبدت مقطوعة عن الحياة الحاضرة . ويجيب بريون على هذه المآخذ بقوله : « واحسب ان توماس مان انما استطاع ، بفضل هذه « اللازمنية » ان يمضي في تحليل القلق الحديث أعمق من أي كاتب من الكتاب الآخرين الذين ظلوا عبيداً لتاريخية الحادثة . وفي آثار مان تتجلى فلسفة للتاريخ اكثر مما يتجلى التاريخ ، لان شكل الاحداث ليس شيئاً اذا لم تأت روح الاحداث فتنتظم فيها العناصر الحية الموحية . وعلى ذلك ، فمن الظلم عدم الاعتراف بان هذا الكاتب لم يعط في آثاره صورة دقيقة مؤلمة عن زمنه ومظاهره الفعالة » .

« لقد اسقط توماس مان ما هو عارض وما هو حكائي ، او انه لم يحتفظ به الا على سبيل الرمز — فواجه مأساة الانسانية دون ان يهتم بوضعها في الزمن الحاضر . بل هو على العكس قد ساءل ضمير الكائنات البشرية حتى جعلها تعترف بما تخبئه من خاص وعام في وقت واحد . ففي رواياته وقصصه ، تبدو الدراما دائماً دراما الفرد ، ولكن الفرد نفسه ينطوي على ان الانسانية برمتها ، لا على هذا الجزء من الانسانية الذي يتحدد بحدود « هويته » . وحبكة هذه الدراما ، سواء في « الموت في فينيسيا » او « الجبل المسحور » او « تريستان » تجمع الوان القلق الرئيسية لكل المستقبل الانساني ، ومن اجل هذا كانت قضية الموت هي اساس آثاره كلها ، من اية زاوية واجهها ، وبأي رمز أسنده اليها . »

ثم يتحدث بريون عن روح السخرية لدى توماس مان ، فيقول انها وسيلة للمعرفة ورد فعل دفاعي . فهي كرجع للوعي تنشط الرغبة في امتلاك الواقع لانها تخلق وجهات جديدة ، ومنظورات غير منتظرة ، وهذا ما يتضح في آخر روايات مان ولا سيما « المختار » و « سراب » .

وقد حظيت آثار مان ، بسبب ان المأساة الانسانية حاضرة فيها دائماً ، برضى جميع طبقات القراء في جميع البلدان . وبفضل غنى المادة فيها واكتمال الفن ، حازت على هذه العالمية التي لم يستطع ان يبلغها كبار الكتاب الالمان المعاصرين امثال هرمان هس وهرمان بروخ وروبرت موزيل . ولا ريب ان من اسباب هذا النجاح بين الجمهور ان هذه الآثار تجيب على الوان القلق النفسي والخلقي ، وهي تمتاز جميعاً بوحدة كاملة وانسجام تام ، على الرغم من غنى مظاهرها وتنوّع موضوعاتها : « الدكتور فوستوس » — « اسرة بودا نبروك » — « ماريو والساحر » — « تونيو غروجر » — « فليكس كرول » الخ ... كل هذه المؤلفات تكشف عن اهمية رسالة مان وتذكرنا بقول غوته « تذكر ان تعيش » .

« ولئن كانت جميع روايات مان واقاصيصه تدور على فكرة الموت ، ولئن كان الموت عنده مزروعاً في كل فرحة من افراحنا ، وفي كل تنفس ، واذا كان كل ما اعطيناه يكشف ، بفضل مرارة فلسفته ، عن موضع اصبع الموت في كل مكان ، فهو بذلك يشبه اعظم العظماء الذين لا تنفك عن اذهانهم فكرة النهاية المحتومة . »

« اولاد الموتى »

يجمع النقاد الالمان والاجانب على ان هنريك بول Heinrich Böll هو من اكبر الكتاب الالمان المعاصرين . وقد حاز بول في العام الماضي على جائزة مجلة « تريبون دو باري » الكبرى لروايته « عد الى منزلك يا بوغنر » . وفي الشهر الماضي نالت روايته الجديدة « اولاد الموتى » جائزة « احسن كتاب اجنبي » في باريس ، وعنوان هذه الرواية بالالمانية هو Haus Ohne Hüter الذي يعني بيتاً محروماً من حارسه الطبيعي ، او عائلة مات ولي امرها .

وبطلا هذه الرواية هما صبيان في الحادية عشرة من عمرهما يريدان ان

النشاط الثقافي في الغرب

يعرفا المصير الذي آل اليه والدهما ، ولا يكتفيان بالنظر الى صورتيهما . واحد هذين الوالدين شاعر كان جندياً في الصف الاول ، وقد قتل في اوكرانيا ، والثاني ملازم احترق في سيارته المصفحة في روسيا . والمؤلف يصور في هذه الرواية الاحداث المشؤومة التي مرت على اسرتي هذين الصبيين تصويراً بارعاً مثيراً ، ويرسم لوحة عميقة من مأساة الايتام في عالم مليء بالقيم الزائفة .

الولايات المتحدة

وفاة الشاعر ستيفنز

توفي في اوائل الشهر الماضي في هارتفورت (كونيكتيكوت) الشاعر الكبير والاس ستيفنز الذي حاز في هذا العام على جائزة بوليتزر الكبرى للشعر . وقد ناهز الخامسة والسبعين من عمره .



والاس ستيفنس

ومن المعروف ان ستيفنز كان عضواً في المعهد الاميركي للفنون والاداب كما كان يحمل لقب دكتور فخري من جامعات عديدة وعلى رأسها جامعتا هافارد وكولومبيا .

وقد صدرت لستيفنز قبيل وفاته مجموعة كاملة لاشعاره بعنوان : The Collected poems of Wallace Stevens تضم جميع ما سبق ان نشره في مجموعات متفرقة بالاضافة الى مختارات من القصائد الجديدة بعنوان « الصخر » The rock . واقل مايقال عن هذا الكتاب انه معرض للروائع الاوصية التي عبر الشاعر عنها بالوان غنية من الاستعارات الدقيقة تسحر كل من اوتي عيناً تتذوق اللون ، واذناً تتذوق اللحن . واذا اعتبرنا هذه المجموعة في اعلى مظاهرها ، استطعنا ان نقول انها « رسالة كتبت في اطار من اللذائذ » ودفاع عن الخيال المعزي والنزعة الانسانية الصافية .

« الحادثة المسرحية »

من أهم الكتب النقدية التي صدرت في الاشهر الاخيرة ، كتاب « الحادثة المسرحية » The dramatic event من تأليف اريك بانتلاي Eric Bentley الذي اعطى المسرح الاميركي كثيراً . فهو مخرج ناجح ، وناقد عمق ، واستاذ قدير في الادب المسرحي ؛ وهو قد كرس جهوده لتحليل القوى التي قام عليها المسرح المعاصر . ويعد كتابه « برنارد شو » مثلاً نموذجياً للتحليل النقدي . وحين التحق بانتلاي عام ١٩٥٢ بجريدة « نيو رابيبلك » كناقد مسرحي ، بدأ يتابع نشاط المسارح يوماً فيوماً ، ولم يلبث ان احتل المركز الاول في هذا الميدان . وهذا الكتاب الجديد مجموعة من مقالاته درس فيها ستين مسرحية جديدة اكثرها عرض في برودواي . وتمتاز هذه المقالات بايجازها وعمقها وروحها الفكاهية ، ويتعلم القارىء منها اشياء كثيرة ، وهي تمد خير ما عرفته الولايات المتحدة من نقد مسرحي ، بعد تخلي « ستارك يونغ » Stark Young عن النقد المسرحي . ويتمتع بانتلاي بمعرفة واسعة لقضايا المسرح تمكنه من ان يضفي على مقالاته نور المنظورات التاريخية وتحل هذه المقالات محلاً هاماً في تاريخ النقد الحديث .

« طبيعة الثقافة »

صدرت في الآونة الاخيرة دراسة هامة جداً نشرتها مجلة New Mexico Quarterly بعنوان « بعض مظاهر طبيعة الثقافة » ، كتبها لسلي سبيار Leslie Spier ، وهو يعطي فيها عدة تفريعات للثقافة ، ويرى فيها « امتداداً لقدرات الجسد » او « نوعاً من آلية توضح الجسم في اتصالاته بالعالم الخارجي » . وهو يصور الثقافة ايضاً بأنها « القدرات الطبيعية التي يقولبها المجتمع » . ويدرس صاحب هذا البحث الانثروبولوجي الهام مسائل معقدة كالعلاقات بين الاستعداد الثقافي والتكوين الوراثي ، والتقليد ، والترديد ، وظهور « النماذج » والطبيعة التي تتحول دائماً الى ثقافة ، والعلاقات بين الفرد والجماعة . وينتهي سبيار الى القول « ان من غير المعقول ان نجهل طابع الفرد ، ولكننا لا نستطيع ان ننسى كذلك الاشكال التي تكسبها الثقافة لطبائعنا » .

كتب جديدة

- اصدر الموسيقي المشهور لويس ارمسترونغ L. Armstrong كتاباً بعنوان : Satchmo ضمنه سيرة حياته وتنقلاته واستقراره في نيويورك . ولهجة الكتاب تتكشف احياناً عن نزعة غنائية شعبية وتتحدث عن حياة الزنوج الفقراء في جنوبي الولايات المتحدة في اوائل هذا القرن . وهذه من أجمل الصور التي رسمت للزنوج .
- صدرت للشاعر المعروف كامنفز Cummings مجموعة كبيرة من شعره الذي نظمه بين ١٩٢٣ و ١٩٥٤ ، والذي لعب اكبر دور في تطور الشعر الاميركي الحديث .
- نشرت دار « فولي » مجموعة بعنوان « احسن القصص الاميركية القصيرة » The Best American Short Stories تضم اربعاً وعشرين اقصوصة اختارتها من ثلاث وعشرين مجلة اميركية . ومن الممكن ان تكون هذه حقاً احسن قصص اميركية صدرت في العام الماضي ، والعكس ممكن ايضاً ولكن هذه المجموعة تقدم على كل حال صوراً مختلفة للمواهب الاميركية التي تعالج هذا اللون من الادب القصصي .
- من الكتب الفنية الهامة التي صدرت اخيراً كتاب اندرو بول اوشنكو A. P. Ushenko بعنوان Dynamics of Art وهو يعد مساهمة كبرى في تعريف فلسفة التكنيك الفني .

فرنسا

حرية الروائي تجاه ابطاله

كثيراً ما يرسل القراء الى الروائيين رسائل يسألونهم فيها بعض التوضيحات والمعلومات عن تصرفات ابطال رواياتهم : أهم حقيقيون ام خياليون ؟ ولماذا سلكوا هذا المسلك ولم يسلكوا ذاك ؟ وهل استمد الروائي ابطاله من تجربته الخاصة ام من احلامه ؟

اسئلة كثيرة يواجهها كل روائي وكل قصاص ... وقد أحب الروائي الفرنسي المعروف جول روي J. Roy ان يتحدث في هذا الموضوع ويتناول قضية حرية الروائي تجاه ابطاله ، فكتب مقالاً هاماً بعنوان « ايتها الحرية العزيزة » قال فيه ما ملخصه * :

سواء كان ابطال الروائي حقيقيين ام خياليين ، فهو يتخذهم مترجمين عن افكاره، ولو كانوا من جنس آخر غير جنسه. وكيف لا يستجيب الروائي، هو الذي يخفي وجهه تحت مئة قناع ، لاغراء استعمال الطريقة البسيطة التي تمكنه من انطاق كل صوت يهمس في صوره . وحتى حين يبدو شخص ما من الاشخاص الروائيين مغايراً في طبيعته للمؤلف ؟ فمن الذي لا يشك في ان المؤلف انما لبس هذا القناع حتى لا يشي بحقيقته ولا يعطي نفسه الوسيلة للتعبير عما كان بوسعه ان يكونه ؟ إن سر الخلق كامن في هذه العملية المقنعة . واول شرط مطلوب الروائي هو ان يكون معقداً ، وهذا هو شأن كل فنان ، لأن التنوع ينشأ عن تعدد الوجوه ، والقدرة تصدر عن مدى الحساسية . فلئن لم تكن مدام بوفاري هي نفسها فلوبير ، فمن تراها تكون ؟ اتكون مدام بوفاري هي نفسها ؟ انها في الحق لم توجد الا لان فلوبير قد وجد نفسه في وضع كان يستطيع فيه ان يسند اليها دوراً هاماً.

ولماذا يريدون ، بعد ، ان يقصروا كاتباً على كتاب واحد ، او على فئة واحدة من الكتب ؟ ليس من غرابة اطلاقاً في ان يتخلى كاتب عن جوه المعروف ليتحدث عن جو آخر غير معروف . ان قيمة رسام من الرسامين تكمن في الطريقة التي يرسم بها اكثر من كمونها في الموضوعات التي يرسمها . وتعساً لمن يعرف ان يحد نفسه بحد، لان في ذلك حداً لموهبته. القضية إذن هي ان يهزأ المؤلف بالمواضعات وان يسد سمعه دون الثرثرة التي ترافق نشر كتاب من كتبه ، ليهتم فقط بما له قيمة من النقد . يقول غايتان بيكون في كتابه «الكاتب وظله»: «إن الكاتب لا يكتب لينشر، وانما ليقتطع من نفسه شيئاً . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك ، إلا بان يسلب نفسه لصالح الآخرين» ان الكاتب قد اعطى نفسه في كل من هذه الكائنات التي خلقها بقدر متفاوت من الكرم والنور . وعلى القاريء ان يكتشف سر هذا التقمص .»

* راجع مجلة « الانباء الادبية » تاريخ ٤ آب الماضي .

اشتات ادبية

- « البلدة التي لا تبلغ ابداً » Le pays où l'on n'arrive jamais رواية رائعة اصدرها اخيراً القصاص المعروف اندريه دوتيل A. Dhôtel تصور مغامرات طفلة فقدت في اثناء الحرب آثار البلدة التي كانت تعيش فيها مع امها ، فاخذت تبحث عنها في سلسلة من المغامرات ، يرافقها فتى مثلها صغير على طريق البحث واستعادة احلام الطفولة .

- « أسهم نارية في زنجبار » Feux d'artifice à Zanzibar للروائي الشهير بيار بنوا P. Benoit ، وهي تصور حياة يتيمة كانت تعيش في زنجبار ، وتعرف انها ثمرة اغتصاب السلطان لأمها ، فهي تريد ان تنتقم ، وتحاول ان تقذف على السلطان قنبلة في احدى الحفلات ولكنها تحب ابنه ويتزوجان. والرواية طريفة ومسلية .

- كتبت سيمون دو بوفوار في العدد الاخير من « الازمنة الحديثة » مقالاً تهاجم فيه مهاجمة عنيفة مرلو بونتي بسبب كتابه « مغامرات الديالكتية » وتدافع عن سارتر وتحوله الى اليسارية الشيوعية المتطرفة .

- صدر في آخر الشهر الماضي قرار حكومي بتخفيض التعرفة البريدية للكتب الفرنسية المصدرة الى الخارج بنسبة ٥٠ بالمئة . والمنتظر ان يؤثر هذا القرار تأثيراً حسناً على الكتب الفرنسية التي تباع في الخارج باسعار فاحشة بسبب ارتفاع التعرفة البريدية .

- «التقدم التكنيكي والشخصية البشرية» Le progrès technique et la personnalité humaine كتاب هام من تأليف اميل جيراردو E. Girardeau يتحدث فيه عن الروابط بين التكنيك والثقافة. وقد قدم له اندريه سيغفريد ولخص الموضوع بهذا التساؤل : « ما عساها تكون قيمة التقدم المادي الرائع اذا وجب دفع ثمنه تضحية الفرد ؟ »



اريد ايضاً عدة غرف لأشخاص الرواية التي اؤلفها الآن !

قرأت العدد الماضي من الآداب

بقلم
خليل هنداوي

كم كنت مغرىً بالنقد منذ مطلع حياتي الادبية ! وكم بتّ اخشاه وأتجنبه اليوم لا خوفاً ولا عجزاً. ولكن التجارب علمتني ان الناقد – مهما حرص – لا ينظر الا من زاويته الشخصية المحدودة . ولا شيء اكثر تميّعاً من الذوق الادبي . فما تراه جميلا هنا يراه غيرك قبيحاً ، والرائيان صادقان في رؤيتهما، لأن كل راءٍ يستمد من ذوقه وثقافته ودوافع تكوينه الادبي. والقاريء نفسه يستجيب حين يستحسن اثراً او يستهجنه الى هذه العوامل المعقدة نفسها .

ولذلك اذا قرأت العدد الماضي ، ووضعت تعليقاتي عليه فان جل ما أصنعه ان أسجل انطباعاتي الخاصة دون ان احرك شيئاً . وليس معنى نقدي انني ارفع مما اقرأه ، وانما ذوقي الشخصي الذي اصطلحت عوامل زمانية ومكانية وثقافية على تكوينه هو الذي يقرر بحسبها ، ولا مفر له منها .

تشاء «الآداب» ان تضرب بسهم وافر في المقالات التوجيهية ، سواء أكان مجالها السياسة او الاجتماع . ومن ذلك مقالة « انسانية لا أممية » او اذا صح التعبير : « قومية انسانية لا اممية » . والفكرة التي تدور حولها من افكار الساعة التي تتصارع فيها المذاهب والعقائد . والفكرة بحد ذاتها ليست بموضوعية مجردة ، لان صاحبها يكتبها بعقيدته الخاصة ، وهو مفكر عميق موهوب .

أما الغاية الموجهة فهي الحرص على القومية رغم انفلات الغرب الآن من قيودها نحو « الاممية » التي لا تعترف بكيان شخصي للامة . واذا كانت هنالك رابطة لازمة بين الامم فلتكن الرابطة الانسانية إطاراً للقومية . وهو يحمل على الاممية لانها في رأيه مخالفة لروح الواقع والتاريخ وأصالة تكوين الامة . ويعتبر القومية غير مسئولة عن الشرور التي تولدت منها . ولذلك يدعو الى « تدفئة » القومية العربية بعد برودها ، لأنها الاساس الصالح في نهضة العرب .

وفي عقيدتي ان ليست الدعوة الى القومية بمستغربة ، ولا الدعوة الى الاممية بجناية ، ما دامت الامم تتخبط في تجارب جديدة قائمة على الثورة على القديم ، وطلب الصالح الملائم للأفراد والجماعة . وانما هي تستمد تجاربها من حياتها وتاريخها وكيانها. فلماذا لا تتم التجربة بصمت دون ان نقبلها بحرب ، والزمان وحده يعمل على نصرها او خذلانها ؟

وأما ان القومية تعيد الانسان الميكانيكي المسمر الى الكائن الحي المفكر ، على عكس الاممية فتلك دعوى لا حقيقة لها ، لان هذا الانسان الميكانيكي يحيا اليوم في كل بلد موجه ولن يعيده الى حريته وأمنه الا ان يهدأ هذا الصراع المستعر بين الافكار والمذاهب .

على ان القومية الاشتراكية بعد ان قارعتها « الاممية » ، وأخذت عليها ضيق تفكيرها وحدودها ، احبت ان تقطع عليها الطريق بما أسمته « الانسانية » . وليست الانسانية الا اصل التصميم ، ثم تمتد منه فروع الى الاممية التي تريد ان تطبق الانسانية كواقع ملموس ، لا كضباب غائم .

على ان الامة العربية لم تصل الى شيء من الحكم المذهبي الصحيح . وانما هي نظريات متفتحة مجردة يتخبط فيها افراد يبشرون ولا يقررون . والوصول الى القومية الاشتراكية مرحلة ضرورية قبل الوصول الى الاممية ، او الى ما سماه « صاحبي الدائم » – الانسانية – فهل نحن واصلون ؟

***

وهذا مقال ادبي محض في « ثقافة عصر ابن المقفع » يكتبه الاستاذ رئيف خوري الذي شغله ذلك العصر كثيراً ، واكثر ما شغله منه ابن المقفع باعتباره الرائد الاول الى النثر الاجتماعي الذي خرج من قيود الرسائل الاجتماعية ، والحدود الديوانية ، ليعالج قضية المجتمع الذي بدأ يتعقد ابعد ما تعقدت الحياة فيه . ومتى قلنا النثر الاجتماعي اردنا الادب الملتزم الذي يتمرد على ذاته المنطوية ، ويستغل رسالته التي خلق لها . ولابن المقفع جولة في هذا الباب لم يستكمل النقد دراستها ، وجلاء اسبابها . وهي رسالة اقل ما يقال انها كلفت صاحبها ان يجود بحياته على طريقة الطغاة .

على ان مقدمة المقال كانت من الطول بحيث طغت على تلك المقارنة البارعة الخاطفة بين ضآلة رسالة الشعر، وفخامة رسالة النثر في ذلك العصر. وحقاً، نحن مع هذه النتيجة، على ان تكون خطوط المقارنة اكثر امتداداً.

ويقيني ان الاستاذ رئيف منصب على مباحث اخرى متصلة بالموضوع نفسه، وهو سيلح عليها الحاح المفكر الواعي لانصاف هذه الشخصية الادبية المجاهدة.

***

ومقال آخر في « شعرنا العربي وديوان العيون الظماء للنور » يكتبه صاحبه بعقيدة قومية واضحة، يعالج بها الشعر القومي، ثم يتناول ديواناً حديثاً من دواويننا. ولكن هذا المقال لم يحقق — ويا للأسف — الغاية منه، لانه وزع نفسه على جبهات واسعة المدى. كل جبهة يقصر عنها الجملة من المقالات. بدأه صاحبه بالقبيلة العربية في الجاهلية، وفذلكة فلسفية لغوية تبين التصاق الألفاظ العربية بالحوادث. ولا ادري كيف مشت هذه البدعة في بعض الشباب. وكيف اخذتهم هذه النشوة في اللغة العربية وحدها، مع أن نشأة اللغات العالمية تثبت كذلك ارتباط كل لغة بحوادث أصحابها. ولم تنفرد العربية وحدها بعبقرية خاصة في هذا الموضوع، ولم ينكر الاقدمون المتعصبون لها العبقرية على غيرها من اللغات.

ثم ينتقل صاحبنا الى الوجد الصوفي المنحط، والوجد الصوفي البطولي وما بينهما من فروق فنية وروحية، ومتى يولد هذا، وأين يكون ذاك، وهو موضوع ثان. ثم ينتقل الى تعريف المرثية الحاضرة ابنة المأساة الحاضرة التي ينحدر عنها الشعر القومي الأصيل. فيتحدث خطفاً عن شاعر الشباب سليمان العيسى الذي يؤدي الى شاب آخر هو يوسف الخطيب في ديوانه الجديد « العيون الظماء للنور » والنور هنا يرمز الى نور الانبعاث.

أرأيت كم دار الكاتب، ولف حول عوالم متباينة ليصل الى بيت القصيد؟ وأخيراً وصلنا... ولكن بقية المقال المعد لتحليل هذا الديوان لم يأت من التحليل الا بخطوط عامة، لا ينفذ القارىء منها الى أية ملامح فنية، أو لونية عن هذا الديوان. بل ربما انتهى القارىء من المقال، وقد قرأ أشياء عذبة كثيرة، ولكنه لا يقرأ شيئاً عن الديوان. وليس في المقال كله الا ثلاثة أبيات من الديوان، لو طواها الكاتب لكان خيراً له ولصاحب الديوان. لأن هذا العربي الذي عده « مسئولاً، ومجرماً، وطاهراً » قد مل امثال هذا الشعر:

ومشيئتي قدر، على أقدامه تتمسح الايام والاقدار

وهذا يذكرني بقول ابن هانيء الاندلسي:

ماشئت، لا ماشاءت الاقدار فاحكم، فأنت الواحد القهار

فما هذه « البهورات الكاذبة »؟ وهذه العواطف المجعجعة في الباطل؟ اذا كنا نظن ان مثل هذا يثير الحماسة، ويحل القضية فقد كان علينا الآن أن نكون على سطح المريخ... كفى... كفى! نريد الشعر الذي ينساب انسياباً الى النفس، كانسياب النور الى العيون الظماء، ويحفر في ثناياها أخاديد عميقة لا تبلى. الشعر الهادىء البعيد عن الجزالة الفارغة هو الذي يبقى.

أذكر مرة ان الشاعر سليمان العيسى قدم لي هذه القطعة المترجمة، تدعو ببساطة الى السلم، وهي مرثاة مستوحاة من المأساة الحاضرة الكبرى. فكانت عندي أبلغ من ملحمة كاملة، بصدق شعورها، ورعشة تصويرها. يصور بها الشاعر طفلة من ضحايا القنبلة الذرية اللئيمة، أتت تزور أهلها:

«انني أنا من يطرق الباب
انكم لا تستطيعون أن تبصروني
لأن الأحياء لا يبصرون الأموات

***

منذ عشر سنوات
مت في « هيروشيما »
فبقيت طفلة في السابعة، الى الأبد.
لأن الأطفال الموتى لا يكبرون

***

في البدء مست النار غدائر شعري
ثم احترقت عيناي ويداي
ثم أصبحت حفنة من رماد
تذروها الريح.

***

انني لا أطلب اليكم ان تعطوني شيئاً
لأن الطفلة المحترقة هامدة كقطعة ميتة من الورق.
لا تستطيع ان تأكل...

***

انني أطرق أبوابكم جميعاً
يا أهلي من بعدي!
فأعطوني عهداً بألا تقتلوا الاطفال...

***

وأذكر انني قلت لصاحبي:

الى مثل هذا الشعر ينبغي أن تنصرفوا؟ دون ان تفتنكم القوالب القديمة، والالفاظ المنمقة، والصور اللامعة كالسراب. ألا تجدون هذه القطعة مؤثرة خالدة ببساطتها؟

انتهيت من المقال، وأنا على اعتقاد بأن في نفس كاتبه افكاراً يوجهها نحو ما يريد قسراً، دون ان يكون لها تعلق بالبحث.

وتأتينا الآن قطعة من الشعر عنوانها « صراع » لشاعرة ناشئة، وهي تدل على شاعرية لا تزال طافية على زبد السطح. ولكن « الأنا » فيها تتموج بين الاستسلام والصراع. وأجمل ما فيها الصراع بين نفسها المنهزمة المستسلمة، وبين قلبها الذي يأبى الا الحياة. فيا ترى، هل هي رمز النفس، او رمز المرأة المتيقظة التي تشدها قيود المجتمع، وهي تلح على التحرر؟ أما تقطيع الأبيات فانه أضعف الروح الموسيقية، وتركها ناشزة على الآذان.

وننتقل الآن الى مقال كتب على ضوء الطريقة الحديثة في التحليل النفسي الذي طلع به « فرويد » ومن بعده من مدرسته، عند ما ردا اتجاهات العبقرية الى مواطن الغريزة.

وصاحب المقال جريء حـــين تناول تحليل الشاعر ابو ريشة تحليلاً حديثاً على ضوء هذه النظرية ... حبه للمرأة وخوفه منها . يريدها لحماً ودماً وشعوراً ، ويريدها حجراً مسكوباً . ولكنه مبالغ في الاتكاء على هـذه النظرية التي حلل بها عمر نفسه في قصيدة « جان دارك » حين وصفها فتاة تستعر فيها الشهوة ، الشهوة الملحة الملجمة التي انطلقت بهـــا نحو ذلك الطموح ، فكان بذلك مستعيناً بنظرية التحويل السامي !

وأذكر انني رددت مرة على قصيدة عمر التي يقول فيها :

« أخشى تموت رؤاي ان تتغيري « فتحجّري ... ! »

رددت بابيات منشورة في مجلة « الاديب » ، اذ جعلت هذه المرأة نفسها تتوسل له ألا يجعلها حجراً ، ولو كان في ذلك خلودها ، لان الحياة وما فيها من حب وأحاسيس ، وشوق وقلق هي سر وجودها ، لا الخلود ، وما قيمة الخلود المتحجر ؟ وجعلت عمر فيها « عبقرياً » لا انساناً .

ما أنت بالانسان حين خلقتني ما أنت ، واأسفاه ! الا عبقري

والانسان عندي أجل من العبقري وأخلد .

والمقال يمعن في تحليل نفسي ، متسلسل مركز في تحليل ما سماه الكاتب « تجزؤاً في نفسية الشاعر » ولكنه مبالغ كثيراً ، لان عمر يريد ان يتعالى بدافع السمو الى المرأة غير المدومية . وليس مرد ذلك كله الى ثورة الغريزة الجنسية على الغريزة الجنسية ، لأنني عرفت عمر في ايامـــه الاخيرة مولعاً « بالتصوف » ، يبحث عن الوجد الصوفي الذي يكتفي بلمح الخاطر ، والجمال العابر ، بعد ان دنسه على مدارج اللذات .

وبعد ، فلماذا لا يكون هذا التحجر مظهراً من مظاهر الاستمتاع بالشيء الذي يهرب من يديه مع النبضات والخفقات ؟ ويرى ألوانه تذوي شيئاً فشيئاً ، ولكن ، ألا يكون عـلى سأم منه لو تحجر ؟

على أنها تجربة جديدة قائمة على التحليل النفسي ، ولا بأس بالتحليل النفسي يدخل في تحليـل شعرائنا ، ودراسة شعرنا الحديث والقديم معاً .

وهذه قطعة شعرية « الساحل الوضاء » ينظمها الشاعر الكيـــالي على التقطيع القديم . شاعر يطل من الأعلى على ساحل ارضه المسلوبة ، ومشاعل شطوطها المنصوبة . يجد الأرض أرضه ، وكل شيء من اشيائه ، لكنه ممنوع عليه ان يقترب . ولكنه يقترب بروحه ونظره .. والقطعة تنم عن ترتيب جيد للمشاهد ، من جبال ، وقرى ، وسهول ، وسواحل وموانيء . كل هذه المشاهد تزدحم في خاطره وعيونه حتى تهيجه وتغريه بالعودة الى فردوسه المغصوب .

على أني اردت ان تبرأ القطعة من مثل تشبيهه (كما جرت ابل تنفرها سهام النابل) . وفيها اعتراف صادق بالثمن الذي ضيع هذه الارض حين يقول :

وجريتُ فوق رماله متصابياً وجررتُ ثوب المترف المتكاسل

وصدرتُ عنه ، وقد أصبتُ مباهجي ورويت من لهو الشباب مناهلي !

أيذكر الشاعر ما كان ثمن ثوب المترف المتكاسل ، والمباهج ، والارتواء من مناهل لهو الشباب ؟ ولا تزال آلة العودة عنده الدمعة « انه سيعود ، ويعرف الأجيال أنه « روى من دمعه رياض الفضائل » أما شبعنا دمعاً ، وارتوينا برياض الفضائل ؟ متى يستحيل هذا الدمع البارد دماً فائراً ؟

وهنالك مسرحية « مع آخر ابناء العالم » او «أميكلا» المدينة الـتي اهلكها الصمت . وهي مستمدة من الخيال اليوناني ، وعلى طريقة الحوار اليوناني . وهذا الحوار يدور بين أخرس كان فناناً في الكلام والبيان ، وبين أعمى اصبح لا يطيق الصمت بعد ان صمت من يحق لهم ان يتكلموا .

ولكن الكلام يسبب له الأيلام ، فيود الأخرس ان يتمه من الكلام . وهذا الاعمى يطلب ان يعرف الحقيقة في السعادة التي يتحدثون عنها . واذا بهذا الذي يدعي أنه اعطى السعادة هو على قلق من نفسه . ولو لم يكن فيه هذا القلق لما كلف نفسه السؤال . وينتهي الحوار بالرجوع الى الصمت الذي يطلبه الجميع ، وهو ابن الخوف . الكل صامت ، والكل خائف .

الحوار في القطعة ليس بحوار مسرحي حي ، لانه مثقل بالأفكار المتلاصقة ، وهو حوار الخاصة من الناس. ولكن هذا الحوار جاء قاسياً ، يحتاج الى برد الفن .

وهنالك مقالة في « تذوق الشعر » منقولة عن ناقد انجليزي ، فيها لفتة بارعة الى من ينخدعون بطلاب المعنى النثري للشعر دون ان يلحوا على تذوق الناحية الفنية فيه . فهم طلاب معان ، او قيم مجردة . لا يهمهم الشكل الذي توضع فيه ، والناقد يلح على « الصدق الشعوري ، الصدق الروحي » في تقويم القصيدة ، لأن هذا الصدق هو الذي يصله بنفس القارىء ويساعده على الغناء في وجود الشاعر . ثم يعطي الناقد توصيات خاصة بتذوق الشعر ، ولعل هذه المقالة تجعل من مطالعة الشعر فناً خاصاً ، يفك الشعر من قيود المعاني التي يطلبها عادة قارىء الشعر البسيط ، المحدود . وأعجبني في هذا المقال ما انتهى اليه الناقد من ان الشعر الحديث لا يمكن فصله ابداً عن الشعر القديم. وحق هذا عندي، لان مثل الشعرين كشجرتين تفرقتا كياناً على ظهر الارض ، وانما جذورهما ملتفة ، متعانقة ، متشابكة تحت بطنها . ولسنا في حال مناقشة القول الذي استشهد به « ان القصائد تصنع من كلمات لا من أفكار» لانها في الحق مصنوعة من هذه ومن هذه.

وتلك قصة « وجهي المعفر بالتراب » كتبت كما كثر

قصصنا على طريقة « الايحاء الذاتي » الذي يتحدث عنه القاص عن تجربة خاصة عالقة به . ويبدو ان كاتبها جندي ، يقضي الآن ايام تدريبه . وفي مطلع القصة وصف قصير بارع لحياة الجندية وما يساور صاحبها من تبعات وطنية. ويأبى الكاتب الا ان يرسم بجانبه صورة جندي آخر يسخر من كلمة الوطنية ، لانها مرادفة للحقد والثأر والدم . وفجأة تأتيه صورة تلك الغجرية السمراء في حانة الاسبوع الفائت ، فينتقل حاضره الى تلك الزاوية من الماضي ، فيصورها تصويراً رائعاً ... ولا يدري الا انه يمشي ، وهو يرسل من شفتيه صفيراً بلحن شهر زاد . مشاهد تتوالى على الطريق مشاهد الناس ، ومراقب السير المسمر في مكانه ، والوانه المتحركة ، ثم جمود اللون الاحمر الذي يرعبه. انه اللون الاحمر ،وما يوحي اللون الاحمر . ثم يراه اصدقاؤه ، فيدعونه الى الحانة . وفي الحانة يلوح له المصباح الاحمر ، فلا يدري ماذا يرعبه منه ويسمره . « لقد اصبح ذلك اللون شيئاً . لقد اصبح شيئاً مجسداً . ان ذلك الاحمر اصبح وجودي كله . لم أعد انفر منه . اصبحت أحبه ، لقد عرفت نفسي »

واذا به ينتهي الى انه يريد ان يذهب الى ذلك الذي يسخر من وطنيته « انه يريد ان يبقى عالقاً بوجوده الاحمر » .

القصة مكتوبة باسلوب حي ، وفيها ملاحظات بارقة ، ولكن لا أنكر ان النهاية كان فيها تكلف غلب فيها العقل الموحي على الواقع ، لان هذه الوطنية يمكن ان تفهم بدون تجزؤ هذا اللون الاحمر الذي لمع في وجهه على ومضات مختلفة. واني أعيذ هذا الكاتب من ان يخيفه اللون الاحمر ، ولو أوحت به اليه تلك الغجرية الحسناء عند ما صارع حبيبها الثور ، وهاجمه باللون الاحمر .

اما مقال « العالم الخارجي » فهو دراسة فلسفية للدكتور « مرحبا » وتقريب ، كما يراه الفيلسوف الانجليزي «راسل» والمقال فلسفي مكتوب بلغة واضحة ، تساهم في اشراك القارىء في الاطلاع على أحدث التيارات الفلسفية .

اما قصيدة « الطريق القديم » فهي قطعة بسيطة بصورها وايقاعها ، ليس وراءها ذلك الجو الفسيح .

ونأتي الآن الى معركة أدبية صالت فيها الأقلام ، واحتدم الصراع حول خرافة الاشعاع . وهو مقال مؤكد لمقال سابق كتبه احمد ابو سعد . والمقال يتناول الادباء الذين تهمهم

ذاتيتهم ، والادباء الذين يستمدون أدبهم من مشا كل مجتمعهم. وابو سعد يحاول ان ينكر على الاولين أدبهم لانه غير صادق ، ولان اشعاعهم خامد في مصابيحهم ، ويدعو الادباء الحقيقيين الى البحث في امور مشتقة من قضايا النـاس ، ومشاكلهم التي يرتبط بها مصيرهم ، وتتوقف عليها سعادتهم

وأنا مع الاستاذ ابو سعد في رسالة الادب ، وعدم وقفها على الجمالية المجردة . ولكني لست معه في الحملة على الشعراء الذين يخالفون هذا المذهب ، ولا سيما من مضى منهم . لانهم أبناء الطريقة الجمالية الفرنسية ، وهي متأصلة فيهم ، لا يطيقون الانطلاق من قيودها لو أرادوا وهم سيمسخون ادبهم لو أرادوا التحول عنها . وبدلا من أن نحاول وضعهم في قوالب جديدة ، فلننظر الى غيرهم ، ولنرجُ الخير في غيرهم .

على أن الادب مهما حاولت اخضاعه لرسالة، فهو يأبى الا ان يتميز بحريته ، ويتمرد حتى على الخير والجمال نفسه . وللشاعر ومضات تأتيه حيناً من مجتمعه ، وحيناً من نفسه . والفن يهمه ان يرى الصدق الشعوري في هذه الومضات مهما كان مصدرها. وهذا أبو سعد نفسه بعد ان أعطى تلك القصائد الحارة ، ماذا يعطي الآن ؟ أظن ان الحرارة لا تفرض فرضـاً ، ولا هي كابر الدم يغذّى بها الضعيف .

اما قطعة « رسالة » فهي من هذا النثر الحديث الذي يتكىء عـلى اختلاف الايقاع ، واستخدام تفعيلة واحدة . وهو يخالف بشكله الشكل الكلاسيكي اذ يؤثر الشكل الذي لا يحفل بقيم الالفاظ ، والصور الفخمة. ولذلك ترى آذاننا فيه نشازاً لأننا لم نتعوده ولم نألفه . على انها تبقى تجربة لا نعرف عقباها .

وهنالك موضوع اقتصادي عملي يريد ان يعالج علة التوحيد الاقتصادي بين البلاد العربية ، ويرجع علة عدم تحقيق هذه الوحدة الى :

١ — اختلاف الفلسفة الاقتصادية المتبعة في كل قطر بحد ذاته .

٢ — والى وجود عناصر قد تتضرر شخصياً من هذا التوحيد ، وهنا موطن الداء العيــاء .

وقصة « الآلة » ادنى الى وصف مشهد ثائر ، يقوم به عامل مطوي « في قافلة الدمى المتحركة التي تعيش بلا انسانية ، وبلا احساس وبـلا شعور على الاطلاق » ومعه عمـال مثله ، ومن ورائهم رقيب منهم ضخم الجثة ، صارم المـلامح يتحملون خشونته ، وهو لا يزيد الا صرامة في الرقابة ، كأن العامل عنده جزء من اجزاء آلته . وفي ساعة ثورة تمرد العامل على الآلة وصاحبها ، فحطمها . ماذا كان ؟ كان رفاقه من العمال اول من بادروه بالضرب واللطم انتقاماً لمطعمهم الذي يضطهدهم ، والآلة التي هي سبب محنتهم . اف لهذا الرغيف الذي يفيد المحتاج اليه !

انها قصة بسيطة ترمز الى نهاية المتمرد الذي يكافح عن المضطهـدين الذين يدافعون عن الظلم ، ويحمون ظالمهم ، وهم اجدر الناس بـالتحرر والقصة خالية من مفاجآت القصة ، لانها الواح مسرودة بسرعة .

وأما كتاب الشهر فقد عرضته عائدة مطرجي عن « مظاهر القرن العشرين » وقدمت له مقدمة توضح سماتـه وغايته . وليس البحث بجديد . فان الآلة لا يزال يتخبط مصيرها عند المفكرين ، ومنهم الراضي عنها ، والناقم عليها.

لقد قرأت هذا الملخص بنهم وشوق ولذة ، وأشهد ان الكاتبة كانت على احسان وتجويد في فهمها للكتاب، وتلخيصها له بلباقة وتجميع لابرز عناصره .

لم يتسر لي ان اقرأ النص الاصلي له ، ولكن هذا التلخيص أغناني عنه ، وإن أغراني به .

وهو من الكتب الدسمة التي يجدر بالعرب أن يطلعوا عليه ... وأن يفيدوا منه الشيء الكثير . والآلة اليوم — كما قلت — تستبد بمصير الانسان والامم معاً ... الا انها أصبحت أقوى من الانسان ...

والبحث يبدأ بمقدمة مفيدة عن دخول العمل الآلي في حياة الانسان . ثم يبدأ تطورها اللاهب في هذا القرن — حين يتناول هذا التطـور مسائل كثيرة في الحياة الانسانية . ومن اهم تطورها ما آل من توسعها الى توسع الاتصال السياسي والاقتصادي بين الامم ، والى اخضاع حرية الانسان الى عمل الدولة التي تمتصه وتفقده حتى حريته الشخصية .

من مظاهر التقدم الآلي خلق « دواوين الكتابة » ومشتقـاتها ، وتتميز بالسرعة الفائقة في تسيير الاعمـال — ولكن الكاتب الذي كان يعتمد على انامله ، واستعاض عنها بالآلة عن قلمه، هل يمكن ان يفكر بدقة وبعمق كما كان ؟— يجيب الكاتب ان لا ..

وكذلك غير التقدم الآلي العقلية المنزلية بما قدم لها من تسهيل ، وتوفير للمرأة من اعمالها واوقاتها ...

وكذلك الاعلان الذي اصبح فناً قائماً بنفسه يحرك عواطف الجمهور . ويبحث عن غرائزه . والاعلان اليوم اســاتذة وفنانون يعملون كما تعمل الآلة . ولكن الاعلان كالفن لا يعرف الاخلاق ... وانما يريد المصلحـــة .

وكذلك السياحة وتوسعها ، وثورة السرعة التي سهلت القيام لهـــا كل ذلك بدل من اوضـــاع الارض ، وغير من ملامح جغرافيتها ... كأنما الارض كانت مغلقة قبـــل الآلة ، فتفتحت الآن عن خفاياها . ولذلك يتبدل العالم امامنا بأسرع من خواطرنا ، فهل نعاند مولد هذا العالم الجديد ؟

وهناك آلات النسخ التي تغني الانسان عن رؤية محدثه ... انها قد أفادت في التكثير من الكمّ ، ولكنها قضت على هذا الشيء الذي لا يحد ، والذي يكمن في الحضور الانساني .

وهكذا اضر تسرب الآلة الى الفنّ بالفن ، ومسخ التفكير الشخصي حين خضع الفن والادب لعوامل تجارية في النشر ، وخضع للنشر قبـــل الفكر ، فانعدمت الشخصية المستقلة في العمل ، وطغى عليها (التكنيك الهائل) الذي حطم عناصر المجتمعات الغربية : بين غاية الثقافة غير ذلك (لانها تحتاج في نشأتها ورسوخها الى الفراغ وتجرد الفكر من المشاكل المـــادية) .

وهكذا يرى الكاتب ان حضارتنا اليوم تؤدي الى فساد مفهوم العـــلم ، والعلم لا يكون خلاقا الا حين يتجرد .

وهنا ، إذاً ، تكمن العلة ... فرجال الفكر والعلم منقسمون : منهم من يؤمن – متأثراً بالطريقة القديمة – بأن العلم والفكر يجب ان يتجردا عن الغاية ، ومنهم من يؤمن بأن لا ضرر على العلم اذا استطاع ان يستنبـــط فائدة او غاية من وراء البحث ، لان الغاية الاساسية هي افادة الانسان ، وتيسير حياة الانسان ... وانا من الرأي الثاني – لانه لا يعقـــل ان يعيش الناس كلهم متجردين لينعموا باللذة المجردة بينما العلماء يتجردون ويخرجون هذه الاشياء التطبيقية لمنفعة الناس ...

وليس على الثقافة ان تعارض ذلك ... لانها تموت . وانما عليها ان توفق بين تجردها وتطبيقها العملي ... فلنجعل الآلة صديقاً ، ولا ننظر اليهـــا عدوة ... لانها ستجرفنا !

وأعيد القول : لنقرأ هذا المقال بتفكر ومتعة ! ولنتخذ منه نموذجاً للتلخيص المفيد للأفكار الكبرى . وليكن ذلك حافزاً للكاتبـــة الى ان تكتب لنا مثل هذا الفصل .

ولا تزال العاصفة تدوي على ذيول المناظرة بين الدكتور طه حسين ورئيف خوري . ولا تزال التعليقات ترد تترى ... واظن أن المناقشة لا تنتهي .. لان الادب له طبيعة خاصة تفرض نفسها على صاحبها ... وليس هو بقالب مفروض ... وأظن ذلك كافياً ... وقد كان تعليق عبد الله عبد الجبار عميقاً ... بينما تعليق عبد الله يونس لا يزال مأخوذاً برسالة الاديب الاجتماعية (والتربوية) ...

و « مسئولية الانسان » مقال ليس له وجهة خاصة ، يريد ان يعين مسئولية الانسان في العالم والتاريخ . وهو يعتمد على عرض سريع ، بارد حيناً ، ودافيء حيناً ، على أني مؤمن مع الكاتب بتعيين مسئولية الانسان في تقويم الحيـــاة ، وصنع التاريخ بارادته . وصاحبه من أنصار القول بارادة الانسان والشعوب في خلق المصير ، وابداع المستقبل . ولن تكون هنالك ارادة تأتي من الخارج لتتحكم في مصيره ... « فالعـــالم هو للانسان لانه صانعه فهو الذي يسير به من حالة الى أخرى فيغير معالمه ، ويبدل بقدرته الخلاقة الكثير من أسسه ... والمجتمع لا يمكنه ان يتطور الا بنتيجة عمل افراده . التاريخ ليس شيئاً مستقلاً عن الانسان بل من صنعه . التاريخ يسير بحسب ارادة الانسان . وعنده أن قعود الانسان عن الشعور بمسئوليته جناية لا تغتفر ، لان وجوده يصبح بلا معنى .

ولكن الى اي حد تصل هذه المسئولية ، وهل التاريـخ يصنعه الانسان وحده ؟

وتأتي في أواخر القافلة قصة « الاذاعة في المصح » وهي قصة خفيفة. مؤثرة ، جذابة بطريقة سردها ، ووصف لوحاتها العابرة ، ليس فيها عنف المفاجأة ، ولا فورة الشعور . وانما هي لوحة بطلها القـــدر اذا صح ان يكون القدر بطلاً . قصة فتاة يعرفها القاص جميلة ، ثم يراها مصادفـــة في المصح الذي جاءه بحكم الاذاعة لاطراب المرضى ، فكان اللقاء مفاجأة قاسية للاثنين ... ويشاء القدر ان يرى نهايتها في تلك الليلة ذاتها . لانها لم تحتمل صدمة اللقاء . وجميل في هذه القصة تقطيعها السريع ، وجريهـــا بسهولة الى غايتها ، وتلوين الطبيعة بما يلائم الاحاسيس ، لان الطبيعة وحدها ليس لها معنى قائم بذاته ... وانما الوانها تنحدر من نفوسنا واحاسيسنا .

وهكذا يجد القاريء فيها الخفة في اللقطات ، والرومانسية الناعمـــة في الشعور ، ولكنها لا تخرج عن طريقة الايحـــاء الذاتي الذي يكون الكاتب فيه بطلاً لقصة .

★

هذه ملحوظاتي العابرة على العدد الماضي ، وجل ما أحب ان اوجه اليه الكتاب ان يلحوا على الموضوعية في أفكارهم ، والشعراء ان يتعمقوا في نقل تجاربهم وشعورهم ، وان يتوخوا البساطة في اسلوبهم ، والقصاص ان ينتقلوا من عالم أنفسهم الى عالم الغير ، لتكثر ملاحظاتهم ، وتتشعب مفاجآتهم ، فليست « الانا » الا عالماً صغيراً ازاء هذا العالم الكبير .

خليل الهنداوى

مُناقشَات

بين قومية وقومية

بقلم عبد اللطيف شرارة

الفكرة ، أي فكرة ، عرضة للتشوه والتكمش والسقم . قد يشوهها اخراجها ، والتعبير عنها ؛ ويسقمها فهم الآخذ بها ، او الباحث فيها ، وربما انكمشت وتقلصت حتى التفاهة ، حين يشرع في تطبيقها بعض المطبقين ...

هذا يفيد ان الفكرة لا تستقي قيمتها من ذاتها كفكرة ، وانما يظل مصيرها معلقاً على طريقة التعبير عنها ، ثم على اسلوب فهمها لدى الآخرين، واخيراً على شخصية من يطبقها ويعمل بها وينقلها من حيز الذهن الى العالم الخارجي .

والفكرة العربية ليست « معرضة للكثير من الاخطار » ولا « هي محفوفة بالضباب والغموض » كما قرر الاستاذ عبد الله عبد الدائم في العدد الخلق من هذه المجلة ، فالناس في هذه الديار، في هذه المنطقة من الأرض، في هذه البقاع التي يضيفون اليها نعت « العربية » يعرفون أنهم « عرب» ، وأن لهم حياة وثقافة وتاريخاً ولغة وروابط تربط بينهم ، متميزة عن حيوات غيرهم من الذين لا يسمون انفسهم ، ولا يسميهم غيرهم : عرباً . وابناء الامة العربية ، يدركون ، على وجه الاجمال ، ان لهم غايتين اوليتين هما : الحرية والوحدة ، وهاتان الغايتان هما اللتان يجاهدون من اجلها ، في المرحلة الراهنة من التاريخ .

الحقيقة هي ان الفكرة العربية محفوفة بالطفيليات والشعوبيات والعقبات والمراقيل والانحطاط المدني والتنازع الدولي ، لا بالضباب والغموض . وهذه الاشياء التي تحف بالفكرة العربية ، هي التي تمنع تحققها من جهة ، وتعوق سيرها من جهة ثانية ، وتجعل حولها هذا الجو الضبابي المصطنع ،حتى لتبدو للعيون — لبعض العيون — غامضة ، من جهة اخيرة ...

أما «ان الفكرة العربية جازت منذ زمن بعيد مرحلة العاطفة ، وغادرت ذلك الطور الذي كانت فيه فورة ضد استعمار عثماني او غربي » فهذا ما لا استطيع اقراره بحال من الاحوال ، لان الواقع لا يقره ، فالقومية من حيث هي قومية ، ليست غير عاطفة الفرد نحو أمته . والامة العربية لا تزال تعاني وطأة الاستعمار في كثير من اوطان ابنائها ، فاذا كان الكائن العربي قد اجتاز « مرحلة العاطفة » فهذا يعني انه لم يعد « قومياً » ! وانه فقد الصله العميقة الحقيقية التي تربطه باهله واخوانه واجداده . وتلك حالة لا يريدها له الاستاذ عبد الدائم . ماذا يريد إذن ؟

يريد من الفكرة العربية ، من الفكرة نفسها — تأمل ! — « ان تحدد خطوطها وترسم معالمها رسماً واضحاً ، فقد اصبحت مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر ، يقابل المذاهب الاخرى السائدة في العصر الحديث ، وعلى رأسها المذهب الشيوعي » .

اكبر الظن ان الاستاذ عبدالدائم وقع في هذه الاخطاء الفكرية كلها ، لانه اتخذ القومية او الفكرة القومية ، حادثاً مستقلا ، منعزلاً ، منفرداً ، واعتبرها كائناً قائماً بذاته ، يطالب باشياء ، وتجري عليه احكام ، ولم يفطن الى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة، وهي ان القومية مرتبطة بالامة ، متحدة بها ، فلا يمكن ادراكها ودرسها وبحثها الا من زاوية الامة او « القوم » اي ان القومية العربية شيء ، والقومية الالمانية او الفرنسية شيء آخر ، وهكذا ... الى ما هنالك من امم ... فحيث وجدت امة ، وجدت قومية تختلف عن غيرها من القوميات .

والقومية لا تدرس كفكرة ، كحادث ، كظاهرة ، كمعنى معزول عن لفظه أو إنائه ، وانما يمكن البحث فيها ضمن اطار الحضارة الانسانية وعلاقة كل امة بغيرها من الامم . والمذاهب الفكرية التي تنشأ في بعض فترات التاريخ ، انما تنشأ في امة متكونة ، حرة ، موحدة ، ولا يمكن ان تنشأ الفلسفات الا تعبيراً عن امة معينة ، في عصر معين ، نحو تحقيق حالة من الوجود جديدة ... فليس من المنطق في شيء ان نطالب الامة العربية اليوم بمذهب يقابل الشيوعية مثلا ، او يقابل الوجودية ، فالامر ، امر المذاهب الفكرية، متروك بطبيعته ، وبالضرورة للامة الحرة الموحدة ولظروفها ، ولعبقريتها الخاصة ، ولا يجوز بمعنى من المعاني ، ولا بشكل من الاشكال ، ان تطلب الى احد ما ليس عنده ، او ما لا يمكن ان يعطيه ، في ظرف من الظروف .

كل ما يمكن ان تطالب به الامة العربية اليوم هو ان تكافح في سبيل استقلال اوطانها ، وأن تبذل ما وسعها البذل من اجل وحدة ابنائها ومقاومة اعدائها في داخلها وخارجها على السواء ، حتى اذا استقام لها ان تتحرر ، وان تتوحد ، انتجت من تلقاء نفسها ، ودون ان يطلب اليها ، ادباً جديداً ، وفلسفة جديدة ، ومذهباً جديداً ،وفناً جديداً ، تكون كلها تعابير عن العقل العربي ، والعبقرية العربية .

والتاريخ يثبت ان هناك نوعين من القومية : الاول هو القومية التي هي محض عصبية ، محض عاطفة ضيقة ، محض رغبة في السيطرة والاستعلاء والاستئثار . وفيه تدخل القوميات الأوروبية،منذ تكونت امم اوروبا الى اليوم ، والثاني ، هو القومية الانسانية التي تراعي بها الامة معاني الحق والعدالة والايمان بالانسان والخير وما أشبه ، وتحمل معها رسالة لغيرها من الامم ، وقد ظهرت حتى اليوم ثلاث قوميات بهذه الاوصاف ، على مسرح العالم ، هي الهندية ، والعربية، والروسية .

وهنا ، لا سبيل الى التفلسف والعاطفة ، فالتاريخ واضح، اذ لم يؤثر عن الامة الهندية انها اعتدت على غيرها من الامم ، ولا ظهر لدى فلاسفتها ما يشير الى قسوة وغلظة وفظاظة وتزيين للشر ، وطمس للحقائق ، ولا وقفت يوماً تمنع على غيرها الحياة : هذي هي الانسانية !

وكذلك هو الشأن في الامة العربية ، فانها تكونت في خط انساني واضح ، ونشوء النصرانية فيها والاسلام لا يعنيان سوى انها انسانية الاتجاه . اما الصهيونية فليست غير امتداد الوثنية وعبادة الاصنام ، وتمرس بالاساليب الوحشية الاولى ، في مظاهرها الاخلاقية والسياسية ، ولهذا وجدت هوى في نفوس الغربيين الذين يناصرونها ، ويشدون ازرها ، ويساعدونها على العدوان في مسلكها الاخير !

اما الامة الروسية فلا اجد لي تقرير واقعها ، افضل مما وصفها به احد ابنائها المشهود لهم بسمو العقل ، ونزاهة الخلق ، اعني الفيلسوف العظيم نقولا بردياييف، في كتابه « مصير الانسان » حيث يقول : « الادب والفكر الروسيان اظهرا عمقاً مدهشاً في الرأفة والعطف ، وكان لهما

اثر ضخم في اذكاء الوعي الاخلاقي لدى الانسانية . لقد كانت رسالة العبقرية الروسية المبدعة ان تنشر في الناس التراحم والحنان والعطف . والعقل الروسي لا يستطيع، في ارقى ذرواته، ان يطمئن سعيداً بينما يرى الآخرين من حوله ، بائسين . فالاكتفاء الذاتي ، والاغتباط الشخصي ، امران غريبان عن الوجدان الروسي الاخلاقي ، سواء في الجانب الفردي او القومي ، وان في الاسرة او الطبقة ، وهذا ما يلقي النور على رسالته الاخلاقية . ان الوجدان الاخلاقي لدى الروسي يضع الحب والرفق بالانسان فوق حب الدولة والامة ، وفوق العلم والمدنية ،والاخلاق المطلقة وما اشبه ذلك ... »

يجب ان اشير الى ان قائل هذا الكلام غير شيوعي ، بل هو من اعدى أعداء التفكير الشيوعي ، وقد نفته السلطات السوفياتية من بلاده ، لما اظهر من شدة في مقاومة النظام الشيوعي الذي ساد مؤخراً في روسيا . ومقاومته هذه للفكر الشيوعي تجعل لكلامه قيمة لا تعدلها قيمة ، فهو تعبير عن القومية الروسية من جهة ، وهو اقوى واقدر من غيره على ادراك الواقع في بلاده ، من جهة ثانية .

ونعود الى قضيتنا القومية في هذه البلاد ، فنجد ان الرسالة التي يحملها العرب كأمة ، لا تختلف في كثير ولا قليل عن رسالة العبقرية الروسية كما وصفها برديايف ، وانها تسير في خط الرسالة الهندية ، والرسالات الثلاث ذات طابع انساني واضح .

بقي ان اوضح نقطة تحدث عنها الاستاذ عبد الدايم وظلت غامضة هي ان « الغرب يمر (اليوم) في مرحلة هي مرحلة العودة الى القوميات» هذا صحيح ، ولكن عودة الغرب الى القوميات ليست في مصلحة امتنا العربية ، ولا مما يخدم رسالتها الانسانية ، فالغرب هو الذي غذى«القومية الصهيونية» ومدها بالعون والايد والقوة ، والغرب هو الذي يحاول انشاء « قومية كردية » في صميم البلاد العربية ، والغرب هو الذي يساند « القومية الاجتماعية » في لبنان وسوريا والعراق .. وجميع هذه القوميات تناويء القومية العربية وتتربص بها الدوائر ، وتمنعها من تحقيق نفسها ، واداء رسالتها في العالم ، وهي التي تشوه الفكرة القومية في نفوس الناس . وتعطيهم عنها صورة بغيضة ، وتزين لهم الشيوعية .

على الغرب اذا كان صادقاً في تفكيره القومي ، في مناوأته للشيوعية ، وفي دعوته الانسانية ، ان لا يحول بين الشعوب وامانيها في الاستقلال والتحرر الوطني ، وان يعمل بما تمليه الديموقراطية الحقة من عدل ومساواة في معاملة الامم ، وبذلك وحده « يتضح في الاذهان ان الاممية تبعد عن الانسانية » .

اما القومية العربية فلا خوف عليها ، لانها انسانية النزعة ، بحكم انها عربية .

عبد اللطيف شراره

القومية ... ذلك المعبود !

بقلم محمد عماره

تحت عنوان « انسانية لا اممية » تناول الاستاذ عبد الله عبد الدايم ، بالعدد الماضي من « الآداب » ، قضية من قضايا الفكر العربي المعاصر لها اهميتها الكبيرة ، تلك هي قضية « القومية العربية » وكم هو جميل ومفيد لشعوبنا العربية ان يتناول مفكروها قضايا الساعة بالبحث والدرس والتحليل ... لكن ... شريطة ان يكون ذلك وفق منهج علمي سليم ونابعاً من واقعنا الذى نعيشه ، ومتمثلاً مستقبلنا الذي نرجو ان يكون اكثر اشراقاً، واشد ما يكون بعداً عن مساوىء الماضي وسيئات حاضرنا الحافل بالسدود والعقبات . وهذا – مع الاسف – ما لم يتوفر في بحث الاستاذ الكبير ..

فهو يقرر « ان الفكرة العربية قد جاوزت منذ زمن بعيد مرحلة العاطفة وغادرت ذلك الطور الذي كانت فيه فورة ضد استعمار عثماني او غربي » وليس ذلك بحق ولا يمكن ان يكون ، فالفكرة العربية ، لم تكن في يوم من الايام « عاطفة » مصدرها من خارج نطاق الواقع العربي، ولا كانت في وقت من الاوقات مجرد « فورة » - مجهولة المنبع – « ضد استعمار عثماني او غربي » بل انها كانت تياراً فكرياً نابعا من واقع شعوبنا المليء بجرائم المستعمرين اللصوص ، وايضاً تلك المرحلة الجديدة التي وصلت اليها بلادنا من مراحل تطورنا كشعوب تسير .. ليست وحدها .. بل مع الانسانية الى الامام ، وهي لم تكن كذلك في الماضي وحسب ، بل لا تزال كذلك الآن ايضاً ، فما زال هذا الواقع موجودا لم يمت بعد، وهو لن يموت الا بموت وزوال الاستعمار واللصوصية من اوطاننا العربية.

والفكرة العربية ليست كما يقول الاستاذ « مطالبة بتكوين مذهب عربي واضح العناصر « يقابل » المذاهب الاخرى السائدة « في العصر الحديث » فليس العرب هواة مذهب جديد ، ولا هم يريدون تكوين مذهب، خاص . لمجرد كونه خاصاً بهم . ولا هم راغبون في « مذهب عربي» لا لشيء الا لـ « يقابل » المذاهب الاخرى . وما ذلك الا لان العصر الذي نعيش فيه ، قد اكد – بما لا يدع مجالاً للشك – ان التطور البشري انما يسير في طريق واحد الى الامام وان موكب الحضارة ، انما تؤلفه قوافل الشعوب – كل الشعوب – فليس لكل شعب تطور تاريخي خاص ، بل ان سلم الرقي والتقدم واحد غير متعدد ، والامر في هذا المجال لا يعدو اختلاف الامم والشعوب في درجات السلم التي وصل اليها كل منها ، من التقدم والتخلف فقط لا غير ... فرغبات الامم في مستقبل افضل لا تختلف باختلافها، وامل الانسانية فيمجتمع ارقى خط مشترك بين جميع الشعوب... وليس الجنس او اللون او المناطق الجغرافية بخالقة للمذاهب المتعارضة ، بل ان الواقع الانساني – وهو مصدر المذاهب – ليدعو كل الشعوب الى سلوك الطريق – وهو طريق لا طرق – نحو التقدم والارتقاء .

ويتعرض الاستاذ الكبير في بحثه لتطور الفكرة القومية ، فينكر اننا سنخرج من نطاق القومية كما خرج اسلافنا من « التكتل القبلي والمنزلي والمدني » ولست ادري – ولعل الاستاذ لا يدري هو كذلك فهو لم يعلل – لم لا نخرج – مستقبلا – من نطاق القومية كما خرج اسلافنا من نطاق التكتل القبلي ؟.. هل وقف التطور عند مرحلة القومية ؟! وهل جمد واقعنا العربي الذى انتج قوميتنا وجمدت معه حركة التاريخ ؟ ! ... الذي اعلمه ان التطور والواقع وحركة التاريخ لم ولن تقف ، او تتجمد في يوم من الايام .

ويتهم الاستاذ مخالفيه في الرأي باتهامات لست بمتعرض لها وانما الذي يعنيني ، ذلك الميزان الذي يزن به الاستاذ فكرة من الافكار ، وذلك المعمل الذي يجري فيه التجارب على صحة او خطأ رأى من الآراء : «ان خير فاضح لفكرة من الافكار ظروف نشأتها ومخاضها » وليس ذلك بصحيح، إذ ان المحك الذي به نعلم قيمة الفكرة وجدواها ، و « الترمومتر»

الذي عن طريق استعماله نحكم للفكرة او عليها ، انما هو التجربة والممارسة العملية ، ثم وزن النتائج، نتائج العمل وتقدير قيمتها بالنسبة لمصلحة الشعوب، ذلك هو المقياس وهو ايضاً الميزان. ويحاول الاستاذ ان يثبت ان « ظهور » الطابع القومي انما جاء نتيجة لطغيان الآلة في النظام الرأسمالي على حياة الانسان ، ونسي ان القومية قد نشأت مع الرأسمالية . وان « ظهورها » لم يتأخر حتى حلول هذا الطغيان .

على اني اعتقد ان الأستاذ انما كتب هذا البحث مستهدفاً تلك الدعوة غير الفريدة غير الجديدة !! والتي يلخصها فيقول : « ان الشيء الملائم لمنطق الشعوب وحياتها ان ندعو الى اشتراكية قومية في مضمونها وشكلها » ولا شك ان في هذه الدعوة ما يذكرنا بالمأسوف على « اشتراكيته القومية » هتلر .. وايضا موسليني ... وكل القطيع ؟!! وذلك هو بيت القصيد ان لم يكن بيت الداء !!

وفي ختام البحث يفرق الاستاذ بين الانسانية والاممية ، مع انه لم يقل لنا ما هي الاممية كما يراها ، كما ان الانسانية عنده لا تعدو ذلك المعنى التجريدي غير المحدد ، والذي يسبح في محيط من الضباب .

وبعد .. فتلك كلمة دعت اليها خطورة الموضوع الذي تناوله الاستاذ عبد الله عبد الدايم ، ولعل القلم يكون قد وفق الى الصواب ، فالصواب هو الغاية التي نطلبها كي نجعل منها وسيلة لبلوغ مستقبل اكثر اشراقاً وأخف قيوداً بالنسبة للانسان .

القاهرة **محمد عماره**

حول الشعر المصري الحديث ايضاً ...

بقلم صلاح الدين عبد الصبور

١ – الى الاستاذ كاظم جواد

١ – الحياة اولا : آفة بعض الادباء المحدثين انهم يبدأون من النهاية... فمن الواضح ان الاديب اولا انسان اجتماعي واع منفعل بالحياة، ثم هو من بعد ذلك معبر دافع نشط في مجاله الكلامي . ولكن فئة منهم يسر لها التعبير، ووهبت الغلبة في القول والذلاقة في اللسان ، ورأت ان الموقف الادبي الآن يتجه اتجاها معيناً . فتبنت هذا الاتجاه ، واستبسلت – بالغلبة في القول والذلاقة في اللسان – في سبيل هذا المذهب . وهي لم تفهم واقع حياتها وانواع صراعه . ولكنها من خلال نماذج عالية من الادب الواقعي تتخيل حياتها ثم يصور لها الوهم غير المحقق انها قد استبانت غاية، واستشرفت طريقاً . ولكنها من عدم ثبات موقفها في محنة خانقة . والا فما رأيك في اديب يقول :

« واني لأعتز بان اشيد مذهبي النقدي على قيمنا الفكرية استناداً الى محاولات سبقنا فيها شعراء في هذا العالم لاقوا في حياتهم الادبية كل نجاح » ويقول « ليس هذا فقط فنحن عندما نتحدث عن قيمة ادبية ندعو لها فهناك استعداد مقابل لكي نزج بالنموذج ايضاً من انتاجنا »

وهكذا يتحقق كلامي ، قيمة ادبية تتقرر وتتضح في ادب عالمي ممتاز فنسرع بصب قصيدة في هذا القالب المأثور طمعاً في ان نلاقي في حياتنا الادبية بعض النجاح الذي لاقوه ..

لو سألت احدهم – وهو آمن مبتهج النفس – لماذا انت واقعي ؟ لأجاب « لأن المسرح للادب الواقعي ... وانا احب التمثيل » . ولو سألته « هل استبصرت بكفاح العامة في سبيل امتلاك الحياة ؟ » لقال « وماحاجتي، وقد قرأت لفلان وفلان و ... »

أما نحن ، فقد القينا بقلوبنا في المعركة . معركة احباب الحياة . وثملنا بانتصاراتها وبكينا انكسارها . وكان شعرنا سكرنا وبكاءنا .. ولا علينا من النماذج والتقاليد .. اننا نتنفس الحياة بشغف ومرارة . ونهدم ونبني ونبشر ونجدف . وقد يمسنا الشعر بجناحه فنلتهب . ولن يستطيع احد ان يحرمنا شرف المحاولة وقداستها وعمقها ..

٢ – اختلط علي الامر .. هل قصيدتي « الحزن » كتبت سنة ١٩٥٥ كما قلت ام سنة ١٩٥٢ كما اقول انا، وهل تسلت من القرن الثالث كما عدت انت فذكرت ام نقدس القرن الثالث العظيم عن هذه التفاهة .. وتبعاً لذلك هل نطبق عليها مقاييسك ام مقاييس الجرجاني . سيدي ! هل هذا طلسم ؟ اي المقاييس شئت فطبق، وكفاك شغلاً لي وللقراء .. الق بها في الجحيم او اكتبها في منشور وحذر منها الناس او افعل بها ما تشاء انت وذلك الشاعر الفرد الجهير الصوت الذي كتب رسالة من وراء البحار الى صديق ناقد فجعلها شاهدا على ضيقه بالشعر الحديث.. بصراحة لقد مللنا هذا واشباهه .

٣ – انتظر – على شوق ولهفة – مجموعة « خمسون قصيدة » وسافيد منها بقدر ما يستطيع ادراكي العاجز . وسأقرأها مثنى وثلاث ورباع وفي كل مرة ساذكرك على البعد شاكراً محباً. هذا ولم تعجبني – بصراحة – ابيات ماخادو : ليس فيها احساس بالمأساة كما قلت . ولعل ما اعطاها قيمتها التي ذكرت انها مكتوبة بأحرف لاتينية وانها منقولة من لغة غريبة الى لغة اخرى. اتراه قال اكثر من انه ضرب بالبنادق بعدان سار بينها تحت النجوم في الفجر . وسقط في غرناطته ؟ هذه ليست مأساة لوركا يا صديقي ... يجب ان يرتبط لوركا بالمعاني التي مات في سبيلها ، بالكفاح ضد الفاشية ... بالديموقراطية ... بالحرية

انظر : واتى السياف مسرور واعداء الحياه
صفعوا الموت لاحباب الحياه
وتدلى رأس زهران الوديع
. . .
كان زهران صديقاً للحياه
مات زهران وعيناه حياه
فلماذا قريتي تخشى الحياه

واقرأ في اول القصيدة اثر المأساة في النفوس القروية :
وثوى في جبهة الارض الضياء
ومشى الحزن الى الاكواخ ... تنين له الف ذراع
كل دهليز ذراع
من اذان الظهر حين الليل .. يا لله .. في نصف نهار
كل هذي المحن العمياء في نصف نهار
مذ تدلى رأس زهران الوديع ..

٤ – استوقفني نعتك النزعة الاقليمية بالوضاعة وآلمني. سأشرح لك موقف اخواني وموقفي من الاقليمية والعروبة والقومية وغيرها من الدعاوى .. اننا مصريون اولاً ، لغتنا العربية .. وليس هناك عنصر عربي خالص . فانت ادرى بأن المنصرية زيف ودعاوى قاصرة اصطنعتها الفاشية حيناً والنازية حيناً آخر . ومن مظاهرها الآن اضطهاد الملونين وسفك دم

الابرياء في افريقيا وآسيا . ولن يدفعنا استنكارنا لهذه الاخطاء الى ان نصدر عن نفس ايديولوجيتها القاصرة المتعسفة . وفهمنا الواقع العربي فهم اكثر تقدماً ووضعية . ليس العرب اشرف الاقوام وليست اللغة العربية اشرف اللغات بل وليس هناك عرب بالمعنى العلمي للامة والقومية .. هناك مجموعة من الشعوب متحدة اللغة تواجه مع شعوب العالم الاخرى نفس المشاكل . ولها نتيجة لوضعها الاقتصادي والجغرافي مواجهة كاشفة للاستعمار المقنع برأس المال العالمي وللمستوى المنحط للحياة والقصور في حاجات الملايين من ابنائها كما انها تصارع خيانات بعض اهلها . وفي كل شعب من هذه الشعوب تبرز قوة نامية صاعدة تحاول ان تقيم الحياة تبعاً لمفهوم علمي واقعي داخل اطار متميز من حاجات شعبها ووضعه التاريخي وارهاصات مستقبله . وكفاح تلك الشعوب كفاح موحد في خطه العام ولكنه منفرد في خطواته وسبله وله انتصاراته الخاصة وسماته ومعاركه .. ذلك ان لكل شعب من هذه الشعوب ذاتيته المنفردة .. فالفتح العربي لم يلغ تاريخ هذه الشعوب ولم يمح وراثاتها .

ان النظرة المتخصصة للصراع العالمي تتبين لكقوتيه الرئيسيتين ... راس المال العالمي بمظاهره من استعمار وحكومات رجعية وكهانة غيبية وفلسفات عقيمة ... وقوة اخرى عالمية ايضاً نامية دائماً نطمح انا والاصدقاء ان نكون من السنتها العالمية .

اننا بعيدون عن الهتافات الجوفاء والعنصرية المدعاة، مرتبطون في نظرتنا للواقع العربي بمنهج علمي . ولذلك لن ننزلق الى هذا الفهم الوثني للصراع العالمي . وسنعتز باقليميتنا (الشريفة) بوصفنا فيلقاً من الفيالق المجندة لاعادة بناء العالم ...

٥ - وردت في حديثك الفاظ الفصاحة والجزالة والسلاسة تنعت بها اللفظ الشعري .. هذا خطأ يتورع عنه الناقد الحديث . ليس اللفظ فصيحاً او جزلا في ذاته .. الألفاظ في القاموس جثث موتى وليس بينها تفاضل جرسي . ولكن الالفاظ تحيا في البنيان اللغوي فتستمد معانيها وايحاءاتها من النظم (وهذا كلام القرن الثالث الشريف) . اللغة مجموعة علاقات بين الالفاظ . ولو صح رأيك في فصاحة الالفاظ المجردة وجزالتها لقسمنا الفاظ اللغة الى قسمين قسم فصيح جزل وقسم غيره . واهبنا بالشعراء ان يحوموا على الفصيح الجزل ويعفوا عن غيره، وحبذا لو قت انت بهذا الجهد وانفقت فيه وقتك .. فانك بذلك تحسن صنعاً .

لم يفسد الشعر العربي قدر اصطناع لغة خاصة ، فاصبح طلاسم لا يقدر على حلها الا الذين جاوروا في الازهر او تفقهوا في الكتب الصفر . وكان معيار شاعرية اللفظان يكون خارجاً لتوه من بطن المعجم .. اما السلاسة فحدثني كيف يكون الاسلوب سلساً : ابالصحة النحوية ام بالسلامة اللغوية ام بخلوه من التعاظل وتنافر الحروف؟ ليتك قلت شبيه ذلك ... ولكنك لم تقل شيئاً لان الاسلوب يا صديقي ليس ما توهمت ، ليس الاسلوب هو اللفظ ولكنه التناول. وبهذا المعنى قال ناقد « ان الاسلوب هو الرجل ».

اما اننا نتكلم اللغة التي كتب بها المتنبي اشعاره العالية فهذا كلام فيه نظر ... اماتت لغتنا العربية بوفاة المتنبي وحفظت ووضعت في متحف ؟ الم تتطور ؟ .. الم تتغير بتغير الحياة فاختفت ألفاظ وخلفت مكانها لالفاظ اخرى ؟ .. لماذا تنعي الينا لغتنا بهذه القسوة ؟ .. الم يتميز ذوق المتنبي اللغوي عن ذوق امرىء القيس . وليس هذا ظاهرة تروع ولكنها بشرى بنماء اللغة وتطورها .

اللفظ يمر بمراحل ... يجري على لسان الجيل من الادباء فيحيا ويكتسي مدلولا واضحاً وتتميز له علاقات بالالفاظ الاخرى وتشع منه ايحاءات واضحة، وذلك ليس تبعاً للمصادفة، ولكنه خاضع لمناخ اقليمي معين ووراثات صوتية وفيلولوجية مرصودة، حتى اذا نفد ما فيه من ايحاء لبعد العهد بينه وبين العصر او لصعوبة صوتية فيه او لكثرة استعماله حتى فقد مدلوله وبلي كما يبلى الثوب الخلق انتقل الى خلف المسرح مخلياً مكانه لالفاظ اخرى يعطيها مدلولاتها وايحاءاتها لسان اديب قادر مستجيب لزمنه وجيله واهل لسانه .

ليس هناك اذن مقياس ثابت للفصاحة والجزالة، ولذلك لا تستغرب الدعوى التي بشرها استاذنا بالجامعة من ضرورة تغيير منهج المعاجم فيجب ان يكون لكل لفظ تاريخه الخاص موضحاً دلالاته المتغيرة على مر العصور بترتيب زمني - ومبلغ علمي ان كثيراً من المعاجم الاوروبية تصنع بلغتها - اكراماً لها - هذا الصنيع ...

٦ - واخيراً ... سيدي ، اني لا استبين موقفك ... وقد اخطأت حين وصفتك بالمادي الجدلي ... وقد حيرتني . واني لاحاول ان اشد حملاقي لكي احسن رؤيتك ... ولكن عبثاً . ولعلي ضعيف الرؤية ولعلك لست واضحاً ... والسلام .

ب - الى الاستاذ بدر السياب

كنت اؤثر الا التقي بك في هذا المكان .. فان لك لشعراً باهراً . ولم تفسد الخصومة ذوقي بعد . ولكن ما حيلتي ، وقد برزت اليّ تحمل سلاحك منفعلا كفارس صليبي .. لقد قرأت في العروض قليلا وهو يسمح لي ان اقول ان ما اخذته عليك في رجزك لا يقل مغالطة عن ما اخذته علي . اما البيتان اللذان جنت عليهما المطبعة في العذر ، فاولهما غير مفهوم سواء اكان سماً او سلماً . وانا - واقسم بجميع المقدسات - لم افهم هذه القصيدة وسواها من قصائدك الملحمية الاخيرة ، ويشاركني هذا الاثم الكثيرون . ونتيجة لعدم فهمي لم افطن الى احتمال الخطأ المطبعي ..

اما من حيث القائمة الموعودة فآتية قريباً . ولكن انظرني بعض الوقت حتى اشتري كتاب العروض واجلس اليه والى شعرك واقطعه بيتاً بيتاً لاتبين ما فيه من خبن ووقص وطي وقبض وترفيل وتذييل . ولا بد انك ترثي لي الآن لانني ساشغل نفسي بهذا العمل الخائب والسلام ...

القاهرة صلاح الدين عبد الصبور

من الجمعية الادبية المصرية

معركة الوعي العربي

بقلم سامي عطفه

مما قاله الدكتور كمال يوسف الحاج في باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » تعليقاً على مقالي « شريعة الهدم في الانجيل الضائع » ما يلي : « ان التاريخ لم يصبح علماً كمياً غير قابل للجدل ، هو كيف ذي حدين يمكن اعتباره الى فوق كما يمكن اعتباره الى تحت وفق ما يختلج به المؤرخ من نزوغ او نزوع .» ثم اشار ايضاً الى ان « التطور لا يحصل الا بحركة جدلية ».

هذا هو القول الذي انتقيته من كل ما كتبه الناقد الكريم حول مقالي وتركت ما ورد قبله وما اتى بعده لاؤكد للاستاذ قدري قلعجي حسن

نبتي ، في اي نقاش كنت فيه طرفاً ، ثم لانه قد كشف عن حقيقة مهمة بالنسبة لدراسة التاريخ كما هو بالنسبة للفكر التأملي والفكر الموضوعي، وهذه الحقيقة هي الجدل (الديالكتيك) العلمي ، فما هو هذا الجدل ؟ ليس الجدل مشادة ولا خصومة في القول همها اقامة الحجة على الخصم كيفما اتفق باستخدام المنطق الصوري تارة والبراعة الادبية تارة اخرى .

ان الجدل هو الانطلاق من الجديد بالمشكلة ، وتنظيمها على اساس جوانبها المتعارضة تعارضاً يسير بالمشكلة قدماً في طريق الكشف ، والحادثة التاريخية المركبة من جملة من الدوافع وتصارع القوى في حاجة قصوى الى الجدل ليكشف عنها ، فاذا ما اثيرت الحادثة التاريخية ، في ثوبها الكلامي بدت منسجمة في السطح ، الا ان عمقها يكشف عن جوانب متناقضة ، يفضح بعضها بعضاً ، ويكمل بعضها بعضاً ، فتبدو عندئذ الحادثة التاريخيـة ملتهبة بالحياة والنماء .

هذا بالنسبة الى دراسة التاريخ ، لكن الدكتور الحاج قصد في كلمته الاولى ان البعض يطيب لهم ان يناقضوا الحقيقة التاريخية بابراز نقيضها ، ليس من اجل حقيقة تاريخية ولكن لان النية الخبيثة تدفعهم الى ذلك . واما كلمته الثانية « التطور لا يحصل الا بحركة جدلية » فقد قصد بها الى ان التاريخ لا يتقدم ولا يتطور إلا بحدوث جملة من التناقضات التاريخية التي يدعو بعضها بعضاً ، فيتناوب التقدم والتأخر والرقي والانحطاط والعدل والظلم الخ .. من المتناقضات ، وكأني بالدكتور الحاج يعني بذلـك ان حوادث العنف والطغيان في التاريخ العربي لم تكن شاذة ابداً ، بل هي طبيعية تماماً ، حيث ان تحقق العدل في فترة من فترات التاريخ يدعو بكل بساطة الى حلول فترة من الظلم والجور ، كما يدعو حلول المساوىء والفساد الى الاصلاح والثورة .

وعلى كل حال فان الجدل يهدف الى غاية رغم الصعوبات والمشاكل التي يثيرها في حركته الغريبة، وهذه الغاية هي الوعي الكامل غير المنقوص. وعندما نسقط هذه الغاية الرفيعة نكون قد اسقطنا المذهب الجدلي بكامله ، ولذلك فان اية دراسة للتاريخ العربي يجب ان تحمل معها غايتها الرفيعة وهي تحقيق الوعي القومي في نفوس العرب .

وتاريخنا العربي ، الذي بقي مستوراً بحجب قاتمة كثيفة ، في حاجة إلى الكشف عنه ، كشفاً تاماً لا مواربة فيه ، فنحن العـرب نقف اليوم في ظرف خاص جداً ، اننا نريد ان ننطلق الى المستقبل ولكننا نقف حائرين مضطربين لا نملك الثقة الذاتية على اقتحامه . فاذا كانت عوامـل فقدان الثقة متعددة فلا شك في ان اهمها هو جهلنا جهلاً مطبقاً هويتنا التاريخية، وما ذلك الا لان تاريخنا عالم مغلق امام اعيننا فلا ندركه ولا نتحسسه .

وسبب هذه العلة هو في ان الدراسات التي حاولت الكشف عن التاريخ العربي كانت تتسم بالسطحية ومسايرة القواعد القديمة التي تناولت التاريخ او اتباع السنة التي سار عليها المستشرقون ، يضاف الى ذلك فقدان المؤرخين المتخصصين لهذا العلم بين العرب ، ولقد ترتب على ذلك كله ، السطحية بكل اخطارها وبشاعتها وتفاهتها في اعطاء قيم يسار عليها في المستقبل . ولقد كانت الدراسات التاريخية تتناول الحادثة التاريخية بكل كثافتها المادية فتقيم سلسلة مترابطة ظاهراً ، من الحوادث تسمى تاريخ امة .

ان المذهب السائد في دراسة التاريخ العربي الذي يعنى ببغداد والخلفاء والغزوات ويشيد باعمال البطولة ويهمل جوانب الحادثة ، هو مذهب يغمر التاريخ بدل ان يرفعه ، ويظلله بدل ان ينيره . والجدير بالذكر هو ان الانقلابات الخطيرة التي كان لها الاثر العميق في التاريخ ، اغفلت اهميتها فلا يمكنك تمييزها الا بالفاصلة الزمنية فحسب ، كما اغفلت القضايا التي سببت هذه الانقـلابات ؛ فمثلا يقال ان النفوذ الأعجمي هو الذي تسبب في سقوط الدولة العباسية ، ولكن احداً من الخلفـاء العباسيين غير مسؤول عن ادخال هذا النفوذ .

حتى لكأن التاريخ ما زال يحمل الطابع الشخصي . فنرى المؤرخـين يخافون ان يحللوا حادثة من الحوادث ، فيهملوها عمداً . فتبقى اسماء كعبد الرحمن الداخل وابي عبدالله الصغير والمنصور والمعتصم والرشيد والمستعصم اصواتاً عابرة لا تترك في النفس اي صدى مع انهم هم الذين رسموا خط التاريخ العربي . كما ان جملة من الاعتبارات القديمة ما زالت قائمة في الاذهان رغم ثبوت فسادها ، فيعرف الحجاج مثلاً بأنه طاغية فاسق .

وعلى كل فان القصد من دراسة التاريخ دراسة جدية سوية ، هو ان نخلق الوعي القومي في الشباب العربي ، وليس مجرد التغني بمـا كان ، كما اتهمني بعضهم بذلك ، فقال بأنني اعيش للماضي واريده مذهباً خالياً من العيوب ، أو بالاحرى اكره ان ينبش امرؤ عيوب هذا التاريخ أمام عيني ، ومن هذا البعض الاستاذ قدري قلعجي الذي قال في رده علي بأنني اعيش للماضي وانني « من اجل ذلك حريص على قداسته وصفائه ، يبرئه من العيوب وينزهه عن الاخطاء . وإن فعل ذلك على حساب الحـاضر والمستقبل .. حاضر العرب ومستقبلهم . . »

انني في الحقيقة قد دهشت لهذا القول ، لانه يعني احد امرين ، فأمـا ان يكون حضرة الناقد قد اساء فهم ما كتبته عن التاريخ العربي في مقالي المذكور آنفاً ، وإما أن يكون قد قصد الى احداث مغالطـة ضخمة في دفاعه . لن تكون ابداً في صالحه .

الحقيقة هي انني لم اطلب الاسطورة البراقة من التـاريخ ، ولا ان يكون مصدراً لسعادة كاذبة ، ولا ملجأ للهرب . بل كل ما ابتغيه هو أن ادافع عن التاريخ العربي أمام رجل يدعي ان العرب عبيد تاريخ ، واذا كنت اقيم للماضي اهمية بمعزل عن المشاحنة فذلك لانني اريد أن اتزود بشيء من الماضي، بروحه وشخصيته في سيري نحو المستقبل وفي عملي الحاضر الراهن ، وانني لأؤكد ذلك رغم ادعاءات حضرة الناقد .

لقد كان التاريخ العربي انعكاساً لنشاط الشخصية العربية ، وكان بعنوانه وآدابه وعمرانه تعبيراً عن الروح العربية ، فاذا كنت اقصد الى خلق نهضة جديدة للعرب ، فما لا شك فيه أن هذا العمل يقتضي مني أن انهل من الماضي الغني . انني اؤمن بالتاريخ العربي لاني اؤمن بالشعب العربي ، واميل الى تقييم التاريخ العربي لاضع في يمين الشعب العربي امكانيات تدفعه الى العمل والنشاط ، ولقد ذكرت في مقالي « شريعة الهـدم في الانجيل الضائع » ان الشعب كالهرم قاعدته في تاريخه الماضي وذروته في تاريخـه المستقبل ، فاذا نسفت قاعدة الهرم تقوضت ذروته ، واذا اهملنـا ماضي الشعب فاننا نهمل ايضاً مستقبله. وهذا يوضح انني لم ادع القصيمي في مقـالي ذاك الى ترك النضال في الحاضر . وانما دعوته الى العمل على اساس سليم..!

واعتقد ان القارىء الكريم سيجد بعض الغرابة، على الاقل، في قول الناقد الحصيف: « على انني لا استطيع ان افهم كيف يكون من واجبنا ان نقدس الميت من التاريخ، ولا تثريب علينا اذا ازدرينا الحاضر الحي ؟» الحقيقة هي انني لم أقل شيئاً من هذا القبيل، فانا لم ادع الى احتقار الحاضر. ولم اقرر الأمر على هذا النحو . لكن لنتأمل قليلاً هذا التعبير « الميت من التاريخ » ويجدر بي هنا ان اسأل الاستاذ قلعجي هذا السؤال العادي المنسجم مع رأيه في الماضي والتاريخ. لو عرض على الاستاذ قلعجي ان يتخلى

عن جنسيته العربية وان يتجنس بالجنسية الامريكية او التركية ، فما ترى يكون موقفه من ذلك ؟. والاجابة بسيطة وهي ان الكاتب الذي يحتقر ماضي امته وتاريخها لايجد بأساً في اتخاذ هوية اخرى. خاصة وانه يستطيع ايضاً ان ينشط في الحاضر والمستقبل عن اساس هويته الجديدة ..!

ولقد اساء الاستاذ قلعجي ايضاً فهم غايتي في الحديث عن حاضر الامة العربية ، بل لاقل انه قد فهم اقوالي رأساً على عقب . فانا لم اشتم حاضر الامة ، وانما الحت في مقالي ذاك الى عوامل الضعف التي تشبثت بحاضرنا ، وما احسب ان هناك رجلاً آخر يدعي اننا الآن في عصرنا الذهبي الا اذا كان قانعاً بهذا الحاضر ، وانني اعود الى التأكيد مرة اخرى ان واقعنا الآن واقع سيء ، وليس ابلغ في الدلالة على انحطاط حاضرنا من الاشارة الى فقدان العرب السيادة في فلسطين ، حيث طردوا منها ليحل في ارضها شعب غريب ، والى انه بينما يتمزق المغرب العربي بنيران الاستعمار الفرنسي واساليبه القاسية نجد سفراء فرنسا يتصدون موائد الحفلات الرسمية في دمشق وبغداد وبيروت والقاهرة .

وعلى كل حال فانني لم اشر على الاستاذ قلعجي ان يمنح الحكام العرب ثقته ولا ان يحجب عنهم هذه الثقة كي يصبح قومياً عربياً شريفاً ، فقد تركت لذكائه الخيار في هذا الشأن وان ابسط وعي سياسي يجعلنا ننتقد الحكام عندما يخطئون او يسيئون ، ونصفق لهم عندما يحسنون .

وان من اطرف ما ورد في مقال الاستاذ قلعجي ، حديثه عن الاستعمار ، ورغم ان هذا الحديث موجه الى الدكتور عبد القادر القط ، فانه لمما يسعدني ان اجيب الاستاذ قلعجي بالسؤال التالي : « اعتبرت ان التأخر سابق تاريخياً على الاستعمار ، فلماذا لم تحدد في قولك زمان التأخر وبدايته؟!. وما هو التأخر وما هو الاستعمار ، في التاريخ العربي ؟»

لقد قال الناقد ان التأخر يمتد تاريخياً الى ما قبل العهد التركي بزمن طويل ، وهذا حق ، واني اقره على هذا القول ، غير ان الاستعمار يمتد ايضاً الى ما قبل العهد التركي بزمن طويل اي انه يرافق التأخر ، وهذا ما لم يقرره حضرة الناقد بل انه ليزعم أن التأخر هو سبب هذا الاستعمار ، وبذلك لا يكون قد افسد فكرته الاولى فحسب ، بل انه ليشير بذلك ويؤكد بان التأخر شيء طبيعي في النفس العربية ، وصفة اصلية من صفات الشخصية العربية ، وفي هذا تجاوز لم يبلغه الاستاذ عبدالله القصيمي وما بلغه ايضاً السيد هنري مارتن الذي جرد الشخصية العربية من حوافز النشاط الانساني.

ذلك اننا لو قلنا بان التأخر او عوامل الانحطاط، صفة طبيعية للشخصية العربية ، لكان ذلك يعني ، ان العصر الوسيط العربي كان طبيعياً ، ولم يكن شاذاً ان نقع في قبضة الاحتلال التركي ، ثم ان لا يكون لنا اي امل بالمستقبل ، اذا كان عامل التأخر طبيعياً فينا ؟

ان الاستعمار ، هو ان يفقد شعب سيادته بتسلط شعب آخر عليه ، والاستعمار قد يكون سياسياً او اقتصادياً او اجتماعياً ، وقد يكون جامعاً لهذه المجالات جميعها . ومن ناحية اخرى نجد أن الاستعمار قد تطور كثيراً وفي صور شتى عبر التاريخ، وصورة الاستعمار في التاريخ العربي هي الحركة الشعوبية ، التي جمعت ميول الاعاجم الى استغلال السيادة العربية .

ولقد استغلت الحركة الشعوبية كل مظاهر الحياة العربية فتسربت الى الفكر والفن والادب ، كما تسربت الى الدين والسياسة ، وعملت بصورة خاصة على تبني عناصر اليسار في الدولة العربية من الطامعين بالخلافة ، إلى الناقمين على السيادة العربية ، فتبنت الدعوة العباسية ومن بعدها الدعوة العلوية ، وعملت على انتشار الدعوة العباسية ، ايام الامبراطورية الاموية العربية ، حيث بلغت السيادة العربية ذروتها ، واستقطبت الاعاجم في الاطراف الشرقية ، وحدثت موقعة الزاب الشهيرة التي كان فيها انتصار الشعوبية على العربية ، مبطناً بانتصار الاسرة العباسية على الاسرة الاموية ، غير ان الخلفاء المشاهير في الحقبة العباسية ، رأوا خطر الحركة، فقلموا اظافرها . فقتل المنصور أبا مسلم ، وقتل الرشيد البرامكة . غير ان الشعوبية عادت بسرعة فانتصرت انتصاراً كاسحاً على يد المأمون الذي زحف بجيش فارسي ليدمر العاصمة العربية . لقد كان المأمون ابناً لفارسية ، كما كان المعتصم من بعده ابناً لتركية فألف الجيش التركي ، بينما تفرق الجند العرب ليمارسوا الزراعة في الاقاليم .

ولقد كان احرى بالناقد ان يدرس الامر ولو قليلاً ، فالاستعمار الحقيقي بدأ منذ انحلال السيادة العربية ، وليس التأخر هو سبب الاستعمار كما زعم ، بل ان الاستعمار هو سبب التأخر .

ويتبسط الاستاذ قلعجي في حديثه عن الاستعمار فيسأل الدكتور عبد القادر القط ببراعة :

– « وما رأي الدكتور في ان الاقطار التي لم يدخلها الاستعمار هي اشد الاقطار العربية تأخراً ؟ »

ويحمل تساؤل الناقد المتحدي هذا معنيين ، اولهما ، أن يكون الاستعمار قد اوجد التقدم والرقي في الاقطار المستعمرة، فيكون الاستعمار بذلك مفيداً (!) في علاج التأخر والانحطاط ، وفي نقل مدنية الغرب وحضارته ..! وثانيهما ، ان يكون الاستعمار بوسائله البربرية ، قد أثار الوعي الوطني وحفز هذه الأقطار على التحرر ..

ولكننا لو اهملنا الاحتمال الاول،لرأينا ان الاحتمال الثاني اقل موضوعية من الاحتمال الأول ، وان كان يدل على الذكاء . اذ ان اي مراقب للاحوال التي سادت في الوطن العربي يدرك ولا شك ان درجة الانهيار واحدة في جميع الاقطار العربية ، فعندما اصاب الانحطاط سوريا اصاب مصر والحجاز واليمن والمغرب العربي . واذا نهضت مصر مثلاً لم نجد باقي الاقطار الا ناهضة معها . وهذا التوازي في حالة الاقطار الذي يشبه القدر التاريخي ، لم يخطيء الا قليلاً في جميع ازمنة التاريخ .

ونجيب الناقد على تساؤله ، بتساؤل آخر « اين هي الاقطار التي لم يمسها الاستعمار ، ولم يدخلها . اهي اليمن ؟ لقد سميت اليمن مقبرة الاتراك .. والحقيقة كما قلت ان السؤال غير موضوعي لاننا لا نستطيع ان نسمي قطراً عربياً واحداً لم يدخله الاستعمار .

والواقع ان الناقد قد اخطأ ايضاً ، فالمواطنون العرب على درجة واحدة من الوعي،فالمثقف في جنوبي الجزيرة العربية لا يختلف عن مثقفي سوريا ولبنان والمغرب العربي ، كما ان الرأي العام العربي ينفعل بدرجة واحدة ويهتز بمجموعه لنفس الاحداث ..

ان العودة الى التاريخ العربي واحياءه ، ليست هرباً كما يزعم الناقد بل هي انكباب على الماضي العربي لدرسه بصورة وافية ، وهذا التاريخ عدا كونه يقدم لنا العبر والعظات من اجل تفادي الاخطاء في المستقبل . فانه يمتاز ايضاً بانه كان انعكاساً لما تتضمنه الذات العربية من وجدان عميق وعقلية حضارية راقية وخلق رائع قويم . هذه هي الدعوة الى الماضي . حركة فاعلة ومنفعلة ، لا كما ادعى الناقد بأنها حركة رجعية هاربة من واقعها ... الخ ! . ومن المؤكد ان بين دعوتي الى الماضي ، وهي دعوة مقتبسة عن قادة الاجيال العربية الناهضة ، وبين دعوة الاوروبيين الى ماضيهم ، في العصر الرومانسي ، فرقاً عظيماً. فأما ماضيهم فهو تلك العصور

الوسطى القوطية المظلمة . ودعوتهم تلك تتسم بالهروب من الاتجاه المادي الذي طغى على اوروبا منذ بداية العصر الآلي . واما ماضينا الذي ندعو اليه فهو تلك القرون التي شعت فيها الحضارة العربية الزاهرة ، بعلومها وفلسفاتها وفنونها وآدابها ، فليس الماضي الذي ادعو اليه عصراً وسيطاً ، وانما هو ذروة في التاريخ الانساني . غير ان هذه الحقيقة، حقيقةالفرق بين عصر الحضارة العربية والعصر الاوروبي الوسيط، قد غابت عن ذهن الناقد وفي ذلك تجاوز اكيد للحقائق التاريخية .

ولقد تسربت في الحقبة الطويلة التي امتد فيها نفوذ الاعاجم والاتراك اخلاق دخيلة هجينة ، عزلت الشعب عن اخلاقه الاصلية التاريخية ، ولا تزال هذه الاخلاق الدخيلة التي تربي التعصب الديني وتقضي على الدور المخصص للمرأة في المجتمع العربي . وتقطع صلة الانسان بالحياة ، قلت انها لا تزال تنخر جسم حياتنا الاجتماعية، وان حمل هذه« الاخلاق »المستمر، ليدل بصراحة على ان الانهيار ما يزال آخذاً برقابنا ، واوافق الاستاذ قدري قلعجي على ان هذا النوع من « الاخلاق » لا يسير بنا نحو الانحطاط فحسب ، بل يقتل فينا كل احساس بالكرامة والاباء ويصلنا بالخرافة والعزلة واوهام الشعوذة ، واول ميزة لهذه الاخلاق انها تقلب مفاهيم الشيم العربية ، فالايمان ينقلب تزمتاً ، والحلم ضعفاً والداعة تقاعساً ، وهذه الاخلاق التي تواكب التعصب الديني هي مايقطع صلتنا بهذه الارض، وما يلغي الشعور الوطني ويقوي الشعور الطائفي. غير ان الحملة على هذه الاخلاق لا يعني ان نرفض اخلاقنا القومية . ويخطيء الناقد عندما يدعي اننا ما زلنا نحمل هذه السجايا . وكما ان على الاحياء الخلقي ان يحارب تلك الاخلاق المزيفة فان عليه ان يواجه ايضاً الميوعة الخلقية التي امتدت تحت ظل المستعمر ، لان هذا التحلل الخلقي الاوروبي ، هو اول ما يقوض روح المسؤولية في الفرد العربي ، ويضعف ارادة المواطن .

إن لنا طابعنا التاريخي المميز ، ونحن اقدم من اوروبا واقدر منها على الاستمرار في التاريخ . ان الكائن الاوروبي يتربع بكل كثافته المادية على صدر العالم ، والعالم تبعاً لذلك يتنفس في ثقل ينذر بالموت والانقراض للجنس البشري . وان نداء « لسنا اوروبيين » ليدل على ان الحلول الاوروبية لا يمكن ان تجدي شيئاً في وضعنا،بل ان الحلول الاوروبية كالكابوس الذي يرهق كياننا العربي .. فنحن في حاجة الى حل عربي صادر عن حاجتنا . ومما يؤسف له ان الناقد كان اوروبياً تماماً ، وكذلك كان الاستاذ عبد الله القصيمي ، وقد لاحظ الدكتور عبد القادر القط ذلك في نقده مقال الاستاذ القصيمي : « حسبك ان تقرأ كتاباً واحداً في الادب الاوروبي عن تلك الموضوعات لتظفر بكثير من مثل تلك الاقوال » . ولم يعترض الاستاذ قلعجي على هذا النقد الا بالقول : « ان هذه الاقوال التي قد تجد كثيراً منها في كتاب اوروبي واحد ، والتي يرددها العامي في بلادنا بحماسة ، هي من جوامع الكلم التي تمتاز بالقوة والروعة والبلاغة المعجزة، وهي لا تقل عن مثيلاتها من كلمات مونتسكيو وروسو وديدرو وغيرهم من اعلام الفكر . » والاستاذ قلعجي فيما يبدو لم يشأ ان يتعرض الى هذا الجانب من الفكرة ، وكل ما اثاره هو الانتقاص من روعة كلمات الاستاذ القصيمي ، غير انني اذكره بانني لم اكن انتقد قصة ولا قصيدة ، واعتقد ان هذا هو موقف الدكتور عبد القادر القط .

ومما يثبت عدم صلاحية الحلول الاوروبية فشل الانظمة الاوروبية المطبقة في الاقطار العربية ، فلا الشعب استطاع تذوقها ولا هي استطاعت ان تتمثل حاجات الشعب . فقصرت تبعاً لذلك عن النهوض بالشعب ، واذا هي سارت به فهي تسير باتجاه غير اتجاهه الاصيل اي انها تفرض عليه مصيراً غريباً عنه . وان فشل النظام البرلماني قد ظهر صريحاً من الانقلابات المتكررة في جميع الاقطار العربية ، لجعل هذه الانظمة اقرب الى طبيعة الشعب . فمن اتى بهذه الانظمة اتى بها جاهزة كالثياب التي لا تراعي شكل الجسم الصحيح ، وتراعي بدلاً منه الطول والعرض والاستدارة .

ولكن ارجو ألا يفسر هذا النقد بأنني ارفض الانظمة الديموقراطية، فكل ما اريده هو ان يجري تعديل على هذه الانظمة المنطقية حتى تصبح موافقة لواقعنا ولانطلاقنا نحو مستقبل افضل اذ ما تزال هذه الانظمة اوروبية الروح والطابع . ولذلك فانني ارى ان تدخل الروح العربية على هذه الهياكل الاوروبية ، علينا في الحقيقة ان نقف من اوروبا موقف شعب له شخصيته وله تاريخه ، فلا نغرق بروحها لنتلف روحنا . كما ان علينا الا نقف منها موقفاً سلبياً ، ان في وسعنا ان نأخذ عنها كما اخذت هي عنا وعن اليونان .

وبهذه الجوانب الفسيحة تنشأ نهضتنا القومية،فتحتفظ اولاً بطابعنا التاريخي ومقوماتنا الخلقية والوجدانية ، وتنشأ مع ذلك كشعب حديث مؤمن بمستقبله متمكن من حاضره .

***

لقد بقيت ناحية جديرة بالعناية ، وهي ان الاستاذ قدري قلعجي قد سخر من تحذيري اخواني العرب من امكان استغلال اليهود لاخطائنا ، ولقد زور قصدي في ذلك . غير انني انبه الاستاذ قلعجي الى ان اليهود يحاولون محاولة جديدة تهديم كياننا الخلقي ، وهذا ما ذكرته في مقالي « شريعة الهدم في الانجيل الضائع » تعليقاً على آراء الاستاذ القصيمي واعيد ذكره هنا ، ذلك ان شعبنا اذا غرق في الميوعة الخلقية ، فانه سيصبح في قبضة اليهود . ولقد كانت توصيات زعماء الصهيونية هيَ « تهديم اخلاق الشعوب ونشر الدعارة والترف ، وهدم التقاليد القومية ... » وهذا ما يجب ان نعمل لتلافيه .

***

هذا ، وفي ختام هذا المقال اؤكد للاستاذ قدري قلعجي انني ما ناقشته ولا ناقشت من قبل الاستاذ القصيمي ، عن امور شخصية ، كما انني لم اناقشهما على القوة البلاغية او الشعرية في اسلوبها الرشيق . ذلك ان ما كتبه كل منهما لم يكن قصيدة شعرية ولا قصة ، بل كان عرضاً لأمور تهم

كل انسان عربي ولذلك فانني احيل الغمزات وكل ما ورد من هذا القبيل على القاريء الكريم ليحكم بنفسه عليها .

قدموس سامي عطفه

الابطال .. « والبطولة ! »

بقلم محيي الدين محمد

« ولكن من الممكن ان يكون بطل الرواية حراً تماماً ... اجل من الممكن ذلك ، ولكن في حالة واحدة ، هي ان يجعله المؤلف متجرداً من اي لون من الوان المخلوقية ، حراً تماماً ، لا يؤمن بشيء الا بانسانيته ، يتصرف وفق ظروفه ، دون خضوع لمعتقد من المعتقدات او من الافكار تستعبده ، وتملي عليه تصرفات بعينها ... »

١ – يسمح لنا الاستاذ (عواد) ان نخبره بأنه قد دلف طائماً الى جبيننا منذ الفقرة الثامنة ، والتي نقلتها بكاملها (اعلاه) من [نقده .. ١] لمقالنا ...

والواقع اننا ما قصدنا الا لاثبات ما (ابتكره) الاستاذ عواد ... ان ندل بحرية المؤلف ذاته من صميم حرية البطل المستعمل كمرآة ... ومن هو البطل اذا لم يكن جسداً وأعصاباً مؤلفة ..؟!

... ان عصابية (موباسان) التي اخرجت بطل (الكرة الغروية)، وجنونه الذي برز بوضوح في (المهول) ومنتهى ثباته الذي دل بروعة مخه في (آل تلييه) ، تنهي في حسم مشكلة (حرية الابطال) الفرعية .. فما كان ابطال (موباسان) الا نفسه موزعة على (كونت دي فورفيي، وشالى ، ودى لا فاليه) ، ولم يكن كل بطل ممثلاً لزاوية من بعض المؤلف ؛ وانما كان كلا له ... كان درجة بأكملها من درجات البطل المتعددة ، فهو ليس مزروعاً في الشر ، وليس مزهراً في الخير ... انما هو ارتدادات عديدة بين كل تلك النزوعات المختلفة ... [موباسان صغير .!!] يمثل ما للمؤلف نفسه من حرية باختيار المواقف ... لا يخلق المصائر .!!

وما دمنا نختلف منذ البدء ، بتقريرك الذي تزعم فيه سقوط الافراد في (المخلوقية) ، فالمؤلف نفسه اذن يصبح رقيقاً ، وتنتهي احجيتك بن موقف يختلف تماماً عن موقفاً .. فنحن نقول بحرية المؤلف ، وبالتالي حرية البطل ، وما دام البطل حراً فهو غير محتاج بالمرة الى تبرير .. اذ لا يعني سوى ان تصرفات البطل غاية في الغرابة ، وتحتاج ايضاحاً ، وهو ما نكره حتماً ، إذ يؤدي اقراره الى السقوط في احابيل علم النفس .. ولو مبروزو خاصة ..

ان للفرد الحر اتخاذ ما يشاء من مواقف ، ازاء الاحداث المعينة ، ومحاولة التبرير واضحة في انها وشاية للقاريء كي يقتنع بصحة المواقف .. او كي يضخم ، وهنا يبتعد ما نقصده عما يقرره الكاتب ، فنحن نريد للقاريء ان (يدهش) ازاء التصرف الغريب ، ودهشته تؤكد آخريته بالنسبة لذات البطل المفرطة في انغلاقها ...

٢ – ان الماركسي يحتاج حقاً لاهه (ماركس)، والمتدين كذلك .. أما الوجودي ، فلا يحتاج (لسارتر) ، فليس ثمة ما هو مقرر كقانون، ان مهنة الوجودية ، هي كشف حرية الانسان ، ان تدله بما هو موجود ومعطى بقدر ما هو سابق في وعيه .. ان تضيء له طريقه الشخصي ، فليس ثمة ما هو إلهي غير الانسان نفسه . غير الذات التي رفضت عبودية ما هو قطيعي ، وتفردت بوضعيتها .. (وإن الاتجاه الأخير « لسارتر » يدل بوضوح على ثبات حريته ، فهو كفرد ، كجان بول سارتر ، له ان يصبح ماركسياً او زراد شتياً .. معتقداً او غير معتقد .. بطريق حريته .. وهو يدل باتجاهه الذي يختاره ، على حريته التي ليست الا ذاته) .

واولئك الذين عرفناهم باسماء (هاملت واوثيللو وياجو) لم يكونوا سوى ذلك الفرد الحر (وليم شاكسبير) ، والذي وعى حريته ،ففاضت في اندفاعات تيارية صاخبة ، يمثل ما للحياة نفسها من صخب وانعدام روية، ومحض صلابة ..

فاذا ما نزع عن الفرد نضوجه ذلك الرائع ، أصبح الطريق الذي يؤدي لمنعطف انسانيته مهدداً بأن يلتف من جديد حول إطاره الغث طاويا نزوعات اشد اسفافاً من نزوعات سبقت وأهملت في مهاوي النسيان ..

على أن [الحالة الواحدة] – وهذا استثناء من الكاتب ! – ليست إلا (الحالة) التي يطالب بها وعي أعمق انفساحاً ، وانفتاحاً في صميم صبابات تلف في تيهها الوعي الآخر ، والذي يظن .... (احسبني متوقفاً هنا ، خوف الاطالة ؛ والوقوع في التكرار .!!)

٣ – معنى حرية البطل ليس ان يخلق اقداره ١ بنفسه [سذاجة هذا الرأي قاطعة بالطبع] بل هو : ان يواجهها ، ان يجيب بوعي كامل .. خارج عن الأحكام الملفقة والمرسومة له ، السابقة على وعيه ، ان يواجه ظروفه بلا معتقد يمثل هو معنى المواجهة .. اذ ان المفهوم في موقف العقائدي هو ان المواجهة تحدث بين الظرف من جهة ، والاعتقاد من جهة اخرى ، وليس بين الظرف والانسان نفسه كحرية .. كطرف حقيقي ومقابل .. كانتفاضة .. والناتج هو باستمرار تطويع الظرف نفسه للحلول التي يفرضها المعتقد او الدين ، فهو ليس حرا اكثر من جماد بلا وعي !. انه يمثل استسلاماً إزاء ما هو محتاج الى دفقات نضوج عارية عن كل ما هو مقرر ومكتوب وهزومي ...

٤ – اما عن السؤال الاخير فهو مسلاة حقة : ان الكاتب يظن (افعال البطل الغير متوقعة) [لعبة استفهام] بينه وبين القاريء ، ثلاث ورقات يجب الكشف عن وجه مليكتها !! .. لا يا سيدي .. لا .. لا .. أن يسلك كل الابطال ذلك المسلك الذي [لا يتفق مع منطقية الحوادث] والا سقطنا مرة اخرى في (مخلوقية البطل) اذ يعني وجوب كون الابطال غير متفقين مع التسلسل الروائي عبوديتهم لهذا القانون ، وهذا ما ننكره من أصله ...

القاهرة محي الدين محمد

---

١ تتيح لنا هذه النظرة المغايرة (بما فيها من تناقض) ان نرد على نقد الدكتور (القط) لمقالنا [العدد الثامن] بما يلي : ما من مسلمات في (الاستاتيك) ، والذي قننه (ارسطو) يناقش حتى الآن من اساتذة (كسولي برودوم وهربرت ريد) .

مع ما للكاتب نفسه من فهم عجيب لها ..

لبنان

١ . اهل القلم على عتبة عهد جديد

كان المرشحون لرئاسة اهل القلم ثلاثة: واصف البارودي ، سليم حيدر ، ادوار حنين . اما الاول فقد اعلن في بدء جلسة الانتخاب انه يقترح ان يعرض كل من المرشحين برنامجه الذي يرشح نفسه على اساسه. ولما لم يوافق الحاضرون على هذا الاقتراح اعلن انسحابه من الترشيح .

وما لبثت نتيجة الانتخابات ان ظهرت معلنة نجاح الاستاذ ادوار حنين باثنين وثلاثين صوتاً ضد منافسه الدكتور سليم حيدر ، الذي نال اربعة وعشرين صوتاً .

وكان واضحاً ان خيبة الدكتور حيدر ليست انكاراً لادبه وجهلاً لأثره ، ولكنها كانت خذلاً صافعاً للمجلس الاداري الذي كان يدعم ترشيحه فأساء اليه من حيث لا يدري ... فقد تخلت عنه الكثرة الواعية منذ ان اعتمد على فئة تحوم حولها اتهامات واستفهامات ... ولم يكن الدكتور حيدر على جهل بكثير مما يحوم حولها!

وهكذا ، في بادرة واحدة ، عبر الباقون — حتى الباقون — في جمعية اهل القلم عن رأيهم في الفئة التي تحرك المجلس الاداري غير الشرعي ، هذه الفئة التي اشرنا الى بعض تصرفاتها المريبة خلال اثني عشر شهراً ، وكان من ابرز هذه التصرفات توزيع الجوائز الادبية على بعض اعضاء المجلس.. ومن فاتته الجائزة لم تفته منحة مالية لمقال كتبه ، او بيان اذاعه ، او صوت ادلى به في احدى جلسات المجلس !

والآن بعد ان اعلن الرئيس الجديد الاستاذ ادوار حنين عن رغبته الصادقة في تصحيح اوضاع الجمعية،فيعدل القانون الاساسي والنظام الداخلي، وتحكم شروط الانتساب ، ويعاد النظر في جميع الاعضاء ، وتنظم شؤون النادي ، ويحقق في مسؤولية توزيع المال . وبكلمة واحدة بعد ان يجعل الرئيس الجديد الادباء يحسون ان هذه الجمعية جمعيتهم حقاً ، وان الانتماء اليها تشريف وتكريم ، لا نظن ان ثمة اديباً في لبنان لا يبارك رغبة الاستاذ حنين ، ولا يعضده في محاولته التي تصدر عن نفس راغبة في خير الادب ، وتعزيز كرامته ، وبث الحياة في انحائه الذابلة ، وضمان مستقبل اهله .

لن نسبق الاحداث ، ولن نتنبأ بما يمكن ان يقع ، ولكننا سنعلق شهراً بعد شهر على تطورات هذا الصراع الذي يخوضه الاستاذ حنين في وجه عدد من الناس بدأ وجودهم يوم بدأوا يذيلون توقيعاتهم بمناصبهم في اهل القلم !..

٢ — تراثنا الفكري ، من الاهمال الى الفوضى !

في الانباء الادبية الاخيرة ان وزارة التربية والتعليم في مصر قررت نشر معجم لسان العرب لابن منظور في طبعة جديدة ، على ان تظهر هذه الطبعة خلال عام واحد . ومن المعروف ان هذا المعجم نفسه ينشر في الوقت الحاضر في بيروت في طبعتين مختلفتين ، لم تكتمل اجزاؤهما بعد .

ومن يدري ? فقد نسمع قريباً ان المجمع العراقي او المجمع العربي في دمشق قد عزم احدهما على نشر هذا المعجم مرة ثالثة ورابعة . وهكذا يظل الكتاب من تراثنا العربي مهجوراً ، ومجهولاً حتى يتاح له يد تبعثه

اشتات ادبية

● ضمت حفلة الكوكتيل التي اقامها الاستاذ شفيق معلوف في فندق صوفر الادباء وأصدقاءهم من رجال السياسة والاقتصاد والطب . وقد ودع الاستاذ معلوف في هذه الحفلة اصدقاءه قبيل سفره الى البرازيل حيث يعود الى الاشراف على اعماله الواسعة بعد ان تركها منذ ثلاثة اشهر قضاها في وطنه الاول .

● هاجم الاستاذ سعيد عقل بعض النظريات الشيوعية في مقالين من مقالاته الاسبوعية في الصياد . والغريب أن ينشر هذا الهجوم بعد إطراء مكرر كالت به مجلة « الثقافة الوطنية » جيد الاستاذ عقل واثنت فيه على شاعريته واتجاهاته الفكرية .

ولا ندري الآن رأي الزميلة في الاستاذ عقل ، ورايها في اطرائها السابق ?

● انتقلت معركة « تامارا » الى مصر ، فنشرت مجلة روز اليوسف مقالاً حولها . وكانت هذه القصة التي كتبها الاستاذ خليل تقي الدين قد جرّت وراءها سيلاً من التعليقات والمقالات ، ابرزها كتيب الدكتور جورج حنا بعنوان « تامارا والسفير » .

● عاد الاستاذ ساطع الحصري من سويسرا في طريقه الى مصر . وقد حمل معه مخطوطة كتابه الجديد « دفاع عن العروبة » .وسيظهر هذا الكتاب مع الطبعة الثانية من كتابه السابق « العروبة اولاً » في هذا الشهر عن دار العلم للملايين .

● قلق جميع الادباء خلال الشهر الماضي على معلم الجيل الاستاذ مارون عبود ، ولم تطمئن نفوسهم الا بعد ان غادر المستشفى صحيحاً معافى .

● من المنتظر ان ينال احد المؤلفين في تاريخ الادب نحواً من عشرين الف ليرة لبنانية مقابل طبعة واحدة من سلسلة مدرسية ثانوية . ويقدر العارفون ان هذه الطبعة ستنفد خلال الموسم المدرسي الحالي .

● عاد من فرنسا الدكتور احمد مكي بعد ان حاز على شهادة دكتوراة الدولة في الآداب من جامعة السوربون . وسيتولى منصباً تدريسياً في الجامعة اللبنانية .

● ستكون مناظرة الموسم القادم في بيروت حول « الصحافة العربية » هل ادت رسالتها للمجتمع العربي ? ولم تبت كلية المقاصد بعد في اسماء المتناظرين .

النشاط الثقافي في العالم العربي

وتخرجه من مرقده في طبعة جديدة فلا تكاد تظهر حتى يحلو الكتاب للمؤسسات الثقافية فاذا هي الاخرى تريد ان تعمل على اخراجه بدورها !!

وليس التراث الفكري العربي محدود النطاق حتى تنصب الجهود المختلفة وتلتقي عند اجزاء منه قليلة ، فهو والحمد لله ، واسع متعدد النواحي متشعب الموضوعات حافل بالكثير الكثير مما يحتاج الى نشر وعناية وتحقيق واخراج . وليس معجم لسان العرب من الكتب التي تحتمل اكثر من طبعة منقحة واحدة ، لان تداوله محصور بين المثقفين الممتازين واللغويين المتخصصين ، وما اقل هؤلاء في عالمنا العربي !!

ومحاولة الطبع المكرر ظاهرة كثر ترددها في ميدان النشر العربي في الآونة الاخيرة ، حتى غدت تهدد كثيراً من المشروعات النشرية بالتوقف قبل الانجاز ، ومن وراء هذا التوقف ضياع جهود واموال ويأس قراء مما يعكس على المشروعات المقبلة كثيراً من الحذر والتردد من قبل الناشرين والقراء على السواء ، اذ يخشى الناشر ان ينافسه آخر في نشر الكتاب بعد ان يكون قد اعد للامر عدته من تحقيق واخراج يستغلها الاخر على اهون سبيل ، واذ يخشى القارىء ان يصاب المشروع بالتوقف قبل ان يتم ... وقد اعطت الايام الاخيرة اكثر من مثل على ذلك .

وبالرغم من التقارب المادي والتقارب المعنوي بين الاقطار العربية فلا يزال عالم النشر يشهد امثلة مؤسفة من الوان التضارب والفوضى : نشرت دور مصرية موسوعات كبيرة من تراث العرب الفكري ، ثم اقبلت دور نشر في بلاد عربية اخرى واصدرت هذه الموسوعات نفسها مستثمرة جهود الدور الاولى التي كان لها فضل البدء في العمل وفضل اخراج الكتاب من عالم الخط الى عالم الطبع . وها نحن نشهد اليوم مطابع مصرية تحاول ان تعيد نشر كتب سبق لبيروت ان نشرتها منذ اشهر قليلة .

ولا شك ان حرية النشر تبيح لكل عربي ان ينشر من تراث اجداده ما يشاء ... غير ان من حق القارىء على الناشرين ان يطلب اليهم بان لا يسيئوا الى هؤلاء الاجداد بالنشر المشوه او المبتور . ومن حق الحكومات العربية ، والمجامع العلمية والادارة الثقافية للجامعة العربية ان تشرف على نشر التراث القديم وان ترعى تنظيمه فلا نشهد بعدها تزاحماً شديداً على نشر كتاب البخلاء والعقد الفريد والاغاني مثلا فتظهر من كل منها عدة طبعات وفي الخزانة العربية ذخائر وكنوز مخطوطة طال انتظارها لترى النور ...

وسيطول انتظارها ما دام الناشرون يؤثرون سلوك الطرق المعبدة بدلاً من ان يشقوا لانفسهم مسالك جديدة ، في اختيارهم الكتاب المحقق الجاهز بدلا من الكتاب الذي يحتاج الى تحقيق وتدقيق .

ولما كان التضارب في نشر التراث الفكري ليس العاهة الوحيدة التي تعتري هذا التراث وتسيء اليه وتعرقل احياءه ، بل ان ثمة تشويهاً في النشر وسوء تصرف في الامانة العلمية وجهلا يتحكم ويفرض نفسه ... فان كل ذلك يدعونا الى ان نفكر في حرص واهتمام من اجل تنسيق نشر التراث من ناحية وتقويمه من ناحية اخرى ، لنغذي المكتبة العربية بأكبر عدد من ذخائر الاقدمين وننقذ اصحاب هذه الذخائر من اهمال الناشرين وجهلهم ، فلئن ترك لنا هؤلاء العلماء ثروة لا تقدر بثمن واباحوا لنا التزود منها والانتفاع بها فلا اقل من ان نفي لهم بعض حقهم علينا ، ولعلهم لا يطلبون لقاءما اعطوا من ذوب عقولهم وضياء عيونهم وارهاق اجسادهم الا الصدق في النقل . وما اقله من تعويض !

« بهي »



لمراسل الآداب الخاص

الادب في الميزانية المصرية

تتحمل الميزانية المصرية بعض العبء في مؤازرة النشاط الادبي ، ومن مظاهر هذه المشاركة من جانب الميزانية في نشاطنا الادبي : جائزة الدولة التي توزع سنوياً على اديب او عدد من الادباء مع تحديد كتبهم التي ينالون الجائزة عنها .

ولقد اعلنت النتيجة الادبية لجائزة الدولة هذا العام فكان الفائزان هما : الدكتورة سهير القلماوي والدكتور شوقي ضيف عن كتابيهما : « فن الادب » و « شوقي شاعر العصر الحديث » ، ومن عادة اللجنة التي تصدر الاحكام في هذه الجائزة ان تحدد كل عام المجال الذي تخصص له الجائزة ، وقد كان هذا المجال في العام الاخير هو : النقد الادبي .

واول ما يلاحظ على هذه الجائزة التي تشارك بها الميزانية المصرية في نشاطنا الادبي ان اللجنة التي تقرر النتائج السنوية لا تنظر في غير الكتب التي تتقدم اليها بعد ان تعلن عن الجائزة وموعد انتهاء التقديم وغير ذلك من البيانات والمعلومات ، ولا شك ان هذا الموقف خاطىء لعدة اسباب ، فهو من ناحية يضيق مجال الجائزة فلا تتجه إلى مؤازرة العمل المتفوق من بين الانتاج الأدبي في مصر وفي صورته الكاملة . بل تقتصر على التمييز بين الأعمال الادبية المتقدمة اليها وحسب دون مقارنتها بالاعمال الادبية الاخرى التي لم تتقدم إلى اللجنة وكان عدم تقدمها هذا هو الشرط الوحيد الذي ينقص تلك الاعمال من بين الشروط الاخرى المطلوبة .

وهناك من ناحية اخرى افتراض ضمني في تكوين اللجنة الخاصة بهذه الجائزة ، وهي انها تمثل طبقة من الادباء الكبار الذين اتيحت لهم من فرص التخصص والتفرغ ما يمكنهم من رصد نشاطنا بصورة دائبة وتكوين رأي في كل ما يجد من مظاهره ، فهذا هو عملهم الذي تعينهم الدولة على ممارسته بلا عقبات معنوية او مادية ، مما يفرض عليهم مسؤولية اداء هذه الوظيفة في صورة امينة .. إنها مسؤولية تقترن فيها امانة الضمير العلمي بأمانة الضمير الاجتماعي ، والوظيفة الأدبية هنا ليست مفصولة عن الوظيفة الاجتماعية واي تقصير يحدث في اداء الوظيفة الاولى هو تقصير يحدث في اداء الوظيفة الثانية ، وأعضاء اللجنة هم من كبار أساتذة الجامعات الذين يمارسون عملهم حتى اليوم او الذين اتموا مدة الخدمة الحكومية في مجال الجامعة ليمارسوها في مجالات اخرى مختلفة ، ومن

النشاط الثقافي في العالم العربي

اعضاء هذه اللجنة عدد كبير من ذوي المراكز الثقافية الهامة في مصر كلهم يعيشون في امن واطمئنان اجتماعي بحيث لا يوجد عائق خارجهم يمكن ان يبرر لهم عدم الاكتراث بشؤون هذه الجائزة المقتطعة من الميزانية المصرية لتشجيع النشاط الادبي .

على هذه الاسس يتبين أنه قد كان من الضروري ان تتجه اللجنة لرصد النشاط الادبي لاختيار الاعمال الجديرة بالجائزة اختياراً لا تقيده ضرورات اخرى كوجوب اتجاه العمل الادبي الى نيل الجائزة كهدف له ، او وجوب تقديم هذا العمل الى اللجنه واقتصار الاختيار على الاعمال المقدمة،وحسب.وتلك هي المسؤولية التي يلتزم بها اعضاء اللجنة امام الدولة التي وضعتهم في هذا الموضع رمزاً لاهتمامها بتيارات النشاط الثقافي في داخل المجتمع ، وايمانها بضرورة معاونته ودفعه لتأدية وظيفته الكبرى بين العوامل المختلفة التي تصنع الواقع وتؤثر فيه ؛ بل إن هذا التقدير المادي من الدولة يهدف في حقيقته الى إزالة العوائق التي قد تعترض النشاط الادبي فتمنعه عن تأدية وظيفته ... هذه العوائق التي تتمثل احياناً في دور النشر ، وتتمثل احياناً في وسائل الاعلان واحياناً ثالثة في المجال القرائي الذي يتجه اليه الكتاب ، ومن انتصارات العمل الادبي الذي يهدف الى تأدية وظيفة حقيقية هادئة في قلب مجتمعه ، هذه الانتصارات التي تتم بمؤازرة قوى من بينها قوة الميزانية التي تتجمع من ضرائب الشعب... من هذه الانتصارات تستطيع روح الحياة ان تتغلب على العوائق التي قد تعترض قضية ارتباط الادب بمجتمعه ... أقصد بعوامل تقدمه وتطوره وتعميق طرائق الادراك والتفكير في داخله ، فمن الممكن ان تتحكم هذه العوائق - كما هو حادث بالفعل - في توجيه النشاط الادبي الى عمل تجاري لا يدرس واقع القاريء وحاجاته بقدر ما يستجيب لنزعاته السطحية او لرغباته التي قد تكون ضد حياته الحقيقية ... وما اشبه القضية هنا بقضية الاذاعة مثلاً ، فهي تعتمد في بقاء عدد كبير من برامجها على موافقة المستمع واقباله على هذه البرامج ، بينما نستطيع أن نتبين ان إقبال العامل مثلاً على الاستماع إلى البرامج الاذاعية المختلفة مرتبط تماماً بما يبذله من جهد شاق في عمله . وما يتسم به فراغه القليل من ارهاق وخدر كأنها مرحلة ثالثة بين الحياة والموت ... في هذه الظروف تقف الاذاعة لتقول إن العامل مثلاً يستجيب لبرامجها ويقبل على الاستماع اليها ، وما هو في الحقيقة الا إنسان شقي مرهق يلتمس الراحة فيها يشبه عملية تخدير اجتماعية كاملة هي هذه البرامج الاذاعية وامثالها ، وهذا العامل في الحقيقة يحتاج الى من يقف جانبه ، ويستغل لحظات الفراغ القليلة التي تتاح في حياته ليقول له : هذا هو دورك الحقيقي في الحياة ... وهو دور خطير له حقوقه وعليه واجباته وانت مهضوم الحقوق تستحق ان تلح في المطالبة كما يلح الاخرون في امتصاص فراغك وطاقتك ... أيكون هذا العامل وامثاله من المستمعين هم الذين يوافقون على برامج الاذاعة او يقفون بجانبها ؟.. نفس القضية في هذا الادب الذي يقول انه يستجيب لرغبات القاريء ونزعاته وتعتمد عليها نفس القضية في المؤسسات التي نشأت لتسيطر على ثقافتنا المصرية اعتماداً على ذلك الزعم السابق ، وارتكازاً على النجاح الاقتصادي الذي حققته تلك المؤسسات ... ارتكازاً عليه كدليل حاسم على أن رغبات القاريء ونزعاته هي التي كونت رؤوس الاموال الهائلة التي تعتمد عليها دور النشر الكبرى في مصر ، ونستطيع ان نضع - للمقارنة - إلى جانب تلك الحقيقة السابقة الخاصة بالربح المادي لدور النشر حقيقة اخرى دون تعليق وهي : ان تجار المخدرات لو اتيحت لهم فرصة لمصالحة القانون كما اتيحت الفرصة لدور النشر لوجدت عندنا طبقة من اكبر اصحاب رؤوس الاموال في مصر ... بل لاستطاعت هذه الطبقة ان تسبق في هذا المجال كل تفوق اقتصادي إحرزته دور النشر الكبرى ...

ولكن ضمير الدولة ، التي هي في جوهرها قوة لحماية الشعب من اعدائه ، ضمير يقظ مهما عرقلته القيود التاريخية الطويلة ... ومن هنا فقد تسلل بند من بنود الميزانية المصرية ليحتل مكانه في مؤازرة النشاط الأدبي والثقافي عامة ، وحين نصرف النظر قليلا عن الارقام التي يحتويها هذا البند نستطيع ان نتبين المغزى الرمزي الكبير الذي يتلخص في ان الدولة تعتبر الادب قوة من القوى العاملة الفعالة في داخل المجتمع الذي توجد هذه الدولة لحماية قوانينه ونظمه ولإقرار مباديء التكامل الاجتماعي بين أرجائه في حدود الفهم الموضوعي لهذا التكامل ...

هذا المغزى الرمزي الكبير لجائزة الدولة ينبغي ان نقف عنده كثيراً وينبغي ان نحميه من اي اعتداء ينتقص منه او يعمل على تحويله عن تأدية وظيفته التي هي مساهمة معنوية اولا ومادية ثانياً في الدفاع عن العمل الادبي الذي خرج بشكل طبيعي من قلب مجتمعه ليشارك في تأدية وظيفة الادب في ذلك المجتمع ، دون ان تحول بينه وبين ذلك عوائق تفرض نفسها نتيجة لتوفر البيئات المختلفة التي يمكن ان تتبلور على شكل عوائق في داخل المجتمع ... تماماً كما يحدث في البيئات المادية التي تتحول إلى حياة في شكل كائنات كالدود او غيره ..

ولعل نتيجة الجائزة الادبية لعام ١٩٥٥ ... هذا العام ... تبين مدى انحراف اللجنة المشرفة على توزيع الجائزة ، وهو انحراف ليس عارضاً على الإطلاق ، ولكنه انحراف اصيل متحقق في شتى الاحكام التي اصدرتها في الاعوام الماضية ... تكاد تكون هذه الجائزة هدية يقدمها اصدقاء لاصدقاء ، لا عملا ذا دلالة اجتماعية هامة وتأثير مطلوب في الجانبين : المعنوي والمادي ، فلقد ظهر الكتابان اللذان نالا الجائزة هذا العام بين سنتي : ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ... وليس في واحد منها جهد أدبي مرتبط بأي عملية من العمليات الكثيرة التي تمثل اهتمامات المجتمع المصري اليوم في مجال الادب ، فهناك قضايا هامة هي القضايا الحاضرة لهذا المجتمع .. هناك قضية المناهج الجديدة التي تحاول ان تمزق ضيق المناهج القديمة في دراسة الأدب وفي فهم ارتباطه بالحياة وفي المجالات الثقافية التي يعتمد عليها دارس الادب، وكتاب مثل « الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر » للدكتور مصطفى سويف جدير بالاهتمام لانه يحاول في إخلاص وذكاء وجهد إن يقدم محاولة متفوقة في مجال تغيير المنهج الدراسي للادب ... هناك قضية الاهتمام بالتراث الشعبي الذي كاد يضيع تحت ركام الاهمال الطويل بالرغم من انه أساس رئيسي خصب في فهم نفسية الشعب المصري خلال صراعه التاريخي الطويل ... وكتاب « الادب الشعبي » للاستاذ احمد رشدي صالح

يثير هذه القضية إثارة جديرة بالاهتمام والتقدير ... وهناك قضية تراثنا التاريخي القديم في الادب الفرعوني ، هذا التراث الذي قدمته لنا الحفائر واوراق البردي والجهود الرائعة لعلماء الآثار في فهم اللغة المصرية القديمة .. هذه القضية يثيرها كتاب « المسرح المصري » الدكتور لويس عوض حيث يحاول في عمق ووعي ان يخضع بعض الآثار التي وصلتنا من الادب الفرعوني القديم لمناهج الدراسة النقدية في المسرح ، تلك المناهج المدركة التي نمت في ارض من الخبرات والتجارب الانسانية العديدة ... وقضية الادب الحزبي الملتزم ، الادب الذي يتخذ موقفاً سياسياً اجتماعياً ثم يرصد انعكاسات هذا الموقف في الادب ويعرض لضروراته والتزاماته .. هذه القضية التي وقف على تفسيرها بعنف صارم وإدراك كبير كتاب « في الثقافة المصرية » للاستاذ محمود العالم والدكتور عبد العظيم انيس والتزمها من قبل بهدوء اكثر وموضوعية اعم الدكتور لويس عوض في كتابه « في الادب الانجليزي الحديث » ... وقضية الاستبطان الذاتي في التجارب القرائية للاعمال الفنية كما وفق الاستاذ أنور المعداوي في كتابه « نماذج فنية من الادب والنقد » الى تقديم بعض نماذجها الواضحة ... كل هذه القضايا الهامة لا يقف ازاءها اعضاء اللجنة التي اصدرت احكامها باسم جائزة الدولة ... بالرغم من ان معظم الكتب السابقة قد صدرت في الفترة المحددة لجائزة الدولة هذا العام ، والكتابان اللذان نالا الجائزة يقفان بعيداً جداً من هذه القضايا الهامة في تاريخ الادب المصري وتطوره فكتاب « من الأدب » للدكتورة سهير القلماوي دراسة لقضية « المحاكاة » في العمليه الادبية كما تصورها افلاطون وارسطو ، ولكنها دراسة لا تثبت طويلاً للمناهج المسؤولة في الدراسات النقدية والحضارية ، وهي لا ترتبط بمجال واحد من مجالات اهتمام الادب المصري والمجتمع المصري في مرحلته الراهنة ، إنه دراسة ظهرت في ادبنا دون مقدمات في تاريخ هذا الادب او تاريخ الكاتبة ، ولن يكون لها نتائج لانها دراسة عقيمة مغلقة. اما الكتاب الثاني وهو « شوقي شاعر العصر الحديث » فلا يكاد يفترق عن السابق في اهميته ، فهو كتاب بسيط لا يقدم منهجاً ولا يدافع عن قضية ، ولا يكشف بعمق جانباً واحداً من جوانب الموضوع الذي يدرسه ... جانباً جديداً له قيمته في « الشاعر » أو في « العصر الحديث » او في « العلاقة بينهما » — وهناك حقائق أخرى حول هذين الكتابين لا نحب ان نعرض لها هنا ، وهي حقائق متصلة بالدوافع الاجتماعية الفردية التي وجهت تفكير المؤلفين الى اخراج كتابيهما في هذين الموضوعين بالذات دون ان يربطا بتخصصهما الجامعي السابق ... ولا نحب ان نعرض الان لهذا الجانب من جوانب الموضوع ، وقد نعود اليه مرة اخرى حين تتاح فرصة للحديث عن الجامعة .

بقي ان نشير الى ملاحظات عامة حول الشروط التي تفرض ذاتها على اللجنة المشرفة على هذه الجائزة دون ان تجد ملامح التغير الهامة على وجه الحياة طريقاً الى تغيير مثل هذه الشروط المتخلفة ... فمثلاً ما زال من المتعارف عليه ان مفهوم التعبير الادبي عند اللجنة يرفض اي خروج على التقاليد الرسمية القديمة ، فالحوار العامي او دراسة التراث الشعبي ، او الخروج على النظام الشكلي للقصيدة العربية ... كل هذه المحاولات التي تعتبر في الاعمال الادبية المختلفه التي تعتمد عليها ضرورة قوية المبررات ... كل هذه المحاولات تقف منها اللجنة موقف الرفض وعدم الاعتراف .

كما ان مفهوم الاخلاق ما زال ضيقاً قاصراً ، فالاخلاق في العمل الادبي لا بد ان يلتمس لها مقاييس اخرى غير مقاييس السلوك الفردي . لا يصح ان يكون الحكم على اخلاقية العمل الفني متجهاً الى داخل هذا العمل ذاته ... في القصة مثلاً لا ينبغي ان نحكم على اخلاقيتها كعمل فني من السلوك الحرفي لابطالها والاحداث التي تقع فيها ، بل لا بد من التماس تلك الاخلاقية في تحليل العملية القرائية ذاتها ... في علاقة العمل الفني بالقاريء ... في الصلة المتفاعلة بين العمل ككل وبين واقع المجتمع من خلال الخيط الذي يربط المجتمع بهذا العمل ... هذا الخيط الذي هو القراءة ، هذه المفاهيم المختلفة عن الادب والحياة ينبغي ان تتغير ، حتى تصب روافد المجتمع كلها في قلب واحد ... في داخله ، لأن هذه الروافد لا زالت حتى اليوم مبددة لا حواجز لها ولا اهداف ... انها تضيع في رمال من المجاملات والبطء في الاحساس بحركة الحياة وعدم إدراك حدود المسئولية الفكرية والاخطار التي تقع نتيجة لعدم التزامها ... خصوصاً اذا كان هذا الالتزام لا يمكن فرضه الا عن طريق رقابة ذاتية واعية مخلصة .

على ان هذا كله لن يتم تلقائياً بل لا بد من ان تقوم التيارات الادبية النابعة من كيان المجتمع بدور فعال في إزالة هذه العوائق كلما اتيحت وسيلة من الوسائل ، فينبغي الا ينسحب من المعركة مهما ضاق ميدانها ، ومهما تآزرت المفاهيم الرجعية بما لها من سلطان على تعطيلها والوقوف بينها وبين اداء وظيفتها الفعالة في الحياة .

واخيراً ... فهناك بعض « البنود » الاخرى في الميزانية المصرية متخصصة في مؤازرة النشاط الادبي ، وسوف نعود اليها مرات اخرى ، اذ لا بد ان تتجه الروافد المختلفة في المجتمع الى تأدية وظيفتها في قلب هذا المجتمع حتى يتنفس في اطمئنان وصحة ... بلا قيد ... ولا مرض .



لمراسل « الآداب » سعد صائب

مؤتمر ادباء العرب الثاني

من دواعي الغبطة ان حكومتنا قد برت — بعد لأي — بوعدها الذي قطعته في مؤتمر ادباء العرب ، الذي عقد في لبنان ، في العام الفائت ، بدعوة المؤتمر الثاني للانعقاد في دمشق . فلم يطو مجلسنا النيابي — حين بحث الموازنة العامة — الاعتمادات التي كانت وزارة المعارف قد رصدتها في موازنتها للانفاق على هذا المؤتمر . ولم تتقاعس هذه الوزارة بدورها ، وقد فاتها الوقت ، في تسمية لجنة وطنية من الكتاب والادباء السوريين ، تعهد اليهم القيام بتنظيم عقده ، بل عجلت بتأليف لجنة تحضيرية قوامها الاساتذة :

احمد الفتيح امين عام وزارة المعارف — الدكتور كامل عياد — فؤاد الشايب — شاكر مصطفى — الدكتور عزة النص — الدكتور حلمي اللحام — سعيد الجزائري ، ومهمة هذه اللجنة تهيئة المؤتمر واعداده .

كما سمت عدداً من الاعضاء العاملين من بينهم الاساتذة : خليل مردم

بك – شفيق جبري – الدكتور حكمت هاشم – الدكتور ابراهيم الكيلاني – الدكتور امجد الطرابلسي – الدكتور جودت الركابي . وعدداً آخر من ادباء دمشق . كما سمي عدد من الاعضاء الذين سيدعون للاشتراك في المؤتمر من المدن السورية ، ومن مختلف الاقطار العربية. اما المواضيع التي ستبحث خلال انعقاد المؤتمر ، فلم يتفق عليها بعد ، وثمة موضوعان اقترحا لينتقى واحد منهما : اولهما يدور حول « مستقبل الادب العربي » يبحث من خلاله :

مستقبل الشعر – مستقبل البحث الادبي – المقال – القصة – المسرحية.

وثانيهما يعالج « مشكلات الادب العربي المعاصر » ويتناول الأزمتين : ازمة النشر ، وازمة الانتاج .

من المرجح عقد المؤتمر في شهر آذار (مارس) القادم لسببين اثنين ، اولهما فسح المجال للجنة ، كيما تتمكن من اعداده ليكون لائقاً ، وثانيهما اتاحة الفرصة للادباء في تهيئة احاديثهم التي سيلقونها خلال انعقاد المؤتمر .

معركة حول ... الوعي القومي

وجهت مجلة « الرأي » الاسبوعية ، الى بعض رجال الفكر في دمشق ، عدداً من الاسئلة ، كان في رأسها السؤال التالي : « هل ترون ان الوعي القومي في تزايد ام في تناقص ؟ . وما هي العوامل التي يمكن بهـا زيادة هذا الوعي ! » وقد كان من بين من اجابوا المجلة ، الدكتور شكري فيصل ، الذي ذهب في جوابه ، الى انه ليس هنالك وعي شعبي ، رغم عمل الاحزاب والجماعات العربية ، وذهب ايضاً الى ان الوعي الذي نجده هو غير هذا الذي نريد .. ولعل خطورة هذا الرأي تدفعنا الى عرضه هنا داعين ، كما دعت المجلة ، جميع المفكرين العرب والمهتمين بالقضية العربية، الى بحث هذا الموضوع الخطير ، مساهمة منهم في توضيح معالم الطريق الصحيحة ! .

يستهل الدكتور فيصل جوابه بان موضوع السؤال ظل حيناً من زمن في الاشهر الماضية يؤرقه ويلح عليه . كما يشير الى أن الاجابة عنه عسيرة، مع اقراره « بان كلمة « الوعي » اضحت في حياتنا « الفكرية – القومية » اكثر الكلمات تداولاً ، منذ ان تبلورت عنواناً لكتاب الدكتور قسطنطين زريق « الوعي القومي » وانها ازدادت ازدياداً عجيباً في التداول الصحفي والحزبي والفكري ، الافرادي والجماعي ، بعد كارثة فلسطين بوجه عام » . ثم يلمح الى « ان اكبر الخطأ الذي نقع فيه ، ان نظن ان انتشار « الكلمة » يعني انتشار « المفهوم ... وان انتشار المفهوم في الاذهان ، يعني انتشاره كذلك في الواقع » والذي يذهب اليه الاديب ويستعيذ منه بالتشاؤم اننا لا نزال في المرحلة الاولى ، وان « الكلمة » لا تزال لوناً من التعبير ، وصفه بانه تعبير « مشع » ثم يمضي في قوله : « ان هذا الوعي الشعبي ، لم يتكون بعد حتى نذهب الى انه في مرحلة تزايد او تناقص » ويتساءل بعد ان ينتقل الى الوعي بمعنى « تنبه الناس » افي تزايد هو ام في تناقص؟ منكراً ما يراه من دلالات في وطننا العربي على هذا الوعي ، وتزايده ، نافياً عنها حقيقة الوعي « الذي نبشر به ونذهب اليه » صارخاً « لا » لان الوعي الذي يريده « ليس تلبساً فكرياً ، ولا مشاركة عاطفية ، ولا معرفة بالوضع واحاطة به » لانها كلها في رأيه مقدمات الوعي « وانما الوعي الحق ، هو هذا الوعي الفاعل العامل المؤثر ، الذي يفهم ويدرك وينفعل ، وينجز لوناً عاطفياً ، ثم تتوهج من حوله شعلة الارادة ، لتنطلق من بعد ذلك ، عملاً منظماً منتهياً الى غاية معروفة ، او الى جزء من غاية معروفة مدروسة ، وما لم يتخذ الوعي هذا الشكل العملي ... ما لم يكن تتويجاً لهذه الحالات الفكرية ، والعاطفية ، والارادية ، المختلفة .. ما لم يكن دائماً في الحياة العربية الحاضرة ، عملاً متصلاً مستمراً ، فانه سيبقى هو او الحديث عنه ، او التغني به ، نوعاً من التخدير، التخدير الذي يشل القوى المتأهبة للعمل في الحاضر، ويقتل القوى الصاعدة في المستقبل ، ويوجهها وجهة الانحلال والذوبان في الدعوات « المريحة » !.

اما عن الشق الثاني من السؤال « عوامل زيادة الوعي » فيجيب بقوله : « فما احسب اننا في حاجة الى هـذا النوع من الوعي ، الذي نعيش به ... « وعي » قليل حق ، خير من « وعي » كثير يدور على نفسه ، في غير طريق . ثم ينهي رأيه موجهاً حديثه الى سائله قائلاً : « وبعد فان كنت تريد « الوعي » مثارات ومظاهر واعداداً ... اذاعة وراديو وصحفاً ... ندوات واحزاباً وعجلات ... فهو موجود ، وسيزداد في الطريق التي يمضي بها . وان كنت تريد « الوعي » عملا منتجاً ... غايات وبرامج وخطوات ، في تطبيق هذه البرامج ، وتحقيق هذه الغايات.. وعياً متكاملا في كل قطر عربي ، في كل ناحية من نواحي الحياة . فهو غير موجود ... وان كنت تريد ان الحلقة بين هذين اللونين من الوعي هي التي تنقص المجتمع العربي ، فانا وانت متفقان » .

وقد اجاب الاستاذ شاكر مصطفى ، في عدد آخر من مجلة « الرأي» على السؤال نفسه ، مناقشاً بعض ما ورد في جواب الاستاذ شكري فيصل من آراء فقال : « لقد محق الدكتور وجود « الوعي » مرة واحدة ، او أوشك ، وقال ان الوعي الشعبي لم يتكون بعد ، حتى نذهب الى انه في مرحلة تزايد او تناقص! . واقول واستعين بالله على التفاؤل – كما استعاذ اخي الدكتور من التشاؤم – بل ان الوعي الشعبي القومي قد وجد وقد تزايد ، وسوف يتزايد ايضاً وايضاً مع مسير القافلة وبعد ان يغمض الطرف قليلاً ، عن الوعي المثالي ما يكون وكيف يكون ؟ نلقاه يرجو من زميله ويلح في رجائه ، ان ينظر معه الى سورية والبلاد العربية في مطلع هذا القرن واليوم ، متسائلاً ملحفاً في تساؤله : اليس بين العهدين من تفاوت ؟ مؤكداً اياه عازياً اليه ما يراه من تغلغل فكرة الوحدة العربية ، وتفاني الاحزاب ورجال السياسة ، وحتى المستعمرين وابواقهم ، في الدعوة لاعتناقها والتبشير بها ، والكفاح من اجل تحقيقها ، معقباً على ذلك بقوله : « .. ومن ذا الذي بعد ، يجبر الحزب او رجل السياسة على هذا الطريق، او ذلك ، لو لم يكن هنالك وعي شعبي يخشاه المتزعمون ، ويدغدغون آماله في الناس ؟ » . ثم نراه يختم جوابه او ان شئت نقاشه بقوله : « .. لقد كانت الشعوب العربية منذ ربع قرن ، في معزل كامل عن الحياة القومية العامة ، وكان الوعي القومي ، يتمثل في افراد ومجموعات صغرى متفرقة ، وكانت الفكرة

النشاط الثقافي في العالم العربي

الاشتراكية ، حديث ترف على مائدة مثقفة ، اما اليوم فقد اصبحت هذه الامور شعارات شعبية ، وامراً يومياً يعدل الخبز اليومي . لست اشك في ان الوعي القومي ، يختلف في البلاد العربية من منطقة الى اخرى بل من شخص الى آخر ، ولكن عدد الواعين اليوم لما هم ، ولما يريدون اضعاف اضعاف دعاة الامس ، ومقدار فهم الناس المشاكل القومية العربية ، وترابطها ، واتصال بعضها ببعض اضحى اعمق واوضح ، اما وسائل الوعي القومي ، فيجب ان نسأل عنها بالعكس في العوامل التي وسعت الوعي القومي العربي في نصف القرن الماضي . واعتقد ان اتصال الجماهير العربية بالحياة الحديثة على نطاق واسع ، وما نتج عنها من رفع لمستوى المعيشة ، وانتشار للتعليم ، قد ساهم لحد كبير في عمق الوعي القومي وزيادته ، بالاضافة الى العامل السلبي . وهو وجود الاستعمار في اجزاء مختلفة من الوطن العربي ، وضرباته التي تنفذ كل مرة الى العظم . ان هذه العوامل نفسها ، هي أسس الوعي القومي الحقيقي ، الذي سيحل مشاكل الغد العربي » . ترى ؟ ما قول المفكرين العرب ، والمهتمين بالقضية العربية ، فيما ذهب اليه الدكتور فيصل في رأيه ، عن وعينا القومي ، وفي نقاش الاستاذ شاكر مصطفى هذا الرأي ؟؟

العراق

تشجيع النشر والتأليف والترجمة

اخذ النشاط الثقافي في العراق يستيقظ من فترة خموله التي دامت اكثر من ثلاثة اشهر بسبب العطلة الصيفية للمدارس والكليات وسفر اكثر الاساتذة الى الخارج للاصطياف وعدم وجود حوافز تثير الادباء والمثقفين للانتاج اللهم الا ما تنشره بعض الصحف المحلية بين فترة واخرى من مقالات وبحوث ادبية اكثرها معالجات لمواضيع لا تستدعي كثرة الوقوف عندها او التأمل فيها .

بدأ النشاط الثقافي هذا الشهر في العراق بقيام مديرية العلاقات الثقافية في وزارة المعارف التي يرأسها الدكتور عبد الرحمن خالد القيسي في وضع تعليمات جديدة لتعضيد النشر والتأليف والترجمة في العراق ومساعدة المؤلفين والباحثين على الانتاج بمختلف الوانه لكي يساير العراق البلدان العربية الاخرى في التأليف والتحقيق والترجمة .

وتقوم مساعده وزارة المعارف التي تقدمها للمؤلفين والباحثين على نوعين (١) المساعدة المالية التي تقدم لطبع الكتب التى ترى الوزارة فيها فائدة لتعميم الثقافة في العراق يدخل فى ضمنها رسائل الدكتوراه والماجستير (٢) المساعدة التى تقدم بشراء نسخ من الكتب المطبوعة والمشاركة فى المجلات سواء اكان المطبوع عربياً ام اجنبياً .

والكتب المؤلفة التى تساعد وزارة المعارف على طبعها على نوعين (١) كتب تتحقق فيها شروط البحث العلمي (٢) كتب تتسم بالاصالة علاوة على توافر شروط البحث العلمي . ويشترط فى الكتاب المترجم ان يكون من نتاج المبرزين في حقول المعرفة وذا قيمة ثقافية وان تتسم الترجمة بالدقة وسلامة الاسلوب وان لا يكون الكتاب المترجم قد سبق نشره ، كما يشترط في الكتاب المحقق ان تكون له قيمة ثقافية مهمة وان يتبع في تحقيقه الاساليب العلمية المألوفة وان لا يكون قد سبق نشره .

وقد تألفت لجنة في وزارة المعارف من اعضاء يمثلون الآداب والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية والرياضة والتاريخ مهمتها النظر في خطط البحث المقترحة من قبل الباحثين واحالتها على ذوي الاختصاص لمعرفة مدار البحث وقيمته ولها ان ترفض الخطط اذا رأت عدم صلاحها .

ويجوز للباحث ان يعرض على وزارة المعارف خطة بحثه قبل البدء به على ان تتضمن المشكلة التي ينوي معالجتها واهميتها النظرية والعملية والبحوث السابقة في الموضوع مع ذكر المراجع التي سيعتمد عليها . هذا وقد اذاعت وزارة المعارف ان اللجنة المختصة او مجلس المعارف سينظم قائمة بالكتب التي ترى ترجمتها الى العربية وتعلن عن ذلك بمسابقة لغرض انشاء مكتبة حاوية لامهات الكتب العلمية الاجنبية يستفاد منها في التدريس الجامعي في المستقبل وتعتمد المسودة من الوزارة حتى يقوم المؤلف بنشرها .

هذه هي الخطوط الرئيسية لتعليمات تعضيد النشر والتأليف والترجمة التي وضعتها وزارة المعارف مؤخراً . وتقوم اللجنتان المشكلتان لتعضيد النشر بتدقيق الطلبات المقدمة الى مديرية العلاقات الثقافية سواء الذين يطلبون المساعدة المالية لطبع كتبهم او المساعدة لشراء نسخ من كتبهم المطبوعة ثم تقدم توصياتها لمجلس المعارف بهذا الشأن المصادقة على قراراتها . وقد وضع مبلغ (٣٠٠) دينار كحد اعلى لمساعدة المطبوع وشراء (٢٠٥) نسخ كحد اعلى من الكتاب المطبوع .

وتتساهل اللجنتان تساهلا كبيرا في تقرير المساعدات المالية للكتب اوشراء نسخ منها وذلك لتشجيع حركة الثقافة في العراق وخلق جو فكري يساعد على قيام نهضة ادبية سريعة ، ولكن المؤمل فيها وجميع اعضائها من الدكاترة والاساتذة المعروفين باختصاصهم وقابلياتهم ان يتشددوا في المستقبل كثيراً بمنح المساعدات او شراء الكتب الا لمن يستحقها من اصحاب الآثار والنتاج الجيد في حقول المعرفة.

بغداد مهدي القزاز

صندوق البريد

الترجمة والتشويه

ترجم الاستاذ عبد المنعم عواد يوسف مقالاً للشاعر الناقد الانجليزي س. داي لويس وكنت قرأت هذا المقال في نصه الانجليزي .. ولهذا أصبت بخيبة أمل شديدة وأنا أقرأ ترجمة الاستاذ عواد المشوهة !! فقد عمل فيها يده بالاختصار والتشويه والتصرف المعيب .. حتى خرجت أبعد ما تكون عن المقال الاصلي.. فقد بتر منها فقرات بأكملها تدخل في صميم الموضوع نفسه.. كما حذف كثيراً من الجمل بين الفقرات نفسها التي ترجمها .. بلا أي سبب يدعوه لذلك !!

وقد تحقق ظني عندما رجعت إلى النص الانجليزي.. فرأيت العجب العجاب مما فعله الاستاذ عواد باسم الترجمة .. والتصرف .. وحرصه على ما يهم القارىء العربي ! مع ان الفقرات التي حذفها ما هي إلا توضيح أو اكمال أو شرح لما يريد الشاعر ان يقوله .

والظاهر ان الاستاذ عواد فهم خطأ الكلمة التي كتبها الاستاذ ميخائيل نعيمه وعنوانها « فانترجم ! » (العدد الثامن – السنة الثالثة من الآداب).. فاعتقد أن الترجمة من السهولة بحيث يستطيع أي انسان على علم ببعض مفردات لغة أجنبية، أن ينزل إلى ميدان الترجمة ! وبدلاً من أن يفيد القارىء العربي الذي لا يعرف لغة أجنبية .. بدلا من هذا يضحك عليه ويضلله.. ويعطي لنفسه الحرية كل الحرية في أن يقول ما يريد هو أن يقوله .. بصرف النظر عن النص الذي يترجمه !

ولأثبت كلامي هذا بالنسبة لما « ترجمه » الاستاذ عواد يلزمني الاستشهاد ببعض الفقرات التي تركها عامداً لانها لا تهم القارىء العربي !

ان الناقد الانجليزي يبدأ مقاله بأن يضع الخطوط الاولى لما يريد ان أن يعبر عنه ولهذا يفترض أن :

The right attitude towards poetry is one of acquiescence

ولم يترجم الاستاذ عواد هذه الجملة.. وأغفل ترجمتها المرة الثانية عندما كررها داي لويس بعد ذلك في قوله :

That is why an attitude of acquiescence is so important

وهذا يقطع أن المترجم لم يفهم كلمة Acquiescence ومعناها « اقتناع أو قبول أو تسليم » .. فلم يكلف خاطره عناء البحث عن معناها فأغفلها.. لأنها لا تهم القارىء العربي !

والذي يقرأ المقال بلغته الاصلية يحس ان الكاتب يكتب كلاماً علمياً دقيقاً ويعني كل كلمة يخطها .. ولا يلقي الكلام على عواهنه .. ولكن المترجم – غفر الله له – آثر النزول بالمقال عن مستواه العلمي هذا..والجنوح به الى السهولة القائمة على الاهمال وعدم احترام القارىء العربي الذي لا يعرف اللغة الانجليزية !

ففي موضوع آخر يقول المترجم : « وإن الكثيرين ليسألون الشعراء عوضاً عن ثقتهم المفقودة...الخ » وكلمة الكثيرين التي تفضل بها المترجم على القارىء العربي يقابلها في النص الانجليزي ما يلي :

Many of the Victorians, for instance and the devotees of our political poetry of the thirties.

وبهذا يقصد داي لويس فئة معينة .. ولا يقصد التعميم الا في حدود هذه الفئة ، أما كلمة الكثيرين التي تفضل بها علينا المترجم الهمام..فلا تدل إلا على الاهمال ! واللطيف انني كنت مع نفر من أصدقائي الذين لا يجيدون الانجليزية .. نقرأ هذا المقال المترجم .. فشعر أحدهم بقفزات في السياق.. لا يمكن ان يستسيغها العقل .. وجاهر آخر بأن الكاتب الانجليزي رجل مخرف !! والحقيقة أن المترجم هو الذي أساء للكاتب المسكين ! فعندما رجعنا إلى النص .. رأينا أن المترجم النشيط شمر عن ساعديه وحذف بجرة قلم احد عشر سطراً من الصفحة الاولى..يصف فيها الكاتب الشعور المعادي الذي يتخذه بعض الناس تجاه الشعر .. ثم يبين الطريقة التي يمكن لهم ان يغيروا بها نظرتهم الى الشعر كفن من الفنون !! ثم يحذف المترجم اربعة عشر سطراً من الصفحة الثانية لانها تتحدث عن تكنيكية القصيدة وليس من السهولة ترجمتها على القاريء العادي .. لانها تحوي بعض الكلمات الفنية مثل Alliteration و Assonance .. ولهذا آثر المترجم أن يلقي التبعة على جهل القاريء العربي الذي لن يهتم بما لم يفهمه المترجم !!

وفي الصفحة الثالثة يحذف المترجم كل ما يعترض سبيله من جمل .. إذا كان فيها اسماء اعلام في الادب مثل وردسورت ، وكوليردج ،وشيللي ، وت . س . اليوت ، وهربرت ريد . كأن القاريء العربي لا يعرف عن هؤلاء شيئاً ، ولهذا يحسن عدم بلبلة افكاره بذكر اسمائهم... او كتبهم التي رشحها الكاتب كأحسن ما كتب من النقد الشعري !!

ويسير الاستاذ المترجم على منوال الحذف حتى « يسخط » المقالة الى ما يقرب من الربع ، حرصاً على وقت القاريء العربي !

والطريف ان يدعي المترجم ان « معظم فقرات المقال منقولة نقلاً اميناً عن النص الانجليزي .. » والحقيقة ان بعض الفقرات فحسب، مما ينطبق عليها كلام المترجم الامين .. فان عدداً لا حصر له من اسماء الفاعل واسماء المفعول حذفت بلا هوادة .. بالرغم من انها تعبر تعبيراً دقيقاً عما يريد المترجم له ان يقوله .. فمثلا يقول النص :

in order that another part may become more aware , more receptive , more active ..

وترجمت هكذا : « لكي يجعل الجزء الاخر أشد تنبهاً ونشاطاً .. » واغفل المترجم ترجمة كلمة receptive على ما توحي به من معنى دقيق !!

وفي مكان آخر يقول النص :

There is repetition in rhyme and rhythm straightforward repetition of phrase in refrains and choruses.

وترجمت هكذا : « ان الايقاع الشعري يوجد في الوزن والقافية وهذا الايقاع مستمد مباشرة من الكلمات » .!! وبهذا اطلق لفظ « كلمات » على : refrains and choruses .

وبعد .. اعتقد ان المسؤولية كلها لا تقع على الاستاذ عبد المنعم عواد يوسف ، فحسب ، بقدر ما تقع على اسرة التحرير ، التي نشرت هذه المقالة المشوهة التي لم يراع فيها مترجمها الامانة والدقة في نقل افكار الناقد الانجليزي المسكين !! وليت الاستاذ عواد لخص لنا المقال .. بدلا من النقل « الامين » لبعض الجمل دون رابط يربطها !! وبدلاً من ان يقيم نفسه قيّما على القاريء العربي فيحذف من الجمل ما يعتقد انها لا تهمه !!

ان الدكتور كمال يوسف الحاج يقول في تعليقه على العدد الماضي من الاداب « للترجمة منطق واضح سليم يلزم فهمه وإلا باءت جميع محاولاتنا بالفشل الذريع .. » ولقد حدث في ترجمة الاستاذ عواد ما تخوف منه الدكتور الحاج فكانت فشلا ذريعاً !! ونحن لهذا نضم صوتنا الى صوته من ان « يمن » علينا الدكتور ادريس او الاستاذ البعلبكي .. بدراسة ايجابية حول الترجمة .. حتى يعرف بعض من يعرفون مجموعة من مفردات إحدى اللغات الاجنبية ان ثمة فرقاً شاسعاً بين الترجمة والتشويه .

احمد مختار الجمال
جامعة القاهرة

فهرست

العدد العاشر – تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٥ – السنة الثالثة

بيانات ادارية : تدفع قيمة الاشتراك مقدماً – قيمة الاشتراك : في سوريّة ولبنان ١٢ ليرة ؛ في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات ، في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات ؛ في الارجنتين مئة ريال – توجه المراسلات إلى العنوان التالي : مجلة الآداب ، بيروت ص. ب ١٠٨٥